صاحب الكتاب الأكثر مبيعًا

" مائة من عظماء أمة الإسلام غيروا مجرى التاريخ "

مدرسة محمد ﷺ



جهاد التُرباني

مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم

جهاد الترباني

يقول المؤلف: عندما راودتني فكرة كتابة هذا الكتاب قبل عدة أعوام، كنت متخوفا من مجرد ترديد هذه الفكرة في ذهني، ولولا إحساسي بالمسؤولية وضرورة أن أقدم شيئاً جديدا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الزمن بالتحديد، لربما قضيت العمر كله دون أن أقدم على مثل هذا الخطوة، وها أنا الآن أكتب هذه الحروف الأخيرة من هذا الكتاب مودعا إياها بالدموع حزنا على تلك اللحظات الجميلة التي رافقتني وأنا أكتب في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعلم الله أنني لم أشعر في حياتي كلها بسعادة وطمأنينة وراحة نفسية أثناء الكتابة بمثل ما شعرت بها أثناء عملي في كتاب "مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم " ، ويعلم الله أيضا، كم ازداد حبي واحترامي لهذا الإنسان الرائع بعد أن نقبت في تفاصيل سيرته العطرة، وعايشت أحداثها بقلبي وروحي أثناء الكتابة، بكيت لما مر به من ظروف صعبة لا تقوى الجبال على حملها، وتعجبت من قوته التي كان يملكها وإصراره العجيب على مواصلة طريقه رغم كل ما كان يعترضه من آلام وأحزان، وابتسمت وأنا أتأمل في عبقريته في إدارة الأمور وإيجاد الحلول المبتكرة للمشكلات التي كان يواجهها طيلة فترات حياته، دون أن ييأس ولو للحظة واحدة، ودون أن يحني رأسه إلا لخالقه. كنت أعلم منذ البداية بصعوبة الكتابة عن كل الدروس المستفادة من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنني الآن أدركت أنني كنت مخطئا في اعتقادي هذا، فلقد أدركت أن الأمر يتعدى مرحلة الصعوبة إلى مرحلة الاستحالة، فليس هناك مجال لحصر دروس مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم في كتاب واحد، لذلك اكتفيت بما كتبت، آملا بالرجوع لكتابة جزء ثان لهذا العمل في المستقبل، لكي أستعرض فيه بعض الدروس الإنسانية التي لم أتطرق إليها في "مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم "

العودة إلى لحظة الابتسامة الأخيرة

" فكشف النبي صلى الله عليه وسلم ستر الحجرة، ينظر إلينا وهو قائم، كأن وجهه ورقة مصحف ، ثم تبسم يضحك "(1)
في فجر يوم الاثنين الثامن من شهر يونيو من عام 632 للميلاد الموافق الثاني عشر من شهر ربيع الأول من عام 11 للهجرة، فوجئ الصحابة الذين كانوا يصطفون في صلاة الفجر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف يكشف ستارة حجرته التي كان طريح الفراش فيها، فقد غاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صحابته لعدة أيام قبل ذلك بعد أن صار عاجزا عن الصلاة بهم من شدة الآلام التي انتابته نتيجة لمرض شديد الوطأة ألم به، وقد وصل الحال به لدرجة أنه كان يغمى عليه عدة مرات في اليوم الواحد،

____

(1) صحيح البخاري

وهو الأمر الذي دفعه لكي يختار صاحبه أبا بكر الصديق رخيكهعنه ليكون إماما على الناس في الصلاة بدلا عنه، وما أن كشف الرسول صلى الله عليه وسلم ستر حجرته حتى ألقى على أصحابه نظرة بوجه مشرق، ثم تبسم بعدها ضاحكا وهو ينظر إليهم، فلما رأى الصحابة ذلك أصيبوا بالدهشة من شدة الفرح، فأخذ أبو بكر رضي الله عنه يرجع إلى الخلف ليترك مكان الإمام لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم أشار على أصحابه أن يبقوا على ما هم عليه وأن يتموا صلاتهم، ثم أرخى رسول الله صلى الله عليه وسلم ستارة حجرته، ليكمل الصحابة صلاتهم، وبعد الصلاة انصرف الناس إلى شؤونهم وهم سعداء بعد أن اعتقدوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في طريقه إلى الشفاء، ولكن الشيء الذي لم يكن يعلمه الصحابة وقتها، أن تلك الابتسامة المشرقة التي ارتسمت على وجه الرسول صلى الله عليه وسلم وهو ينظر إليهم، كانت هي لحظة الوداع الأخير!
ربما يستغرب القارئ الكريم من السبب الذي يدفعني لكي أبدأ الكتابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمشهد الأخير من حياته، فبعد لحظات قصيرة من هذا اللقاء الخاطف مع صحابته، وبالتحديد في ضحى ذلك اليوم، انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه من تلك الحجرة التي أطل منها على أصحابه، والحقيقة أن سبب اختياري لهذه النهاية لتكون البداية التي أنطلق منها لكتابة هذا العمل الأدبي، يكمن في تلك الابتسامة المشرقة التي ارتسمت على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك اللحظة،

تلك الابتسامة التي تختصر سيلا من المعاني الإنسانية التي يصعب شرحها بالكلمات أو العبارات، فالمتأمل في تلك اللحظة الفاصلة في حياة أي إنسان يدرك هول ذلك الموقف الإنساني وما قد يرافقه من شعور بالقلق على مستقبل من يتركهم الشخص من بعده، إن كانوا أبناءه أو تلاميذه أو غيرهم ممن كان مسؤولا عنهم في حياته، فما بالك بشخص مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر عهد له بالدنيا تاركا خلفه مسؤولية الإنسانية بأسرها؟!
لا شك أن الأمر لم يكن هينا أبدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن الحمل كان ثقيلا للغاية، وأن التفكير في مستقبل العنصر البشري كان يشغل عقله، وأن المرض قد بلغ منه مبلغه، ولكنه وبالرغم من كل ذلك اختار أن يقف على قدميه ليلقي على أصحابه نظرة الوداع بوجه مشرق كأنه "ورقة مصحف" على حد وصف الصحابي أنس بن مالك رضي الله عنه الذي نقل الحديث بلفظه الأصلي(1)، ثم يتبسم ضاحكا وهو ينظر إليهم في مشهد إنساني يصعب وصفه، لا نعلم يقينا إن كان الألم قد اختفى مؤقتا في فجر ذلك اليوم، أو أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان ما يزال يتألم بالفعل من وطأة المرض في ذلك الحين، ولا نعلم إن كانت هناك طاقة مفاجأة قد سرت في جسده مكنته من النهوض من فراشه، أو أنه تحامل على نفسه لكي يقف على قدميه ليودع أصحابه الوداع الأخير دون أن يشعرهم بما يعانيه في داخله، ولا نعلم بالتحديد سر تلك الابتسامة العجيبة التي ارتسمت على وجهه، فلعلها كانت ابتسامة الوالد المحب وهو يودع أبناءه قبل الرحيل، أو بتسامة المعلم الفخور بتخرج تلاميذه الذين رافقهم على مدار سنوات طويلة، أو ربما كات بتسامة القائد الذي يرى أتباعه وقد ينظمون صفوفهم بعد غيابه، قد تكون هذه الأمور مجتمعة أو بعضها أو غيرها هي سبب

---

(1) أخرجه البخاري ومسلم.

في تلك الابتسامة، لا نعرف بالتحديد ماذا كان يدور في ذهن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك اللحظة، ولكن الشيء المؤكد أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان ينظر إلى أصحابه ويبتسم وهو مطمئن على رسالته من بعده، لأنه كان يدرك تمام الإدراك أنه قد أنجز مهمته على أتم وجه، وأنه قد ترك للإنسانية منهجا عظيما وواضحا يكفل لها كل أسباب السعادة والتقدم، وأن أصحابه هؤلاء سيحفظون هذا المنهج بإخلاص، وسينقلونه بعد ذلك بكل أمانة إلى باقي بني الإنسان.

وبالفعل... لم تمضي على وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى سنوات قليلة، حتى تمكن المسلمون من إنشاء حضارة إنسانية غاية في الرقي

والجمال على مناطق شاسعة من الكرة الأرضية امتدت مساحتها من شرق آسيا عند سلسلة جبال الهيملايا على حدود الصين وحتى غرب أوروبا عند سلسلة جبال البرانس بين شبه الجزيرة الأيبيرية وفرنسا، ليتمكن المسلمون خلال فترة زمنية وجيزة من توحيد أراض أكبر بمرتين ونصف من أقصى حد وصلت له إمبراطورية روما، ليبني المسلمون حضارة إنسانية عظيمة متعددة الأعراق والقوميات واللغات، فأضحت بغداد درة مدائن العالم، وباتت قرطبة جوهرة أوروبا المتلألئة في قرونها المظلمة، وأشعت منارة تمبكتو العلمية لتنير صحراء أفريقيا الكبرى.

وانتشرت قيم العدل والمواطنة والتسامح بين المسلمين وغيرهم ممن كانوا يعيشون معهم في دول المسلمين المختلفة، ولم يقتصر الأمر بأن يحافظ المسلمون في مناطق حكمهم على سلامة أقدم الكنائس الموجودة على وجه الأرض، بل تعدى الأمر ذلك لتصبح مدن شمال أفريقيا المسلمة في القرن السادس عشر ملاذا لعشرات الآلاف من المضطهدين اليهود الذين فروا من محاكم التفتيش الإسبانية، وفي نفس الوقت عمل المسلمون على تطور العنصر البشري من خلال قيادتهم لحركة التجارة العالمية لما يقرب من ألف عام، فلم يكتفوا بنقل البضائع التجارية بين الشرق والغرب، بل نقلوا معها أيضا العلوم الإنسانية المختلفة التي كانت الأساس الذي استندت إليه الحضارة الغربية الحديثة في قيامها، هذه الحضارة التي بدأت نظريا مع بداية احتكاك الغرب بالمسلمين خلال فترة الحروب الصليبية، بعد أن صدم الغربيون عند رؤيتهم للشرق الإسلامي بمدى اتساع الهوة الحضارية التي فصلتهم عن المسلمين بمراحل، حتى تمكن العالم الإيطالي ليناردو فيبوناتشي الذي كان يعيش في مدينة بجاية الجزائرية من تغيير تاريخ أوروبا إلى الأبد، فقد استفاد هذا العالم الإيطالي من العلوم التطبيقية الحديثة التي تعلمها من المسلمين أثناء إقامته في مدينة بجاية الجزائرية، وتنقله مع أبيه في التجارة بين تونس والجزائر والمغرب، فغير من مجرى التاريخ في الغرب إلى الأبد، بعد أن نقل إلى أوروبا الأرقام التي كان المسلمون يستخدمونها منذ زمن طويل في شمال أفريقيا، هذه الأرقام التي يسميها الغربيون حتى يوم الناس هذا بالأرقام العربية ، عملت على صناعة طفرة علمية كبيرة في أوروبا، ليعتمدوها رسميا في حساباتهم بدلا من النظام الرقمي الروماني المعقد الذي كانوا يستخدمونه لقرون، وما زالت الأرقام العربية التي نقلها فيبوناتشي من بلاد المسلمين إلى أوروبا هي الأرقام المعتمدة في النظام العالمي الرقمي الحديث بكل ما يحتويه من أجهزة رقمية متطورة.

ولا يخفى على أحد أن المسلمين في عقودهم الأخيرة لا يمرون بأحسن أوقاتهم، فقد تخلفوا عن ركب الحضارة الإنسانية في كثير من النواحي الحضارية، وهذا الأمر في حد ذاته لا يمثل مشكلة كبيرة كما يظن البعض، فأي

قارئ جيد للتاريخ يعلم أن كل الأمم المتقدمة حاليا مرت في السابق بمراحل تخلف حضاري تجاوزته بعد أن أخذت بأسباب التقدم والنهوض، وسينهض المسلمون حتما كما نهضوا في السابق، خاصة مع وجود موروث حضاري وثقافي عظيم للمسلمين يؤهلهم للعودة إلى سابق مجدهم، كل ما يحتاجونه هو الأخذ بأسباب التقدم التي أخذ بها أجدادهم الذين صنعوا حضارتهم الإنسانية الراقية، وعاجلا أم آجلا سيأتي اليوم الذي سيقومون فيه بالأخذ بتلك الأسباب، لبس لدي أدنى شك في ذلك، ولكن المشكلة الحقيقية تكمن في يأس بعض المسلمين من واقعهم المظلم، خاصة مع وجود أصوات كثيرة من المحبطين الذين احترفوا صناعة الإحباط وزراعة اليأس في قلوب الشباب، بدلاً من محاولة النهوض بالهمم والبحث عن حلول عملية للخروج من هذا الواقع المظلم الذي ورثه الشباب بالأساس من أفعال هؤلاء المحبطين أنفسهم، لذلك فكرت قبل عدة أعوام أن أقوم بعمل شيء أحاول من خلاله التصدي لهذه الظاهرة الخطيرة، فقررت أن أبحث عن الأمل المنشود في صفحات التاريخ المنسية، وذلك لقناعة تجسدت لدي من تجربة شخصية بأن قراءة التاريخ من شأنه أن تحيي الأمل في القلوب المكسورة، وأن تزرع الثقة في النفوس المحبطة، فأصدرت كتابي الأول "مائة من عظماء أمة الإسلام غيروا مجرى التاريخ"، وأتبعته ببرنامج "العظماء المائة" الذي نشرته على موقع يوتيوب في شبكة الإنترنت، فكانت النتيجة مذهلة وتفوق كل التوقعات التي تخيلتها! فقد تصدر كتابي الأول "مائة من عظماء أمة الإسلام غيروا مجرى التاريخ" قائمة الكتب الأكثر مبيعا في كثير من الدول العربية. وأصبح برنامج "العظماء المائة" البرنامج العربي التاريخي الأكثر مشاهدة على الإطلاق في موقع يوتيوب ، بعد أن تجاوزت مشاهدات حلقات البرنامج 50 مليون مشاهدة حتى وقت كتابة هذه السطور، في نفس الوقت بدأت فرق من المتطوعين الذين لا أعرفهم شخصيا بترجمة البرنامج إلى ما يزيد عن 65 لغة من لغات الأرض العالمية، وصار الناس يتواصلون معي بصورهم وتعليقاتهم من مختلف أرجاء الأرض، فوصلتني مشاركات من تلاميذ مدارس الكويت وهم يحملون صور الكتاب، ومشاركات أخرى من مساجد في جزر إندونيسيا النائية وهي تعرض البرنامج على المصلين بين الصلوات، بينما انتشرت حلقات البرنامج المدبلجة للغة الروسية بشكل كبير بين ملايين المتابعين في جمهوريات آسيا الوسطى والقوقاز، الأمر الذي أدى إلى نفاد الطبعة الأولى من الترجمة الروسية للكتاب بعد أيام قليلة من طرحه في المكتبات.

وبدأ كثير من المتابعين من غير المسلمين يتابعون حلقات برنامج العظماء المائة المترجمة للإنجليزية والفرنسية والإسبانية والألمانية وغيرها من اللغات، وصارت تصلني منهم الكثير من التعليقات الإيجابية، البعض كان يخبرني عن تغير نظرته للمسلمين وتاريخهم بعد مشاهدته للبرنامج، والحقيقة أن هذا الانتشار الواسع وتقبل الناس الكبير للكتاب والبرنامج كان صادما بالنسبة لي،

فباستثناء بعض الحقائق التاريخية الجديدة التي اجتهدت في إضافتها في صفحات هذا الكتاب، لم يزد ما قدمته عن ما جاء في كتب وأعمال المؤرخين السابقين وغيرهم من الأساتذة المعاصرين الذين استفدت من كتبهم وأبحاثهم، ولكن يبدو أن الأسلوب غير النمطي الأقرب إلى لغة العصر والذي استخدمته في عرض التاريخ كان له دور رئيس في جذب الناس لمادة التاريخ التي قد يراها البعض مادة جافة ومملة، وبغض النظر عن الآراء المختلفة للقراء والمتابعين الكرام إن كانت بالسلب أو الإيجاب، فقد بدا واضحا أن كتاب "مائة من عظماء أمة الإسلام غيروا مجرى التاريخ" وبرنامج "العظماء المائة" قد أحدثا ثورة نوعية في إعادة قراءة التاريخ الإسلامي في السنوات الأخيرة، وعملا على إرجاع عوام المسلمين للاهتمام بتاريخهم من جديد، بعد أن كان الأمر في السابق مقتصرا على نخبة المثقفين والباحثين التاريخيين وبعض المهتمين القلائل بدراسة التاريخ، هذا الأمر أسعدني بشكل كبير، ولكنه في نفس الوقت أشعرني بمسؤولية أعلم أكثر من غيري أنها تفوق قدراتي وطاقتي بمراحل عديدة، وكان هذا الشعور يتزايد كلما قابلت المتابعين الكرام بشكل شخصي أثناء محاضراتي التاريخية التي قدمتها في دول العالم المختلفة، وربما لا يعلم كثير من المتابعين الكرام الذين تساءلوا في السابق عن سبب تأخري في تقديم عمل جديد أن هذا الشعور المخيف بالمسؤولية كان من بين أهم الأسباب التي دفعتني لعدم إصدار كتاب جديد لما يزيد عن 7 سنوات من صدور كتابي الأول الذي ما يزال حتى هذه اللحظة على قائمة الكتب الأكثر مبيعا في الشرق الأوسط، وذلك بالرغم من العروض الخيالية التي جاءتني خلال تلك السنوات من الناشرين من كبريات دور النشر العربية، وكنت خلال تلك الفترة أعتذر بأدب عن قبول تلك العروض، وقبول غيرها من العروض المغرية التي جاءتني من بعض الجهات التي أرادت الاستفادة من شعبية الكتاب والبرنامج فيما يخدم مصالحها وتوجهاتها، فقد كنت ولا زلت على يقين تام بأن القراء والمتابعين الأفاضل لديهم من الذكاء والفطنة ما يؤهلهم لاكتشاف أي تأثير خارجي على المادة المقدمة، وأن أي ملاحظة منهم في هذا الصدد قد تؤدي لضياع الثقة بينهم وبين مقدم هذا العمل، لذلك كان الهدف الرئيس بالنسبة لي هو تقديم عمل جديد يليق بحجم الثقة الغالية الملقاة على عاتقي، على أن يمثل هذا العمل إضافة جديدة للمعرفة الإنسانية، بعيدا عن التكرار والسطحية التي لم تضف شيئا سوى اختزال عقول كثير من الشباب في قالب نمطي واحد، لذلك قمت مع بداية عام 18 20 بإصدار كتابي الثاني "101 لغز بربروسا" .

وقد كان إصدار هذا للكتاب مغامرة في حد ذاتها، فالكتاب ينتمي لنوع خاص من الروايات الأدبية لم يسبق تقديمه في المكتبة العربية، على الرغم من انتشاره بشكل كبير في الغرب، ويعتمد هذا النوع الخاص من الروايات على تقديم المادة التاريخية بشكل شيق في جو من الإثارة والغموض، وقد أردت

من خلال ذلك استقطاب فئة الشباب المهتمين بقراءة الروايات دون غيرها من الكتب، وتوجيههم من خلال هذه الرواية إلى الاطلاع على التاريخ بشكل عام والتاريخ الإسلامي بشكل خاص بطريقة شيقة وممتعة، وفي بداية عام 2018 تم إصدار كتابي الثاني، وكانت ردة فعل القراء فوق كل التوقعات، فقد انضمت رواية (101 لغز بربروسا" إلى قائمة الكتب الأكثر مبيعا في الوطن العربي، وتم اختيار الرواية من قبل موقع "Goodreads" الأمريكي ضمن أفضل الروايات العربية على الإطلاق لعام 8 1 20، وصار كثير من الشباب الذين لم يقرأوا كتابا تاريخيا من قبل يبعثون لي برسائلهم التي يعبرون من خلالها عن سعادتهم وانبهارهم بالتاريخ الإسلامي.

وعلى مدى سنوات طويلة راودتني فكرة إصدار كتاب خاص عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنني كنت دائما أعرض عن هذه الفكرة لعدة أسباب، لعل من أهمها خوفي الشبديد من عدم تقديم شيء يليق باسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إضافة لاعتقاد كان سائدا لدي بأن هناك العديد من الكتب الرائعة التي تناولت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبها علماء كبار قديما وحديثا، وأن أي كتاب أقدمه لن يضيف شيئا لما قدم في السابق، ولكن مع مرور الوقت، ومتابعتي لأحوال المسلمين في العالم، واستماعي لكثير من آراء المتابعين الكرام من مختلف الأعمار والتوجهات، وجدت أن هناك الكثير من الأمور التي تدفعني دفعا إلى تقديم عمل خاص بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- فقد وجدت أن كثيرا من الناس لا يعلمون إلا القليل عن سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وبعد دراسة تحليلية للموضوع، وجدت أن المشكلة الحقيقية لا تكمن في وجود الكتب التي تتناول سيرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، وإنما تكمن في إقبال عامة الناس في هذا الزمان على قراءة تلك الكتب، فغالبية تلك الكتب مكتوبة بلغة تتناسب بالدرجة الأولى مع طلبة العلم ممن يسهل عليهم فهم اللغة والمصطلحات الفقهية المرافقة للأحداث، وهو الأمر الذي يصعب على القارئ البسيط بطبيعة الحال!
- ولعل السبب الأهم الذي دفعني لفكرة الكتابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو ما لاحظته من خلل منهجي خطير أصاب الكثيرين منا، فقد صار كثير من المسلمين يعتمدون بالدرجة الأولى على أقوال مشايخهم في أمور الدين، حتى وإن كانت هذه الأقوال تتنافى مع ما صح من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ، فصاروا بذلك التقليد الأعمى يبتعدون أكثر فأكثر عن هدي الإنسان الذي بعث بهذا الدين إليهم، وللإنصاف فإن هذا الأمر ليس جديدا على المسلمين، فقد برزت هذه الظاهرة الغريبة منذ فجر الإسلام، فعندما كان الصحابي عبد الله بن عباس خه٠ءذه ينقل للناس قولا لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر من الأمور، صدم بأن البعض صار يجادله بقول آخر عن

الصحابي أبي بكر الصديق رضي الله عنه والصحابي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فرد عليهم عبد الله بن عباس رضي الله عنه باستغراب: "يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء! أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقولون قال أبو بكر وعمر" .

وهذا لا يعني بالضرورة عدم الأخذ بأقوال العلماء الأفاضل في مسألة من المسائل، ولكن المشكلة هي عندما يتم تقديس آرائهم الفقهية المبنية بالأساس على اجتهادات إنسانية تصيب وتخطئ اعتمدوها هم وفقا لمعلوماتهم التي وصلتهم، فربما لم تتسنى لهم معرفة قول الرسول صلى الله عليه وسلم في أمر معين، كما هي الحال في هذه المسألة التي احتج بها الناس بقول أبي بكر رضي الله عنه وعمر رضي الله عنه فعلى فرضية أن الناس نقلوا عنهما حقيقة ما جرى بالفعل، فإن هذين الصحابيين الجليلين مع فضلهما ومكانتهما في الإسلام لم يكونا معصومين من الخطأ، ولم يكونا ملازمين لرسول الله صلى الله عليه وسلم على مدار الساعة، وهذا يعني تلقائيا أنهما لم يستمعا منه لكل الأحاديث، وقطعا لم يستمعا لكل الأحاديث التي نقلت عنه، لذلك فقد كان العقلاء في هذه الأمة دائما ما يضربون بكل الاجتهادات المخالفة لصحيح القرآن والسنة عرض الحائط، حتى وإن كانت هذه الاجتهادات صادرة من أسماء عملاقة، وهذا بالضبط ما قام به حفيد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو التابعي الجليل سالم بن عبد الله بن عمر رحمه الله، عندما وصله حديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخالف اجتهاد أبيه وجده في أمر معين، عندها لم يتردد سالم رحمه الله بمخالفتهما في هذا الأمر، وقال مقولته الرائعة التي تختصر الفكرالذي كان عليهم المسلمون الأوائل الذي بنوا الحضارة الإسلامية العظيمة: "وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق أن تتبع"(ا) .

هذا العقلية السليمة في تناول الأمور لم يأت بها هذا التابعي الجليل من فراغ، فلقد كان سالم رحمه الله نتاجا لتربية أبيه الصحابي الفقيه عبد الله بن عمر رضي الله عنه، والذي تعلم هو بدوره مباشرة من المعلم الأول للمسلمين محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد صح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه خالف أباه في مسألة من المسائل الفقهية، عندما سأله رجل من أهل الشام في مسألة تتعلق بمناسك الحج والعمرة: "فقال ابن عمر: هي حلال. قال الشامي: إن أباك قد نهى عنها. قال بن عمر: أرأيت إن كان أبي قد نهى عنها وصنعها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ! فقال: لقد صنعها رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقد أورد الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه مقولة أخرى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه يوضح فيها هذا الفكر الإنساني المتحرر القائم على الدليل العلمي والرافض للتقليد الأعمى للمشايخ: "فسنة الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أحق أن تتبع، من سنة فلان، إن كنت صادقا"(2).

لذلك فإن التفرق الذي أصاب المسلمين في عهودهم الأخيرة، يعود بالدرجة الأولى إلى أن هناك من بات بالفعل يتبع حرفيا سنة "فلان" بدلا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، متجاهلين أن هذا الدين هو الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وليس دين الشخص الذي يتبعونه، فقد يكون هذا الشخص عالما جليلا ولكنه في نهاية الأمر بشر يصيب ويخطئ في اجتهاداته، أو أن قدراته العقلية

---

(1) النووي، المجموع شرح المهذب.

(2) صحيح مسلم.

ومعلوماته الثقافية بأمور العصر الحديث لا تأهلانه إلى ربط تراث الماضي بتحديات الحاضر، وهناك أيضا احتمال أن يكون جاهلا يخدع الناس بمظهره وفصاحته، أو دجالا يحاول غسل أدمغتهم بمهاراته الخطابية، أو مجرما قاتلا يريد إلصاق جرائمه بالدين للتغطية على أمراضه النفسية التي دفعته للقيام بجرائمه في حق الأبرياء، أو منافقا خبيثا يحاول ضرب لإسلام من الداخل عن طريق التشكيك في ثوابته والطعن في رموزه، وحتى وإن كان هذا الشخص من أكثر الناس علما ودينا، فإنه قد يأتي يوم من الأيام وينحرف فيه عن طريق الحق لسبب أو لآخر، الأمر الذي قد يعرض أتباعه لفتنة في دينهم بعد سقوطه من أعينهم لاعتقادهم أن الإسلام كان يتجسد في شخصه، لذلك فإنه من الخطورة بمكان التعلق بأي عالم من العلماء لدرجة االتباع الأعمى، وهذا الأمر يشمل أيضا من يأخذون بتفسير ابن عباس رضي الله عنه ومجموعة كبيرة من

العلماء لقول الله تعالى:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ..." (1)

---

(1)النساء الآية 59.

فقد ذهب حبر الأمة الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنه بأن المقصود بووأؤلىآلأ^ي" هم أهل الفقه والدين، وكذا قال مجاهد، وعطاء، والحسن البصري، وأبو العالية: "وأولي الأمر منكم . يعني العلماء"(ا)، ولكن البعض ممن يحتجون بهذا التفسير في وجوب طاعة العلماء العمياء في كل أقوالهم غاب عنهم أن الله عز وجل لم يأمر بطاعة العلماء المطلقة، فقال: " أَطِيعُوا اللَّهَ " وقال: " وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ" ولكنه لم يقل: "وأطيعوا أولي الأمر منكم"، أي أنه لم يفردهم بوجوب طاعة المؤمنين لهم، بل جعل طاعتهم موقوفة على طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فإن خالفوا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فلا طاعة لهم من المؤمنين.
- ومن بين أهم الأمور التي أشعرتني بضرورة تقديم شيء عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي تصاعد حملات التشويه الإعلامي التي تتعرض لها صورة الرسول صلى الله عليه وسلم في السنوات الأخيرة، ومع إدراكي التام من حكم عملي في مجال

---

(1) تفسير ابن كثير

الصحافة وتخصصي الأكاديمي في مجال الإعلام أن هذه الحملات يقف خلفها بالدرجة الأولى بعض المرضى العنصريين من المصابين برهاب الإسلام أو كما يعرف ب"الإسلاموفوبيا" ، فإنه ينبغي علينا كمسلمين الاعتراف بأن أفعال بعض من ينتسبون إلى الإسلام ساهمت بشكل كبير في تكوين هذه الصورة المشوهة لدى الآخرين، وأن هناك تقصيرا كبيرا من جهتنا في توضيح الصورة الحقيقية للإسلام ولرسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم، بدلا من ترك المجال مفتوحا للمتطرفين من الجهتين لتصدير صورتهم المزيفة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا الأمر كان حافزا كبيرا بالنسبة لي لتقديم شيء أحاول من خلاله الدفاع عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغة يفهمها الآخرون، ليس فقط للدفاع عن الرسول صلى الله عليه وسلم الذي نحبه أكثر من أنفسنا، ولكن أيضا للدفاع عن كياننا ووجودنا وهويتنا التي يمثل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ركنا أساسيا في تكوينها.

- أما الأمر الأخير الذي دفعني للإقدام على مثل هذه المهمة الصعبة هو ما وصلني بشكل مباشر من كثير من المتابعين الكرام الذين طلبوا مني تقديم شيء بأسلوبي الخاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتأكيدهم لي رغبتهم بقراءة شيء جديد يحاكي لغة العصر يقدمونه لأبنائهم، ويحدد لهم الدروس المباشرة التي يمكن لهم ولأبنائهم الاستفادة منها في تعاملاتهم اليومية في هذا العصر، بدلا من التركيز على سرد أحداث السيرة بشكل مكرر دون تحديد المعاني والعبر من السيرة نفسها! من أجل كل هذه الأسباب وغيرها. . . قررت خوض هذا التحدي، والبدء في كتابة كتابي الثالث الذي اخترت له اسم "مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم "، وقد حاولت من خلال هذا الاسم اختصار الفكرة التي أرغب في إيصالها من خلال صفحات هذا العمل، فكلمة "مدرسة" للدلالة على دروس السيرة المباشرة التي سأركز عليها في هذا العمل الأدبي، أما الجزء الثاني من اسم الكتاب فقد فضلت أن يكون اسم الرسول صلى الله عليه وسلم "محمد" صلى الله عليه وسلم بدلا من "الرسول" أو "النبي"، وذلك لأنني سأحاول من خلال هذا العمل تسليط الضوء على الجوانب الإنسانية في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والتي يمكن لأي إنسان الاستفادة منها في حياته اليومية، على أن يخرج هذا العمل بأسلوب شيق وممتع يواكب لغة العصر ويخاطب كل الأعمار والتوجهات الفكرية، لذلك اجتهدت خلال كتابتي لهذا الكتاب أن أبتعد قدر المستطاع عن آراء العلماء والفقهاء، وعلى الرغم من معرفتي أن الكتابة في السيرة لا تعامل بنفس الصرامة التي تعامل بها الكتابة في كتب الحديث، فإنني قد اعتمدت بشكل كبير في صفحات هذا الكتاب على ما صح من أقوال وأفعال الرسول صلى الله عليه وسلم ، لذلك سيلاحظ القارئ الكريم في هامش صفحات هذا الكتاب أنني حرصت على أن تكون أغلب الأحاديث الواردة فيه مستمدة من أصح كتب الحديث، صحيح البخاري وصحيح مسلم، وحتى الأحاديث الأخرى التي أوردتها في طيات هذا العمل، حرصت على أن تكون غالبيتها العظمى إن لم تكن جميعها أحاديث تم تصحيحها من علماء الحديث، وحتى بالنسبة للقرآن الكريم، فقد حاولت الاستشهاد منه في مواضع قليلة فقط تساعد في إيصال الفكرة المطلوبة عن إنسانية محمد صلى الله عليه وسلم ، لذلك فإن هذا الكتاب لن يكون كتاب سيرة بالشكل التقليدي، بل سيشمل أيضا جوانب تربوية متعلقة بدروس السيرة، وأخرى فكرية مستمدة بالأساس من حياة محمد صلى الله عليه وسلم ، وسيشمل هذا الكتاب أيضا الكثير من المعلومات العامة، وسنحاول من خلاله إلقاء نظرة على ثقافات الأمم والشعوب المختلفة التي يمكن لنا من خلالها أخذ صورة كاملة للمشهد التاريخي المتعلق بدرس من الدروس المطروحة في هذا الكتاب، ولمعرفتي المسبقة بصعوبة حصر كل الدروس المستمدة من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في كتاب واحد، فقد ارتأيت التركيز على بعض الدروس التي أرى من وجهة نظري الخاصة أنها مهمة للغاية في عصرنا الحالي، بحيث يكون حجم

الكتاب مناسبا للقارئ البسيط الذي ربما لا يجد الوقت الكافي لقراءة الكتب الكبيرة في هذا العصر المتسارع الأحداث!
في هذا الكتاب سنحاول الإجابة عن هذه التساؤلات:
- كيف كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتعامل مع الأطفال؟ وكيف كان تعامله مع المرأة؟ وهل كان فعلا يعتبر المرأة عنصرا هامشيا في المجتمع كما يعتقد بعض المسلمين؟ أم أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كان من أكبر مناصري حقوق المرأة في التاريخ؟
- ما هي نظرة الرسول صلى الله عليه وسلم للبيئة؟ وهل هناك في الإسلام أصلاً ما يدعو للحفاظ على البيئة؟
- كيف كانت علاقة الرسول صلى الله عليه وسلم بعالم الحيوان؟ وما حكاية الجمل الذي جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعينين دامعتين؟ وماذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما رآه بهذه الحالة؟
- كيف كان تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم مع المختلفين معه في الرأي؟ وهل كان الصحابة في زمنه يختلفون مع بعضهم البعض؟
- هل كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتعامل إنسانيا مع غير المسلمين؟ أم أنه منع المسلمين من التعامل بأي شكل من الأشكال مع غير المسلمين؟
- ما حكاية الصراع الفارسي الروماني الذي اشتعلت شرارته في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ وأين وكيف ومتى بالتحديد "غلبت الروم"؟ وأين وكيف ومتى بالتحديد 2"سيغلبون"؟
- من هو الإمبراطور الروماني "فلافيوس أغسطس هرقل" الذي وصلته رسالة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وما هي الأسئلة العجيبة التي وجهها إلى زعيم مكة وأدرك من خلال إجاباتها صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ؟
- ما حكاية الإمبراطور الصيني الذي بنى سور الصين العظيم وكان يبحث عن إكسير الحياة؟ وما قصة الجيش العجيب الذي كونه من آلاف المقاتلين الحجرين؟ وكيف كانت نهاية هذا الإمبراطور المأساوية؟
- كيف استطاع الإغريق صد زحف الإمبراطورية الفارسية التي كانت تخطط لاجتياح العالم بأسره؟ وما هي حكاية المعركة البحرية الخطيرة التي وقعت على سواحل اليونان وتحدد معها مصير قارة أوروبا؟ وما هي الخطة الخطيرة التي وضعها أحد قادة أثينا اليونانية لهذه المعركة وتمكن من خلالها من تدمير أساطيل إمبراطورية فارس؟
- كيف اجتاح الإسكندر الأكبر بجيشه أراضي العالم القديم حتى وصل به إلى جبال الهيملايا؟ وما الذي دفعه لإعلان ألوهيته؟ وما سر موته في ظروف غامضة في العراق؟
- ما قصة الإمبراطور الروماني المجنون الذي كان خالا لنيرون الذي حرق روما؟ وما هي الأفعال المرعبة التي كان يقوم بها؟ وما الذي تسبب بفقدانه

لعقله؟

- كيف أدار رسول الله صلى الله عليه وسلم غرفة العمليات الخاصة بمعركة الخندق المصيرية؟ وما هي الخطوات المحددة التي اتخذها لصد تحالف الأحزاب الجرار؟
- كيف كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتعامل مع أصحابه؟ وما هي الأسس التي كان يضعها عند اختياره لموظفيه؟
-من هو رجل المهمات الخاصة في جيش الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ ولماذا أوكل الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المهمة الصعبة لهذا القائد العسكري بالتحديد؟
- ومن هو الشخص الذي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يخصه بأسرار الدولة الخطيرة؟ وكيف استطاع التسلل إلى صفوف العدو في معركة الخندق؟
-كيف كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتعامل مع العمال؟ وما هي أسس الإدارة الناجحة التي وضعها لكل صاحب أعمال؟

كل هذه التساؤلات وغيرها سنحاول الإجابة عنها في هذا الكتاب، لعلنا نتمكن من خلالها أن نفهم سر الطمأنينة التي ودع به رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه الذين غيروا من مجرى التاريخ الإنساني، لعلنا نتمكن من خلالها العودة إلى لحظة الابتسامة الأخيرة التي ودع بها ذلك المعلم العظيم تلاميذه وهو راض عنهم!

وأول درس من دروس مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم أرى أن أبدأ به هذا الكتاب، هو الدرس الأهم الذي نحتاجه بشكل خاص في هذا الزمن بالتحديد، لكي نتمكن من بناء جيل جديد يمكن لنا من خلاله... العودة إلى لحظة الابتسامة الأخيرة!

التعامل مع الأبناء

"ما رأيت أحدا كان أرحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم "(1)
عندما اشتد المرض برسول الله صلى الله عليه وسلم في أيامه الأخيرة، دعا ابنته فاطمة رضي الله عنها، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم رحب بها، وقال لها: "مرحبا بابنتي"، ثم أجلسها بجانبه، وأوضح لها بأنه يعتقد أن أجل أبيها قد اقترب، وطلب منها أن تصبر، الأمر الذي دفع فاطمة رضي الله عنها للبكاء بكاء شديدا.

هذه القصة التي جمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ابنته فاطمة رضي الله عنها في ساعاته الأخيرة، وردت في الصحيحين وأغلب كتب الحديث(2) مع اختلافات بسيطة في التفاصيل

---

(1) صحي مسلم.

(2) صحيح البخاري، صحيح مسلم، سنن ابن ماجة، سنن الترمذي، المعجم الكبير للطبراني، وغيرها.

والألفاظ، ولكن الأمر الذي لفت انتباهي شخصياً أثناء بحثي في تفاصيل هذه القصة، أن جميع الروايات التي اطلعت عليها تبين أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقم بشيء اعتاد القيام به عند رؤيته لابنته، الأمر الذي يؤكد أن المرض كان قد اشتد بالفعل برسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت!

ولكن ما هو هذا الأمر الذي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحرص على القيام به عند رؤيته لفاطمة رضي الله عنها؟

الإجابة تخبرنا بها زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

"ما رأيت أحدا كان أشبه سمتاً وهديا ودلا- وفي رواية - حديثاً وكلاما برسول الله صلى الله عليه وسلم من فاطمة، كانت إذا دخلت عليه قام إليها، فأخذ بيدها، وقبلها، وأجلسها في مجلسه، وكان إذا دخل عليها، قامت إليه فأخذت بيده، فقبلته، وأجلسته في مجلسها"(٢). لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم في علاقته مع أبنائه

---

(1) ابن حجر العسقلاني، تخريج مشكاة المصابيح.

يحرص على أن يظهر لهم أمرا في غاية الأهمية، هذا الأمر المهم الذي ينسى كثيرمن الآباء إظهاره لأبنائهم هو الحنان!

فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم برغم كل انشغالاته ومسؤولياته الكبرى في إدارة الدولة يحرص على إظهار حنانه وحبه لأبنائه، فعن يعلى بن مرة الثقفي رضي الله عنه : "أنهم خرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى طعام دعوا له فإذا حسين يلعب في السكة، قال: فنقدم النبي صلى الله عليه وسلم أمام القوم، وبسط يديه، فجعل الغلام يفر ها هنا وها هنا، ويضاحكه النبي صلى الله عليه وسلم حتى أخذه فجعل إحدى يديه تحت ذقنهه والأخرى في فأس رأسه فقبله":(1).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسا، فقال الأقرع: إن لي

---

(1) رواه ابن ماجة في سننه

عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا، فنظر إلبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: من لا يرحم لايرحم"(1).

وحتى عندما كان الرسول صلى الله عليه وسلم منشغلا مع الناس، فإن قلبه كان يرق عند رؤيته لأبنائه، ولنستمع إلى ما رواه الصحابي الجليل بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه في وصف ردة فعل الرسول صلى الله عليه وسلم عند رؤيته لحفيديه الصغيرين الحسن والحسين رضي الله عنهما أثناء خطبته:

"كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبنا، إذ جاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنبر، فحملهما، ووضعهما بين يديه"(2). وحتى أثناء صلاته، فإن رقة الرسول صلى الله عليه وسلم لم تغب عنه، فعن عبد الله بن شداد عن أبيه الصحابي الجليل شداد بن الهاد الليثي رضي الله عنه قال:

---

(1) صحيح البخاري.

(2)رواه الترمذى فى سننه.

"خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في إحدى صلاتي العشاء وهو حامل حسنا أو حسينا، فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوضعه، ثم كبر للصلاة، فصلى، فسجد بين ظهراني صلاته سجدة أطالها، قال أبي: إني

رفعت رأسي، فإذا الصبي على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ساجد، فرجعت إلى سجودي، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الناس: يا رسول الله! إنك سجدت بين ظهراني صلاتك سجدة أطلتها! حتى ظننا أنه قد حدث أمر، أو أنه يوحى إليك؟! قال: كل ذئك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته"(1)
ويصف الصحابي أنس بن مالك رضي الله عنه تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم مع أبنائه بكلمات مختصرة: "ما رأيت أحدا كان أرحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم "(2).

---

(1) رواه النسائي في سننه.
(2) صحيح مسلم.

والأمثلة على مظاهر الحنان والرحمة والمحبة التي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يظهرها لأبنائه كثيرة، ليس الهدف هنا حصرها جميعا، وإنما أردت فقط من خلال هذه السطور القليلة التذكير بتعامل الرسول صلى الله عليه وسلم مع أبنائه، لعلها تكون سببا في تغيير طريقة تعامل بعض الآباء مع أبنائهم قبل فوات الأوان، فعمر الإنسان قصير، وقد يرحل الإنسان من هذه الدنيا قبل أن يظهر حقيقة مشاعره لمن يحب، ولا شك أن الغالبية العظمى من الآباء يحبون أبناءهم، ولكن كم من هؤلاء الآباء يظهرون حنانهم لأبنائهم؟
فبعض الآباء يظن أن إظهار الحنان والمحبة للأبناء يمكن قلل من هيبتهم في نظر أبنائهم، والبعض قد يرى أن التعامل بحنان من شأنه إفساد الأبناء، وهناك من لا يملك وقتا أصلا لإظهار مشاعره نتيجة لانشغاله الدائم بالعمل عن أبنائه، وفي بعض الأحيان تكون قلوب بعض الآباء خالية أساسا من الرحمة!
فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال: تقبلون الصبيان؟ فما نقبلهم
فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أوأملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة" (1).
ولكن... ماذا عن تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم مع الأطفال بشكل عام؟ وهل كان تعامله معهم يختلف عن تعامله مع أبنائه؟ ولماذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحرص على معاملة الأطفال على ذلك النحو؟

---

(1) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

التعامل مع الأطفال

"ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ولم يعرف شرف كبيرنا"(1)

إن المتأمل لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم يجد أنه كان يولي اهتماما كبيرا بالطفل، وكانت له رؤية راقية وتقدمية في تربية الأطفال، فلم يكتف فقط بتقديم النصح والإرشاد لهم، بل كان يمازحهم ويداعبهم ويشاركهم اهتماماتهم الصغيرة، بالرغم من كل المسؤوليات الكبيرة الملقاة على عاتقه كرئيس لدولة المسلمين، إضافة لذلك كله كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحترم عقل الطفل وأحاسيسه، على عكس كثير من الناس الذين يعتقدون أن الأطفال لا يفهمون ما يجري حولهم، فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يدرك أن مرحلة الطفولة هي

---

(1) رواه الترمذى فى سننه.

أخصب وأهم فترة يمكن للمربي أن يغرس فيها المبادئ والقيم، وفي حياة النبي صلى الله عليه وسلم مواقف كثيرة تعليمية وتربوية، يمكن لنا من خلالها أن نتعلم الكثير من الدروس في كيفية تربية الطفل، وذلك عن طريق استخراج فوائدها، وقطف ثمارها، والاقتداء بها، والتعامل من خلالها مع أطفال اليوم الذين سيشكلون جيل المستقبل. ومن أروع الأمور التي لاحظتها في كيفية تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم مع الأطفال، أنه كان يشاركهم اهتماماتهم الصغيرة ، فالطفل له عالمه الخاص الذي يختلف عن عالم الكبار، ومن شأن إظهار الآباء و المربين بعض الاهتمام بهذا العالم الصغير، أن يسعد الطفل سعادة كبيرة ويمنحه شعورا متميزا بأنه محل اهتمام من الكبار، الأمر سينعكس بطبيعة الحال مع علاقته معهم، وتقبله لنصائحهم وإرشاداتهم فيما بعد، فعلى سبيل المثال، كان لأنس بن مالك رضي الله عنه أخ اسمه أبو عمير، وكان لأبي عمير نغر صغير، والنغر نوع من الطيور في عائلة العصافير، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ، رغم انشغاله بأمور الدولة والعبادة وأمور الناس، يحرص على سؤال الطفل عن طائره الصغير كلما رآه: عن أنس رضي الله عنه قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن خلقا وكان لي أخ يقال له أبو عمير قال: أحسبه فطيم وكان إذا جاء قال: يا أبا عمير ما فعل النغير؟" (1)

وعلى عكس كثير من الناس في هذا الزمان ممن لا يقدرون الأطفال أو يضعون لهم قيمة، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يسلم على الأطفال إذا مر بهم، فعن أنس رضي الله عنه قال: " أتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا غلام ألاعب الصبيان فسلم علينا" (2) ولم يكتف الرسول صلى الله عليه وسلم بالسلام على الأطفال الصغار أثناء لعبهم، بل كان يجلسهم في مجالس الكبار أيضا، ففي مرة من المرات أجلس الرسول صلى الله عليه وسلم في مجلسه إلى يمينه أحد الأطفال، وهو ابن عمه الصغير عبد الله بن عباس رضي الله عنه حسب إحدى الروايات، ولم يقتصر الأمر على إجلاس

---

(1) صحيح البخاري.

(2) رواه الطبرافي في المعجم لأوسط.

ذلك الطفل بجانب رئيس الدولة مباشرة، بل استأذن الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يعطي نصيبه من الشراب للأشياخ الموجودين في المجلس، وفي ذلك إشارة من النبي صلى الله عليه وسلم بالاهتمام برأي الطفل، والتأكيد على إعطائه حقه، وإشعاره بقيمته، وتعويده الشجاعة وإبداء رأيه في أدب وتأهيله لمعرفة حقه والمطالبة به، وحتى عندما رفض الطفل التنازل عن حقه حرصا منه على نيل بركة الشرب خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يغضب الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك، بل ناوله الشراب بيده، حرصا منه على صناعة شخصية الطفل المستقلة والحرة، ويروي الصحابي الجليل سهل بن معد الساعدي رضي الله عنه تفاصيل هذه القصة بقوله: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتي بشراب فشرب منه وعن يمينه غلام، وعن يساره الأشياخ، فقال للغلام: أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟ فقال الغلام: والله يا رسول الله لا أؤثر بنصيبي عنك أحدا. قال: فتله رسول الله ٠ صلى الله عليه وسلم (1).

وفي وقت يحرص فيه كثير من الناس في الاستثمار في المشاريع التجارية، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يضع اهتمامه الأول في الاستثمار في الإنسان نفسه، فقد كان يدرك أن الاستثمار في الإنسان هو أنجح أنواع الاستثمارات، ولا شك أن الطفولة هي أفضل وقت يمكن أن يتم فيه الاستثمار في الإنسان، لذلك فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحرص على تعليم الأطفال وصناعة جيل قوي ومثقف ذي شخصية صلبة يمكنها مواجهة تحديات المستقبل، لذلك استثمر الرسول صلى الله عليه وسلم في تربية ابن عمه الصغير عبد الله بن عباس رضي الله عنه، ولم يقل أنه طفل صغير لا فائدة منه، بل على العكس من ذلك، كان يصنع شخصيته في هذا العمر المبكر،

ليتحول عبد الله بن عباس فيما بعد إلى أحد أعظم العلماء الذين ظهروا في تاريخ الإسلام، وليحمل عن جدارة لقب "حبر الأمة"، ولكي تفهم بعضا من أسباب عبقرية هذا العالم الإسلامي الكبير، يكفيك أن تستمع للغة التي كان رسول اله صلى الله عليه وسلم يستخدمها في مخاطبة عبد الله بن عباس رضي الله عنه وهو طفل صغير: "يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قدكتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف"(١) صناعة المستقبل التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيدها، تمثلت في أبهى صورها في صناعته لطفل أنصاري من بني النجار سيغير فيما بعد من مجرى التاريخ إلى الأبد، فعندما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، لاحظ نبوغ غلام صغير اسمه زيد بن ثابت رضي الله عنه تظهر عليه معالم الذكاء، فوجهه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المضي في طريق العلم والثقافة، وحثه على تعلم لغة أجنبية، وفي ذلك يقول زيد بن ثابت رضي الله عنه: "أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتعلم السريانية"(2). وبعد ذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقدم زيدا رضي الله عنه على كثير من كبار الصحابة في كتابة الوحي وكتابة الرسائل إلى

---

(1) رواه الترمذي.

(2) ابن حجر العسقلاني، تخريج مشكاةالمصابيح.

قادة وزعماء العالم، فكانت النتيجة أنه صنع شابا يمكن الاعتماد عليه في المستقبل، وهذا ما كان بالفعل، فبعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وموت كثير من حفظة القرآن، خاصة بعد معركة اليمامة التي استشهد فيها سبعون صحابيا من حفظة القرآن، هال هذا الأمر على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وخاف أن يضيع شيء من القرآن بموت حفظته، وقد كان القرآن لم يجمع بعد في مصحف واحد، فأشار الفاروق رضي الله عنه على الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بفكرة جمع القرآن في مصحف واحد، فاستدعى أبو بكر الصديق رضي الله عنه زيد بن ثابت رضي الله عنه وكلفه بمهمة جمع الوحي المنزل في كتاب واحد، فقبل زيد بن ثابت رضي الله عنه التحدي وأعلن قبوله لهذه المهمة الخطيرة التي وصفها بقوله: "والله لو كلفوني نقل جبل من مكانه لكان أهون علي مما أمروني به من جمع القرآن"(1). وبدأ زيد بن ثابت رضي الله عنه بالعمل، وصار يتنقل بين

---

(1) رواه ابن حبان في صحيحه.
الصحابة ليجمع كلام الله المحفوظ عندهم، وأبلى بلاء عظيما في مهمته، وصار يقابل ويعارض ويتحرى مكانه، ويصف زيد بن ثابت رضي الله عنه ما كان يقوم به في ذلك الوقت بقوله: "فكنت أتبع القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال"(1). وبعد عمل شاق ومتواصل، استطاع زيد بن ثابت رضي الله عنه وجزاه كل خير إنجاز مهمة جمع كلام الله في مصحف واحد، لذلك فلا تقلل أبدا من قيمة الطفل الذي تراه أمامك، فهذا

---

(1) رواه ابن حبان في صحيحه

الطفل قد يغير من مجرى التاريخ في المستقبل، فأنت عندما تقرأ القرآن الكريم من المصحف الشريف، فإنك في حقيقة الأمر إنما تقطف ثمرة من ثمار تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم الناجح مع الأطفال، فهذا القرآن الذي تقرأه تم جمعه على يد شاب أنصاري من بني النجار، كان طفلا صغيرا رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمن بقدراته، وعامله بحب وحنان، واستثمر في تعليمه، ليتحول ذلك الطفل فيما بعد إلى العملاق الذي جمع آخر وحي منزل من السماء !

ولكن... هل اقتصرت رعاية الرسول صلى الله عليه وسلم على الأطفال الذكور فقط؟ أم أنه كان يشمل الأولاد والبنات في رعايته وتربيته؟ وماذا عن المرأة؟ كيف كان تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم مع المرأة بشكل عام؟

المرأة

"النساء شقائق الرجال"(1)

كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم حفيدة صغيرة اسمها أمامة رضي الله عنها، وهي بنت بنته زينب رضي الله عنها من زوجها أبي العاص بن الربيع رضي الله عنه، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبها حبا كبيرا، لدرجة أنه حملها معه وهو يصلي، فعن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه قال: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي، وهو حامل أمامة بنت زينب، بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولأبي العاص بن الربيع بن عبد شمس، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حمئها"(2).

---

(1) رواه أبو داود في سننه، والترمذي في سننه، وابن حجر العسقلاني في تخريج مشكاة المصابيح، والسيوطي في الجامع الصغير، والشوكاني في الفتح الرباني.
(2) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بالأطفال لم يقتصر فقط على الأولاد الذكور دون الإناث، بل كانت دروسه التربوية تشمل الجميع، إضافة لذلك شدد بشكل خاص في كثير من أحاديثه على أهمية العناية بالبنات تحديدا، محاربا بذلك بعض الأفكار الجاهلية التي كانت سائدة في جزيرة العرب، فقد كان كثير من العرب في فترة الجاهلية يفضلون إنجاب الأولاد على البنات، فجاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليحارب هذا الفكر الجاهلي المتخلف الذي يميز بين البشر بطريقة ظالمة على أساس النوع، وربما كان هذا سببا من الأسباب التي جعلته يحمل حفيدته الصغيرة معه في الصلاة، ربما أراد الرسول صلى الله عليه وسلم إرسال رسالة واضحة إلى المجتمع العربي والعالم بأسره بحمله لتلك الصغيرة أمام الجميع، إضافة لذلك شدد الرسول صلى الله عليه وسلم في كثير من أحاديثه على ضرورة إكرام البنت وتربيتها تربية صالحة لكي تصبح امرأة قوية تشارك بشكل فعال في بناء الحضارة وصناعة المستقبل، ووعد الرسول صلى الله عليه وسلم من يرعاها ويحسن إليها بالأجر الجزيل،
وجعل حسن تربيتها ورعايتها أمرا ينال فيه المسلم أجرا كبيرا، فأوضح في أحد أحاديثه أن الذي يرعى جاريتين، يعني بنتين، حتى تبلغا، سيكون قريبا جدا من الرسول صلى الله عليه وسلم يوم القيامة، فقال صلى الله عليه وسلم: "من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو (وضم أصابعه)"(1) .

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحرص أثناء حياته على بناء مجتمع سليم يشكل نواة لجيل قوي يساهم في بناء الحضارة الإنسانية ويشارك في رقي العنصر البشري، والمجتمعات بطبيعة الحال لا تتكون من رجال فقط، فالمرأة تمثل نصف المجتمع، وفي بعض الأحيان تمثل أكثر من ذلك، فكثير من الدول المتقدمة صناعياً في هذا الزمان كان للمرأة الدور الأبرز والأكبر في تقدمها، فألمانيا الحديثة على سبيل المثال كانت المرأة فيها هي الأساس في إعادة بنائها بعد هزيمتها المذلة في الحرب العالمية الثانية وما أعقبها من دمار شبه كامل في بضي الله ا التحتية، خاصة مع مقتل الملايين من الجنود الرجال وأسر الملايين منهم ليعملوا في معسكرات الاتحاد السوفييتي السابق، لذلك فإن الظروف التي تمر بها المجتمعات تحتم عليها التعامل وفق معطياتها الواقعية، والمجتمعات السليمة ينبغي أن يعمل بها الجميع للنهوض بها كل حسب طاقته وطبيعته، فهذه الأرض هي ملك للمرأة مثلما أنها ملك للرجل، والمرأة ليست كائنا غريبا جاء من كوكب آخر، وهي مثلها مثل الرجل تنتمي لبني الإنسان، لديها روح وعقل ومشاعر وآراء واجتهادات تصيب وتخطئ، فالأصل في المرأة والرجل أنهما سواء، ولا يختلف الرجل والمرأة سوى في أمور استثنائية قليلة ميز الله بها بعضهم على بعض لتناسب طبيعة تكوين كل منهما، أما فيما عدا ذلك من الأمور فهي مثلها مثل الرجل تماما، وهذا ما أوضحه الرسول صلى الله عليه وسلم بكلمات واضحة ومختصرة: "النساء شقائق الرجال"(1).

---

(1) رواه أبو داود في سننه، والترمذي في سننه، وابن حجر العسقلاني في تخريج مشكاة المصابيح، والسيوطي في الجامع الصغير، والشوكاني في الفتح الرباني.

وللمرأة في الإسلام دور كبير يغفل عنه كثير من المسلمين للأسف، والقارئ الجيد لحوادث التاريخ، وقصص الأمم السابقة الواردة في القرآن الكريم، وأحداث السيرة النبوية التي حفظتها كتب الحديث والسيرة يدرك تمام الإدراك أن دور المرأة عبر التاريخ كان دورا محوريا وهاما في بناء الأمة الإسلامية، فهذا الدين الذي بين أيدينا ما كان ليصلنا لولا أن سخر الله للإنسانية نساء عظيمات نصر الله بهن دينه، فكانت المرأة، خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، أول من آمن برسالة محمد صلى الله عليه وسلم من البشر أجمعين، وكانت المرأة، سمية بنت خباط رضي الله عنها، أول الشهداء في تاريخ الإسلام، وكانت المرأة، عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها، هي الشخص الذي اختاره الرسول صلى الله عليه وسلم لكي يموت بجانبه، وكانت المرأة، هاجر عليها السلام، هي الإنسانة التي بدأت معها الحياة في مكة قبلة

المسلمين، وكانت المرأة، آسية بنت مزاحم عليها السلام، هي الإنسانة التي تصدت لفرعون أكبر طاغية في التاريخ، وكانت المرأة، أم موسى عليها السلام، هي الإنسانة التي بدأت معها أولى خطوات بناء الأمة من جديد، بعد سنوات طويلة من الضعف والهوان، لقد كان بناء أمة بأسرها يبدأ بامرأة واحدة:" طسم (1) تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6) وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7)

والمتأمل في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم يجد أن المرأة شاركت وبقوة في وضع الأسس الأولى للحضارة الإسلامية منذ فجر الإسلام، ولم تكن المرأة معزولة عن المجتمع الإسلامي في المدينة على النحو الذي يتخيله البعض، فقد كانت المرأة في عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم تعمل وتتعلم وتعلم، وامتلكت المرأة في دولة المدينة استقلالية في التصرف بأموالها وأملاكها، وكان لها مطلق الحرية في رفض أو قبول الشخص الذي يتقدم لخطبتها، وكانت تملك حرية واسعة في طلب الانفصال من الزوج الذي لا تشعر بسعادة معه، حتى وإن كان يوفر لها كل شيء ويعاملها معاملة حسنة، وكانت المرأة في عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم تشارك بآرائها بكل حرية في مختلف القضايا الفقهية والاجتماعية وحتى السياسية، وسنحاول خلال السطور القادمة تسليط الضوء على بعض النقاط التي من شأنها إظهار الصورة الحقيقية لحياة المرأة في عهد رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم:

1 **1- احترام المرأة**: حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على إظهار احترامه الكبير للمرأة في جميع مراحل حياتها، فكان يرفع حفيدته الصغيرة في الصلاة أمام الصحابة، وكان يذكر الصحابة في أحاديثه بالنساء العظيمات اللواتي ساهمن في صناعة التاريخ، من أمثال آسية بنت مزاحم عليها السلام وهاجر عليها السلام ومريم عليها السلام وغيرهن، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يوصي أصحابه كثيرا بالنساء، وحتى في خطبة الوداع التي فارق الحياة بعدها بأيام، لم ينس أن يوصي خيرا بالنساء، وقد أظهر الرسول صلى الله عليه وسلم احترامه للمرأة منذ طفولتها وحتى مفارقتها للحياة، ومن أعظم مظاهر احترام الرسول صلى الله عليه وسلم للمرأة أنه كان يحرص بنفسه على الصلاة عليها بعد موتها، وفي الحديث الصحيح الذي رواه النسائي عن الصحابي أبي أمامة بن سهل بن حنيف الأنصاري: "أن مسكينة مرضت،

فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمرضها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود المساكبن، ويسأل عنهم، فقال رسول صلى الله عليه وسلم إذا ماتت فآذنوني، فأخرج بجنازتها ليلا، وكرهوا أن يوقظوا رسول الله، فلما أصبح رسول الله أخبر بالذي كان منها، فقال: ألم آمركم أن تؤذنوني بها، قالوا: يا رسول الله، كرهنا أن نوقظك ليلا، فخرج رسول الله حتى صف بالناس على قبرها، وكبر أربع تكبيرات"(1).

---

(1) رواه النسائى في سننه.

(2) **العلم:** بين الرسول صلى الله عليه وسلم بشكل واضح أن طلب العلم فريضة على المسلمين جميعا دون استثناء، وذلك في الحديث الصحيح الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه:"طلب العلم فريضة على كل مسلم وإن طالب العلم يستغفر له كل شيء،حتى الحيتان في البحر.(1)
والمعنى إذا كان على مسلم فالمسلمة دخلت، لأنه ما وجب على هذا وجب على هذا كما تقدم، الأحكام بينهم ثابتة، فما وجب على المسلم وجب على المسلمة، وما وجب عليها وجب على المسلم إلا ما خصه الدليل بواحد منهما(2). لذلك فقد حرصت النساء في عهد النبي صلى الله عليه وسلم على تحصيل العلم، ليس في المجال الديني فقط، بل في المجال الطبي الذي ساعد من عملت منهن في مجال الطب والتمريض كرفيدة الأسلمية رضي الله عنها، وفي مجال علوم الطبيعة الذي ساعد من عملت منهن في مجال الزراعة، ووصل تشجيع الرسول صلى الله عليه وسلم للمرأة في تحصيل العلم إلى تخصيصه مجلسا

---

(1) جامع بيان العلم وفضله، الحافظ ابن عبد البر.

(2) فتاوى الجامع الكبير، بن باز.

علميا خاصا للنساء تلبية لطلب إحدى النساء المسلمات، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: "جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يارسول الله، ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يوما نأتيك فيه تعلمنا مما علمك الله، فقال: "اجتمعن في يوم كذا وكذا بمكان كذا وكذا "، فاجتمعن، فأتالهن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلمهن مما علمه الله"(1)
ولم تكتف المرأة في فجر الإسلام بالتحصيل العلمي، بل كانت هناك نساء معلمات يتعلم منهن النساء والرجال على حد سواء، مثل السيدة عائشة رضي

الله عنها التي كانت عالمة كبيرة يأتيها الرجال بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم للتزود بالعلم.

(3) **العمل:** اشتركت النساء في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم في بناء المجتمع الإسلامي، فكانت هناك من تعمل في مجال الطب والتمريض كرفيدة الأسلمية رضي الله عنها التي كانت تداوي المسلمين في المعارك بما تمتلكه من خبرات علاجية ودوائية واسعة، فكانت

---

(1) رواه البخاري ومسلم في صحيحيها،واللفظ للبخاري.

النساء المسلمات يخرجن مع جيوش المسلمين، لمداواة الجرحى، وتطبيبهم، والقيام على رعايتهم، ودليل ذلك ما روته الصحابية الجليلة أم عطية التي قالت: "غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات، أخلفهم في رحالهم، فأصنع لهم الطعام، وأداوي الجرحى، وأقوم على المرضى"(1).

وعملت المرأة أيضا في مجال الزراعة، فكانت النساء تقطف الثمار، وترعى الزرع، وقد وقف الرسول صلى الله عليه وسلم في صف امرأة أراد أحد الرجال منعها من العمل، فعن الصحابي جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: "طلقت خالتي، فأرادت أن تجد نخلها، فزجرها رجل أن تخرج، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقال: بلى، فجدي نخلك، فإنك عسى أن تصدقي أو تفعلي معروفا"(2).

وفي دولة المدينة، عملت المرأة أيضا في الأشغال اليدوية دون أن يمنعها الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك، فقد ورد أن

---

(1) صح مسلم.

(2)صحيح مسلم.

الصحابية الجليلة رائطة زوجة ابن مسعود رضي الله عنها " كانت امرأة صناعا وليس لعبد الله بن مسعود مال، وكانت تنفق عليه وعلى ولده من ثمرة صنعتها" (1).

(4) **لا يجوز إكراه المرأة على الزواج من أحد**: شدد الرسول صلى الله عليه وسلم على أن من شروط صحة الزواج موافقة الطرفين، وأكد في أحاديثه أن من حق المرأة قبول أو رفض الشخص الذي يتقدم لها، سواء أكانت بكرا لم يسبق الزواج لها، أو كانت في حالة المرأة الأيم، أي المرأة سبق لها الزواج من قبل، وفي الحالة الأولى يجوز لها أن تصرح بردها بالقبول

أو الرفض، أو أن تسكت إذا غلب عليها الحياء فيكون السكوت علامة للقبول، أما في الحالة الثانية فيجب التصريح بالرد قبولا أو رفضا، وفي جميع الحالات يشترط موافقة المرأة لصحة الزواج. وقد ثبت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما لا يدع مجالا للشك في أصح كتابين للحديث، صحيح البخاري

---

(1) أخرجه ابن حبان في صحيحه.

وصحيح مسلم: "لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تنكح البكرحتى تستأذن"(1)
لذلك فليتق الله كل من يحاول إكراه المرأة على الزواج من أي رجل دون موافقتها، وليعلم من يقوم بذلك أنه يحارب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بارتكابه لمثل هذه الجريمة.

(5) **تعامل الزوج مع الزوجة**: حدد رسول الله صلى الله عليه وسلم الاحترام المتبادل كأساس للحياة الزوجية، وحث أصحابه في أكثر من موضع على ضرورة أن يحسنوا معاملة زوجاتهم، وأوضح أن إحسان معاملة الزوجة من صفات المؤمنين:
"أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وخياركم خياركم لنسائهم"(2).
وقد طلب الرسول صلى الله عليه وسلم من الصحابي الجليل عثمان بن عفان رضي الله عنه أن يبقى بجوار زوجته المريضة ليعتني بها بدلا من الاشتراك بالقتال في غزوة بدر الكبرى، وذلك على

---

(1) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.
(2) رواه الترمذى فى سننه.

الرغم من قلة عدد المسلمين مقارنة بعدد مقاتلي جيش مشركي قريش، واعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم وقوف عثمان رضي الله عنه بجانب زوجته في محنتها بمثابة المشاركة في القتال في أعظم معارك المسلمين على الإطلاق، لذلك فإن ذا النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه يعتبر من البدريين على الرغم من عدم مشاركته الفعلية في ساحة المعركة، فقد قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لك أجر رجل ممن شهد بدرا وسهمه"(1) .
ولم يكتفي الرسول صلى الله عليه وسلم بالتنظير لحسن معاملة الزوجة، بل كانت حياته الزوجية مثالا على ذلك، فكان كثيرا ما يذكر بالخير زوجته الأولى خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ولا يخجل من ذكر فضلها عليه، وحتى بعد موتها كان صلى الله عليه وسلم يحرص على التواصل مع صديقاتها احتراما لذكراها، وتصف زوجته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هذا الأمر بقولها:

---

(1) صحيح البخاري.

"ما غرت على أحد من نساء النبي صلى الله عليه وسلم ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة"(1) .
ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يخجل أيضا من ذكر حبه لزوجته عائشة أمام الناس، وهذا ما حصل عندما سأله الصحابي الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنه عن هوية أحب الناس إليه: "فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة"(2).
ويكفي القول فقط أن آخر لحظات رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الدنيا كانت وهو على صدر أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.(3)
6- **الطلاق**: على عكس كثير من الأديان، كفل الإسلام للمرأة حق طلب الطلاق من زوجها إذا ما شعرت بأنها لا

---

(1) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.
(2) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.
(3) رواه البخار ي ومسلم في صحيحيهما.

تستطيع الاستمرار معه، حتى وإن كان زوجها يعاملها معاملة حسنة ويوفر لها كل شيء، فيكون من حقها في هذه الحالة أن يتم التطليق مقابل أن ترد عليه ما أخذته منه، وهو ما يعرف فقهيا بالخلع، فعن ابن عباس رضي الله عنه:
"أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتردين عليه حديقته؟ قالت نعم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقبل الحديقة وطلقها تطليقة"(1).
7. **التعامل مع المراة المطلقة والأرملة**: تتعرض المرأة المطلقة والأرملة في كثيرمن الثقافات في العالم لظلم كبير، وفي بعض الثقافات الأوروبية القديمة كانت المرأة تحرق مع زوجها عند موته، وما زالت المرأة المطلقة أو الأرملة في بعض الدول الآسيوية تتعرض لتمييز واضطهاد كبيرين، وللأسف فإن

---

(1) صحيح البخاري

كثيرا من الناس في المجتمعات المسلمة لديهم نظرة سلبية للمرأة المطلقة والأرملة، هؤلاء لم يقرأوا جيدا سيرة رسولهم محمد صلى الله عليه وسلم ،

فلقد تزوج الرسول صلى الله عليه وسلم من مطلقات وأرامل، ولك أن تعلم أن كل أمهات المؤمنين باستثناء عائشة رضي الله عنها كن إما مطلقات أو أرامل، فهل ترضى أن تكون لك مثل هذه النظرة السلبية على من قدر الله لهن أن يكن مطلقات أو أرامل مثل أمهات المؤمنين وزوجات رسولك صلى الله عليه وسلم ؟!

وقد شاهدنا في خضم حديثنا عن عمل المرأة في فجر الإسلام كيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم وقف في صف امرأة مطلقة حاول أحد الرجال منعها من العمل، فالحقيقة التاريخية التي تؤكدها المراجع التاريخية، أن المرأة المطلقة والأرملة عاشت بكل احترام وتقدير في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وساهمت بشكل فعال في بناء الحضارة الإسلامية وتطورها، وأن نظرة الكثير منا للمطلقات والأرامل نابعة من جاهلية جاء الإسلام أصلا لمحاربتها، وقد حان الوقت علينا لتغيير كثير من الأفكار السلبية الموروثة عن المطلقات والأرامل، فالمطلقة والأرملة مثلها مثل بقية النساء، لا تطلب منا سوى الاحترام!

8- **حق المرأة في الميراث**: على عكس ما كان معمولا به في زمن الجاهلية عند كثير من العرب، جاء الإسلام ليؤكد على حق المرأة في الميراث، ولتحقيق مبدأ العدالة في تقسيم الميراث لعدة حالات وفقا لقرب الورثة من الشخص المتوفى ووفقا للأعباء الاقتصادية الملقاة على عاتق كل وريث، قسم الإسلام الميراث على الورثة بطريقة غاية في الدقة لا يتسع المقام هنا لشرحها، ولكن ما يعنينا هنا هو نصيب المرأة من الميراث: ففي 7 حالات تحصل المرأة على نصيب مساو لنصيب الرجل، وفي 4 حالات فقط تحصل على نصيب أقل من نصيب الرجل، بينما تحصل المرأة على نصيب أكبر من نصيب الرجل في 11 حالة، وهناك بعض الحالات تحصل فيها المرأة على كل شيء ولا يحصل فيها الرجل على أي نصيب!

وقد أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم على ضرورة أن ينال الجميع بمن فيهم المرأة حقوقهم في الميراث، وحذر الله سبحانه وتعالى بشكل قوي كل من يمتنع عن إعطاء الناس حقوقهم من الميراث، فقال في الآية الكريمة التي وردت ضمن آيات الميراث: " إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (10)" (1) وحذرالرسول صلى الله عليه وسلم كل من يستغل ضعف المرأة ليظلمها، فقال: "اللهم إني أحرج حق الضعيفين: اليتيم والمرأة" (2).

وحذر الرسول صلى الله عليه وسلم من خطورة أن يتعدى الإنسان على أرض غيره، فقال: " من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين" (3),

وللأسف فإن كثيرا من المسلمين في هذا الزمان يعاملون المرأة معاملة الكفار في الجاهلية، فيمنعون أخواتهم وبناتهم من الحصول على حقوقهن في

الميراث، هذه الحقوق التي منحها

---

(1) سورة النساء، الآية 10 .
(2) رواه ابنماجة في سننه.
(3) صحيح البخاري.

الله سبحانه وتعالى لهن من فوق سبع سماوات، لذلك فليحذر كل من يمنع المرأة من الحصول على حقها من الميراث، فالأمر في غاية الخطورة، فهو بهذا الظلم يعرض نفسه لخطر مواجهة محسومة النتيجة مع الله الجبار المنتقم!

9. مشاركة المرأة الفعالة في قضايا الدولة: شاركت المرأة بشكل فعال في أهم القضايا التي برزت للمسلمين وذلك منذ بزوغ أول شعاع لفجر الإسلام، فما أن رجع الرسول صلى الله عليه وسلم من غار حراء بعد لقائه الأول مع الملك جبريل عليه السلام، حتى تحركت السيدة خديجة رضي الله عنها لتكون هي الشخص الذي فكر بإحضار ورقة بن نوفل رحمه الله الذي أوضح للرسول صلى الله عليه وسلم أن الذي جاءه هو ملك الوحي، وأنه الرسول الذي تنتظره البشرية، وقد كان ذلك من حسن تدبير ورجاحة عقل السيدة خديجة رضي الله عنها، وقد تحدث القرآن الكريم عن كثير من النساء اللواتي أثبتن رصانتهن الفكرية وذكاء في التصرف، لعل ملكة سبأ بلقيس مثال على ذلك، فقد جنبت هذه المرأة العاقلة شعبها من الدمار بحسن تصرفها مع نبي الله سليمان عليه السلام، والأمثلة القرآنية التي تتحدث بشكل إيجابي عن النساء كثيرة، إلا أن بعض المسلمين، ولسبب غير مفهوم، يركزون فقط على مثال المرأة في قصة سيدنا يوسف عليه السلام، ولكن الحقيقة الغائبة على كثير منا أن رأي المرأة في بعض الأحيان كان هو الرأي الصواب، مثال على ذلك ما ورد في القصة الشهيرة عن الفاروق عمر رضي الله عنه عندما كان رئيسا للدولة واعترضت على أحد قرارته امرأة مسلمة تبين لعمر رضي الله عنه صحة رأيها وخطأ رأيه، ليكون رأيها هو الذي أخذ به بعد أن قال: "امرأة أصابت ورجل أخطأ"(1)

ولعل قصة الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديبية تبين هذا الأمر بشكل واضح، فلقد كان رأي المرأة ممثلا برأي أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها هو الرأي الذي أخذ به رسول العالمين محمد صلى الله عليه وسلم ، والذي استطاع من خلاله حل المشكلة التي اعترضته، وفي هذا أكبر رد على الذين يقللون من

---

(1) ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري.

شأن المرأة ويشككون بآرائها في القضايا المهمة، فبعد أن عقد الرسول صلى الله عليه وسلم صلح الحديبية، حزن أغلب المسلمين من قبولهم ببنود الاتفاق التي كانوا يرون فيها ظلما للمسلمين، إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كانت نظرة بعيدة الأمد أثبتت صحتها فيما بعد، ولكن المسلمين في ذلك الوقت أصيبوا بالحزن، خاصة مع علمهم أنهم لن يتمكنوا من أداء العمرة في هذا العام كما كانوا يرجون، وعندما أراد الرسول صلى الله عليه وسلم الرجوع إلى المدينة أمرهم بأن يتحللوا من إحرامهم، ولكنهم كانوا في حالة نفسية صعبة منعتهم من القيام بذلك، الأمر الذي أحزن الرسول صلى الله عليه وسلم ، قبل أن تشير إليه أم المؤمنين أم سلمة بحل يدل على رجاحة عقلها: "لما كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم القضية بينه وبين مشركي قريش، وذلك بالحديبية عام الحديبية، قال لأصحابه: قوموا فانحرواواحلقوا، قال: فو الله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحذ، قام فدخل على أم سلمة، فذكر ذلك لها،

فقالت أم سلمة: يا نبي الله، اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم بكلمة، حتى تنحر بدنك وتدعو حلاقك فتحلق. فقام فخرج فلم يكلم منهم أحدا، حتى فعل ذلك، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضا"(ا)

ولكن. .. كيف تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك مع العهد الذي عقده مع كفار قريش؟ ولماذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحرص على عقد صلح الحديبية؟ وكيف أثبت الرسول صلى الله عليه وسلم نظرته الاستراتيجية بعيدة الأمد من خلال عقده لهذا الصلح؟ وهل يجب على المسلمين احترام عهودهم مع الكفار، أم أن الكفار لا عهد لهم؟

---

(1) ابن جرير الطبري، تفسير الطبري.

الوفاء بالعهود

"... وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (34)" (1)

قبل معركة بدر الكبرى مباشرة... كان الصحابيان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه وأبوه اليمان حسيل بن جابر رضي الله عنه خارج المدينة، وبينما هما في طريقهما قابلهم كفار قريش الذين كانوا يستعدون لقتال المسلمين، فألقوا القبض عليهما بداعي أنهما يريدان الانضمام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأوضح الصحابيان أنهما إنما يريدان الرجوع إلى المدينة وليس الانضمام للرسول صلى الله عليه وسلم ، فوافق كفار قريش على إطلاق سراحهما شريطة أن يقطعا عهدا وميثاقاً بألا يشتركا في القتال وأن ينصرفا إلى المدينة، فوافقا

---

(1) سورة الإسراء الآية 34.

على ذلك الشرط، فأطلق الكفار سراحهما، فأتيا الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يستعد للقتال، وأخبراه بما حصل لهما، فطلب منهما الرسول صلى الله عليه وسلم الالتزام بالعهد الذي قطعاه مع الكفار، وألا يشتركا في القتال، وقال لهما الرسول صلى الله عليه وسلم " انصرفا، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم"(ا) .
هذه القصة العجيبة تبين لنا كيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحترم العهود والمواثيق حتى مع ألد أعدائه، فبالرغم من أن هؤلاء كفار قريش أخذوا العهد من حذيفة وأبيه رضي الله عنهما بعد اعتقالهما دون وجه حق، وبالرغم من تعرض الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه للاضطهاد والتعذيب لسنوات طويلة من قبل هؤلاء الكفار، وبالرغم من قلة عدد المسلمين في غزوة بدر بالنسبة لجيش قريش الذي كان يقدر عدده بثلاثة أضعاف عدد المسلمين، إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم رفض انضمام هذين الصحابيين إلى جيش المسلمين، لكي يوضح للمسلمين

---

(1) صحيح مسلم

درسا في منتهى الأهمية، وهو أن المسلمين ينبغي لهم الالتزام بالعهود واحترام المواثيق، حتى وإن كانت هذه العهود والمواثيق مع غير المسلمين، بل وحتى وإن كانت هذه العهود والمواثيق مع الأعداء

الذين ارتكبوا الجرائم والفظائع في السابق، هذا هو الدرس العظيم الذي أراد الرسول صلى الله عليه وسلم تعليمه إيانا من خلال هذه الحادثة، أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يوضح لنا أن الوفاء بالعهود شيء مقدس بالإسلام، بغض النظر عن أي عوامل أخرى يمكن للبعض استخدامها كمبرر لعدم الوفاء بالعهود، فالمسلم ينبغي لتعاملاته مع الآخرين أن تكون انعكاسا لتعاليم هذا الدين العظيم، لا أن تكون انعكاسا لردات الفعل الغاضبة والرغبة الإنسانية لمعاملة الآخرين بالمثل دون أي ضوابط، فمشاعر الغضب والرغبة بالانتقام لا يصح أن تكون هي من يحدد أفعال المسلم، وقد أوضح الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك بشكل جلي عندما نهى عن الخيانة حتى مع الخونة، فقال صلى الله عليه وسلم: "أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولاتخن من خانك"(١)

---

(1) سنن الترمذي

ونحن عندماً نتحدث عن الالتزام بالعهود فإننا لا نعني فقط المعاهدات الرسمية، فالعهد يشمل كل الأمور التي يقطعها الإنسان على نفسه أمام الآخرين، كعهد الزوجين لبعضهما البعض في بداية حياتهما الزوجية، وعهد رب العمل لعماله قبل أن ينجزوا العمل المطلوب، وعهد الموظف لمديره باحترام العمل واتقانه، وعهد الأصدقاء لبعضهم البعض باللقاء في ساعة زمنية محددة، والسؤال هنا: هل نحرص على الالتزام بعهودنا؟ ولإدراك خطورة عدم الوفاء بالعهود، يكفينا فقط أن نقرأ بعض ما جاء في هذا الأمر في الكتاب والسنة: يقول الله تعالى في كتابه الكريم: " وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (91) " (1). في حين يوضح الرسول صلى الله عليه وسلم أن إخلاف الوعد يعد من علامات المنافقين:

---

(٦) سورة التحل الآية 91 .

"آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان"(1).

وحتى في أوقات الحروب، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحذر الأمراء والجنود من الغدر، وكان إذا أرسل جيشا أو سرية أوصى الجنود بعدة وصايا، كان من بينها:

"ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلو ولا تقتلوا وليدا"(2).

ولم يكتف الرسول صلى الله عليه وسلم بالتحذير من الغدر بالمسالمين من غير المسلمين، بل شمل هذا التحذير أيضا كل من

حصل منهم على عهد بالأمان من قبل المسلمين، حتى المقاتلين منهم، ويشمل هذا الأمر بطبيعة الحال المواطنين من غير المسلمين الذين يعيشون في بلدانهم ذات الأغلبية المسلمة، و يشمل أيضا الأجانب من غير المسلمين، سواء كانوا من الذين يعيش المسلم معهم بأمان ضمن عهد اجتماعي في بلدان

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) صحح سلم.

غير مسلمة، أو كانو من الأجانب المستأمنين في بلاد المسلمين، فهؤلاء لم يدخلوها إلا بإذن، وهذا في حد ذاته عهد بالأمان، فلا يجوز الاعتداء عليهم، لا بالقتل المباشر، ولا بالتفجيرات، ولا بالسرقة، ولا بأي نوع من الاعتداءات التي حرمها الإسلام، فدماؤهم وأموالهم معصومة، والمتعرض لهم إنما يعرض نفسه لخطر البعد الكبير عن الجنة الذي حذر الرسول صلى الله عليه وسلم منه في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام البخاري: "من قتل معاهدا لم يَرِح رائحة الجنة وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاما(1). ولم يكتف الرسول صلى الله عليه وسلم بنهي أصحابه عن الغدر، بل أثبت شخصيا بشكل عملي التزامه بالعهود التي عقدها مع الآخرين، حتى تلك العهود التي قد يرى البعض في بنودها إجحافا في حق المسلمين، ففي صلح الحديبية الذي

---

(1) صحيح البخاري

عقده الرسول صلى الله عليه وسلم مع مشركي قريش في العام 6 للهجرة الموافق 627 للميلاد، اشترطت قريش على الرسول صلى الله عليه وسلم ألا يستقبل أي مسلم يخرج إليه من مكة بعد عقد الاتفاق، ويوضح الصحابي أنس بن مالك صلى الله عليه وسلم ما جرى لحظة كتابة الصلح الذي كتبه الصحابي علي بن أبي طالب رضي الله عنه، يقول أنس رضي الله عنه : "أن قريشا صالحوا النبي صلى الله عليه وسلم ، فيهم سهيل بن عمرو، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، قال سهيل: أما باسم الله فما ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب ما نعرف باسمك

اللهم، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: اكتب من محمد رسول الله، قالوا: لو علمنا أنك رسول اله لاتبعناك! ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اكتب من محمد بن عبد الله، فاشترطوا على النبي صلى الله عليه وسلم أن من جاء منكم لم نرده عليكم، ومن جاءكم منا رددتموه علينا، فقالوا يا رسول الله أنكتب هذا؟ قال: نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجا ومخرجا"(1). وبالفعل، رفض الرسول صلى الله عليه وسلم استقبال من جاءه من المسلمين من مكة وفاء منه بالعهد، رغم شدة ذلك الأمر على قلبه وقلوب أصحابه، ولكن هؤلاء المسلمين المكيين خرجوا من مكة، واستقروا في منطقة قطعوا من خلالها طريق تجارة قريش بين مكة وبلاد الشام، الأمر الذي دفع قريشا إلى اللجوء للرسول صلى الله عليه وسلم طلبا بإلغاء هذا البند المجحف الذي اشترطوه هم من قبل، وناشدت الرسول

---

(1) صحيح مسلم

صلى الله عليه وسلم أن يسمح لهؤلاء المسلمين بالإقامة في المدينة، فوافق الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك، واستقبل أصحابه المضطهدين في مدينته. ولكن.. . لماذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحرص على عقد صلح مع كفار قريش؟ وما الشيء الذي قام به مباشرة بعد عقد الصلح؟ وما حكاية رسائله إلى ملوك العالم؟ وما هي القصة العجيبة التي حدثت مع إمبراطور الإمبراطورية الرومانية البيزنطية عندما وصلته رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ وما هي الصفة الأخلاقية التي تميز بها الرسول صلى الله عليه وسلم منذ صغره، والتي كانت أول صفة أخلاقية حرص الإمبراطور الروماني على الاستفسار عنها عند تسلمه للرسالة؟

الصدق

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119) "(1)
في يوم من الأيام، اجتمع زعماء قريش في مجلس من مجالسهم يتناقشون أمر الرسول صلى الله عليه وسلم، فقام أحد زعماء قريش واسمه النضر بن الحارث، فقال لهم: "يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم ساحر، لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم، وقلتم كاهن، لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة

---

(1) سورة التوبة الآية 119.

وتخالجهم وسمعنا سجعهم، وقلتم شاعر، لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها، هزجه ورجزه، وقلتم مجنون، لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه، ولا وسوسته، ولا تخليطه، يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم!".

كان الرسول صلى الله عليه وسلم مشهورا في مكة بصدقه وأمانته، وكان قومه يلقبونه بالصادق وبالأمين لأنهم لم يعهدوا عليه كذبا قط، فلما بعث بدين الإسلام، كان من السهل معرفة صدقه في دعوته، ولكن كثيرا منهم كذبوه واتهموه بتهم كثيرة، على الرغم من أن أغلبهم كان يدرك في قرارة نفسه أنه صادق، ولكن الكبر الذي ملأ قلوبهم منعهم من تصديقه.

وقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على ترسيخ مبدأ الصدق لدى المسلمين، وقد كان لصدق الصحابة والتابعين والمسلمين من بعدهم أثر كبير في نشر الإسلام في العالم، فالناس بفطرتهم تحب التعامل مع الإنسان الصادق، وتتقبل الاستماع إلى دعوته، على عكس الكاذب الذي ينفر الناس منه ومن أحاديثه، لذلك فإن الإسلام انتشر في أكبر دولة مسلمة وهي إندونيسيا وغيرها من الدول الآسيوية والأفريقية نتيجة لتعامل سكان تلك المناطق مع التجار المسلمين، الذين تعلموا من مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم معنى أن يكون الإنسان صادقا في جميع تعاملاته، على عكس بعض المسلمين في هذا الزمان للأسف، الذين يعكسون بكذبهم وتعاملاتهم السيئة مع الناس صورة سلبية عن الإسلام والمسلمين، على عكس الصورة الحقيقية

للإسلام التي يعتبر فيه الصدق من أهم ركائزها، وهو الأمر الذي أوضحه رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم في أحاديث عديدة، فقال صلى الله عليه وسلم: "علبكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا. وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند لله كذابا"(1).

وللصدق أهمية كبيرة يغفل الكثيرون عن التحدث عنها، فأغلب من يتحدثون عن الصدق والكذب يركزون على تأثير ذلك على المجتمع والتعاملات الإنسانية بين الناس، ولكنهم ينسون أهمية الصدق على نفسية الإنسان نفسه، فالإنسان الصادق يعيش في طمأنينة عجيبة لا يدرك روعتها الإنسان الكاذب الذي يعيش حياته في شك وريبة وخوف، هذا الأمر التفت إليه الرسول صلى الله عليه وسلم بذكاء في أحد أحاديثه: "دع ما يريك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، وإن الكذب ريبة"(2).

وقد كانت صفة الصدق التي اتصف بها الرسول صلى الله عليه وسلم من بين الأشياء المهمة التي استفسر عنها عظيم الروم عندما وصلته رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم التي

---

(1) صحيح مسلم.

(2) حديث صحيح رواه الترمذي.

يدعوه فيها إلى الإسلام، فبعد أن وضعت الحرب أوزارها بين قريش والمسلمين نتيجة للهدنة التي نتجت عن صلح الحديبية، تفرغ أهل مكة لتجارتهم، فخرجت قافلة تجارية من مكة إلى الشام، بينما تفرغ الرسول صلى الله عليه وسلم أخيرا لنشر دعوته العالمية في أنحاء الأرض، بعد سنوات طويلة من محاربة قريش له وصده عن دعوة الناس، فشكل الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة بعد الحديبية فريقا دبلوماسيا رفيع المستوى للتواصل مع العالم الخارجي، وأرسل عدة رسائل إلى ملوك وقادة العالم يدعوهم بها إلى الإسلام، وكان أحد هؤلاء القادة هو هرقل عظيم الروم.

وهرقل هو الاسم المختصر لفلافيوس هرقل أغسطس إمبراطور الإمبراطورية الرومانية البيزنطية، وهي الإمبراطورية التي كانت تتنافس مع الإمبراطورية الفارسية الساسانية بهدف السيطرة على أراضي العالم القديم، وهرقل الذي ينتمي لأصول أرمنية ذات مكانة دينية رفيعة كان قبل جلوسه على كرسي الإمبراطورية يساعد أباه الذي كان واليا للرومان على تونس،

وفي ذلك الوقت كانت الإمبراطورية الرومانية تمر بمرحلة ضعف بعد مقتل الإمبراطور موريس عام 602م، فدبت الفوضى والانقسام بين الروم، واستغل الفرس الساسانيون هذه الفرصة للانقضاض على الرومان في محاولة لاسترجاع أمجاد الإمبراطورية الفارسية الأخمينية السابقة، وتمكن إمبراطور الفرس كسرى الثاني عام 608 م من التوغل بجيوشه داخل أراضي الروم حتى وصل إلى الجانب الآسيوي المقابل لعاصمة الإمبراطورية الرومانية الحصينة القسطنطينية، وفي نفس الوقت تقدمت قبائل الآفار والسلاف المتحالفين مع الفرس في البلقان لتطوق القسطنطينية من الجانب الأوروبي، وغزت جيوش تلك القبائل كذلك عامة البلقان حتى وصلت إلى حدود أثينا، وبدا أن الإمبراطورية الرومانية البيزنطية في طريقها إلى الدمار النهائي! في تلك اللحظة، تحرك والد هرقل حاكم تونس الروماني، الذي كان اسمه هرقل الأكبر وفي محاولة أخيرة لإنقاذ الإمبراطورية من السقوط، أعلن هرقل الأكبر تخليه عن دعم الإمبراطور الروماني الضعيف فوكاس وأرسل ابنه هرقل لمهاجمة العاصمة القسطنطينية، واستطاع هرقل بالفعل إزاحة الإمبراطور فوكاس وقتله وتنصيب نفسه إمبراطورا جديدا للرومان عام 610م، ليقود بعدها الحرب ضد الفرس، الذين واصلوا انتصاراتهم على الرومان رغم وجود الإمبراطور الجديد، فتمكن الفرس بقيادة كسرى الثاني من تحقيق انتصارات كبيرة على الروم، توجوها بالاستيلاء على إيلياء القدس "بيت المقدس" عام 14 6 م، ودمر الفرس كنيسة القيامة، واستولوا على الصليب المقدس (الذي يعتقد النصارى أن عيسى عليه السلام صلب عليه)، ونقلوه الي عاصمتهم المدائن، ثم تقدم الفرس إلى مصر، فسقطت الإسكندرية في أيديهم سنة 619م، وترتب على ذلك انقطاع القمح عن القسطنطينية وازدياد سوء الأحوال الاقتصادية، ثم واصل كسرى انتصاراته العسكرية على الروم، واستطاع الفرس بذلك الوصول إلى أغلب حدود الإمبراطورية الأخمينية القديمة، فانهارت معنويات الروم بشكل كبير، واشتعل الصراع الداخلي بينهم من جديد، وأصبحت مسألة سقوط الإمبراطورية الرومانية البيزنطية عند كثير من المراقبين مجرد مسألة وقت!

في نفس ذلك الوقت، ولكن في مكان آخر، وبالتحديد في جزيرة العرب، كانت أخبار انتصارات الإمبراطورية الفارسية الساسانية على الإمبراطورية الرومانية البيزنطية تصل إلى أهل مكة، فأخذ مشركو قريش يسخرون من المسلمين ويشمتون بهم بسبب هزائم الرومان المتتالية، فقد كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم وإياهم يعبدون الأوثان، فقد كان الفرس يدينون بالديانة الزرادشتية، المعروفة عند العرب بالديانة المجوسية، وهي ديانة فارسية قائمة على عبادة "أهورا مزدا" إله النور عند الفرس، لذلك كانوا الفرس يقدسون الشمس والنار التي يرون أن إلههم يتجلى في ضوئها، بينما كان الدين الرسمي للروم هو النصرانية، أي أنهم كانوا أهل كتاب، وهم

بذلك أقرب للمسلمين من الفرس المجوس، فقال مشركو قريش للمسلمين: "إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم!"(1).
فأخبر أبو بكر الصديق رضي الله عنه الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر، فأخبره الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الحرب ستنتهي في نهاية الأمر لصالح الروم، وقال له: "أما إنهم سيغلبون(2)"، فذكر أبو بكر رضي الله عنه هذه البشارة النبوية لهم، فقالوا له: "اجعل بيننا وبينك أجلا فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فحدد أبو بكر رضي الله عنه مدة خمس سنين كموعد لانتصار الروم وظهورهم، ولكن الروم لم يظهروا في هذه المدة، فجاء المسلمون للرسول صلى الله عليه وسلم بخصوص هذا الأمر، فحدد الرسول صلى الله عليه وسلم مدة الأجل بتسع سنوات كحد أقصى، وقد كان تحديد الرسول صلى الله عليه وسلم لموعد محدد بمدة زمنية قصيرة يمثل تحديا كبيرا للكفار الذين يكذبون دعوته، لا سيما أن كل المعطيات على الأرض كانت تشير إلى رجحان كفة الفرس في هذه الحرب التي بدت في ذلك

---

(1) الواحدي النيسابوري، أسباب النزول.
(2) رواه الترمذى فى سننه.

الوقت محسومة لصالحهم، وزاد من هذا التحدي نزول سورة الروم في تلك الأثناء، ففي هذه السورة المكية يؤكد الله سبحانه وتعالى أن الروم سيغلبون في بضع سنين، أي في تسع سنوات كحد أقصى، ليس ذلك فحسب، بل أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه المعجز أن وقت غلبة الروم سيتزامن مع نصر لله يفرح به المؤمنون:" الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5) "(1).

وصار الكفار يتابعون أخبار انتصارات الفرس على الروم ويترقبون انتهاء مدة الأجل لكي يثبتوا للعالم بأسره كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم.ولكن... وقبل انتهاء مدة الأجل... حدث أمر عجيب!

---

(1) سورة الروم، الآيات 1 -5 .

ففي عام 624م، وبينما كانت الإمبراطورية الرومانية على وشك السقوط بعد احتلال الفرس لأغلب أراضي الإمبراطورية في الأناضول والشام ومصر، قام الإمبراطور الروماني هرقل بمناورة عسكرية خطيرة لم يتوقعها أحد، فبدلا من أن يتوجه بجيوشه لمواجهة الفرس لتحرير الأراضي التي انتزعوها منه، ترك هرقل هذه الأراضي تحت الاحتلال الفارسي وتوجه بجيشه مباشرة إلى عقر دار الفرس، واستطاع الالتفاف حول بلاد فارس لاقتحامها من شمالها عن طريق الإبحار من البحر الأسود والمسير عبر أرمينيا وأذربيجان للولوج من هناك إلى الداخل الفارسي، فاستطاع هرقل بهذه المناورة الذكية الانتصار على الفرس في معركة فاصلة في هذه الأرض، وقام بعدها بتدمير أحد أكبر وأشهر معابد النار للمجوس على الإطلاق، وهو المعبد المجوسي المعروف ب "آذركشنسب" وتعني بالفارسية "نار المحاربين"، وقد قام هرقل بتدمير هذا المعبد المجوسي الضخم انتقاما من الفرس المجوس الذين دمروا كنيسة القيامة قبل ذلك بسنوات قليلة.

وبعد هذا النصر الكبير للروم، قاد الإمبراطور هرقل بنفسه جيوش الإمبراطورية الرومانية للانتصار على الفرس في معارك متتالية، حتى جاء يوم 12 ديسمبر 627م، وهو يوم انتصار الروم على الفرس في معركة نينوى وهي المعركة الفاصلة التي تمكن فيها هرقل من هزيمة الفرس شر هزيمة، وحاصر عاصمة الإمبراطورية الفارسية "قطسيفون" المعروفة لدى العرب باسم "المدائن"، وأثناء حصار الروم لعاصمة الفرس، ونتيجة للهزائم المذلة التي لحقت بهم، قام أحد أبناء الإمبراطور كسرى الثاني واسمه قباد الثاني(2) باانقلاب على أبيه، وبعدها قتل أباه

---

(1) قباد الثاني يسمى أيضا "شيرويه".

كسرى الثاني(ا) وثمانية عشرمن إخوته، ثم أعلن قباد الثاني قبوله بكل الشروط المذلة التي اشترطها هرقل عليهم ليقبل بوقف الحرب والرجوع عن عاصمتهم، وكانت هذه الشروط تقضي بانسحاب الفرس إلى حدود ما قبل الحرب الفارسية الرومانية الأولى، وإطلاق سراح جميع الأسرى، وإرجاع الصليب المقدس لعهدة الدولة البيزنطية في القدس، وبذلك تكون تلك الحرب المعروفة ب"الحرب الساسانية- البيزنطية(2)"، والتي امتدت بين عامي 602-

628 ميلاديا، قد انتهت بغلبة الروم وظهورهم على الفرس تماما كما أخبر بذلك الله ورسوله صلى الله عليه وسلم منذ بضع سنوات، لتكون نتيجة

---

(1) قبل هذه الهزيمة المذلة لكسرى الثاني ونهايته بهذه الطريقة البشعة قام كسرى بتمزيق رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فدعا عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد جاء في صحيح البخاري: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بكتابه إلى كسرى، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، يدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه كسرى مزقه، فحسبت أن ابن المسيب قال: فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أن يمزقوا كل لممزق)،.

(2) الساسانية: نسبة للعائلة المالكة في فارس، والبيزنطية: نسبة لمدينة "بيزنطة" الأثرية التى بنيت على أنقاضها مدينة القسطنطينية "إسطنبول" عاصمة الإمبراطورية الرومانية.

هذه الحرب دلالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وإعجاز كتابه الكريم.

" الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5) " (1)

ولكن ما هو ذلك النصر بالتحديد الذي فرح به المؤمنون وفقا لهذه الآيات؟

لقد توافقت سنة 224 م وهي سنة أول انتصار كبير للروم على الفرس مع السنة التي تحقق فيها أول انتصار كبير للمسلمين على كفار مكة، فغزوة بدر الكبرى والتي فرح المؤمنون بنصر الله فيها وقعا في نفس السنة 224م، بينما كانت سنة 227م هي نفس السنة التي وقعت فيها أحداث معركة نينوى الفاصلة، وأحداث صلح الحديبية، الصلح الذي كان

---

(1) سورة اروم، الآيات 1-5 .

لحظة مفصلية في تاريخ الإسلام، والذي كان بلا شك نصرا من الله وفتحا مبينا: " إنا فتحنا لك فتحا مبينا "(1)، ويحتمل أن يكون أحد هذين النصرين هو النصر المقصود بالآية، ويحتمل أن يكون المقصود هو فرح المؤمنين بانتصارات الروم التي قدرها الله لهم، وهو سبحانه ينصر من يشاء من عباده، ويحتمل أن تكون هذه الاحتمالات مجتمعة هي المقصود بالآية، الله أعلم بذلك، ولكني حرصت على ذكر الخلفيات التاريخية لحرب الروم والفرس التي تزامنت مع بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الشكل المفصل، لأنني وجدت اختلافا عند المفسرين رحمهم الله في تحديدهم للنصر المقصود في هذه الآيات، دون أن أجد كتابا صدر قديما أو حديثاً -حسب علمي- تطرق بشكل مفصل لأحداث وتواريخ المعارك التي وقعت إبان حرب الفرس والروم وعلاقة ذلك كله بأحداث السيرة النبوية، فقررت أن أكتب هذه السطور وأضيف هذه المعلومات، لعلها تكون إضافة جديدة يستفيد منها طلبة العلم المهتمين بدراسة السيرة، ولعلها تكون إثباتاً تاريخيا جديدا لمصداقية رسول الله

---

(1) سورة الفتح الآية1.

صلى الله عليه وسلم وإعجاز القرآن الكريم فيما يتعلق بحرب الفرس والروم.

ولكن ماذا حصل بعد انتصار |الروم على الفرس؟

دخلت الإمبراطورية الفارسية في طور من الضعف والتشرذم والتمزق، وتعاقب على كرسي الإمبراطورية عدة ملوك وملكات لم تدم فترة حكمهم إلا لفترات قصيرة جدا، حتى تم تنصيب يزدجرد الثالث بمباركة من هرقل كإمبراطور على الفرس، وفي عهده تمكن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم من هزيمة الفرس المجوس ودخول عاصمتهم المدائن التي لم يتمكن هرقل سابقا من دخولها، قبل أن ينهي المسلمون إمبراطورية فارس المجوسية إلى الأبد في زمن صاحب رسول الله صلى صلى الله عليه وسلم الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك أعقاب معركة نهاوند الفاصلة أما الروم فبعد انتصارهم الكبير في معركة نينوى نهاية سنة 627م، وتمكن إمبراطورهم هرقل من استرداد أراضي الإمبراطورية واستعادة الصليب المقدس من الفرس، أصبح هرقل بطلا قوميا ودينيا لدى الشعب الروماني، وقرر أن يحج إلى القدس ماشيا على قدميه لكي يشكر ربه على الانتصار، فصادف وجوده في القدس وصول رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه، فطلب هرقل أن يجلبوا له أناس من قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قدر الله أن أبا سفيان بن حرب رضي الله عنه، والذي كان ما يزال كافرا في ذلك الوقت، كان موجودا في مدينة غزة الفلسطينية في تجارة لقريش، ولنستمع إلى أبي سفيان رضي الله عنه لكي يروى لنا ما جرى في تلك الأثناء: انطلقت في المدة(1) التي كانت بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينا أنا بالشام، إذ جيء بكتاب من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل، وكان دحية الكلبي(2) جاء به، فدفعه إلى عظيم بصرى(3)، فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل، فقال هرقل: هل هاهنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قالوا:نعم. فدعيت في نفرمن قريش، فدخلنا على هرقل، فأجلسنا بين يديه، فقال أيكم أقرب نسبا من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقلت: أنا.(4) فأجلسوني بين يديه، وأجلسوا

---

(1) يقصد بالمدة: الهدنة التي نتجت عن صلح الحديبية.

(2) دحية الكلبي: هو الصحابي الجليل دحية بن خليفة الكلبي رضي الله عنه، اشتهر إضافة إلى رجاحة العقل بوسامته، وكان يضرب به المثل في جمال الوجه وحسن الصورة، وكان الملك جبريل عليه السلام يأتي على صورته.

(3) عظيم بصرى: هو ملك مملكة الغساسنة التابعة للإمبراطورية الرومانية، وكان بمثابة والي الروم على الشام، كانت عاصمتهم مدينة بصرى الشام.

(4) الأمويون الذين ينتمي إليهم أبو سفيان بن حرب رضي الله عنه هم أبناء عمومة

الهاشميين الذين ينتمي إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم، وهم جميعا ينتمون لعشيرة عبد مناف، فجد الأمويين عبد شمس بن عبد مناف هو الأخ التوأم لهاشم بن عبد مناف جد الهاشميين.

أصحابي خلفي، ثم دعا بترجمانه، فقال له: قل لهم إني سائل هذا عن الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كذبني فكذبوه.

يعلق أبو سفيان رضي الله عنه على هذا الأمر: وايم الله لولا مخافة أن يؤثر علي الكذب لكذبت!

وفي رواية أخرى: فلقد عرفت أني لو كذبت ما ردوا علي، ولكني كنت امرءا سيدا أتكرم وأستحي من الكذب، وعرفت أن أدنى ما يكون في ذلك أن يرووه عني، ثم يتحدثونه عني بمكة فلم أكذبه(1) .

ثم قال هرقل لترجمانه: سله كيف حسبه فيكم؟

قلت: هو فينا ذو حسب.

قال: فهل كان من آبائه ملك؟

قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

---

(1) كان عرب الجاهلية يأنفون من الكذب ويعتبرونه ضعفاً لا ينبغي للسادة أن يعرفوابه.

قلت: لا.

قال: ومن يتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟

قلت بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟

قلت: لا بل يزيدون.

قال: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة

فت: لا.

قال: فهل قاتلتموه؟

قلت: نعم.

قال: نكيف كان قتالكم إياه؟

قلت: تكون الحرب بيننا وبينه سجالا، يصيب منا ونصيب

قال: فهل يغدر ؟
قلت: لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو صانع فيها.

يعلق أبو سفيان رضي الله عنه عن جوابه الأخير بقوله: فوالله ما أمكنني من كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه! (1).
قال هرقل: فهل قال هذا القول أحد قبله؟
قلت : لا .

فقال هرقل لترجمانه: قل له إني سألتك عن حسبه فزعمت أنه فيكم ذو حسب، وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومها. وسألتك هل كان في آبائه ملك، فزعمت أن لا، فقلت لو كان من آبائه ملك قلت رجل يطلب ملك آبائه. وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم أشرافهم، فقلت بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فزعمت أن لا، فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله! وسألتك هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخله سخطة له فزعمت أن لا وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة

---

(1) كان بو سفيان رضي الله عنه بحكم كونه كافرا في ذلك الوقت يرغب في ذكر أي شيء سلبي بحق الرسول صلى الله عليه وسلم ، فحاول التشكيك بوفاء الرسول صلى الله عليه وسلم المستقبلي بالمعاهدة، ولكن هذه المقولة لم يعرها هرقل أي اهتمام.

القلوب وسألتك هل يزيدون أو ينقصون فزعمت أنهم يزيدون وكذلك الإيمان حتى يتم وسألتك هل قاتلتموه فزعمت أنكم قد قاتلتموه فتكون الحرب بينكم وبينه سجالا ينال منكم وتنالون منه، وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة. وسألتك هل يغدر فزعمت أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك هل قال هذا القول أحد، قبله فزعمت أن لا، فقلت لو قال هذا القول أحد فبله قلت رجل ائتم بقول قيل قبله!
ثم سأل هرقل أبا سفيان رضي الله عنه قائلا: بم يأمركم؟
فأجابه أبو سفيان رضي الله عنه: يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف.
فقال إمبراطور الروم هرقل: إن يكن ما تقول فيه حقا، فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم(1)، ولو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببت

لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلغن ملكه ما تحت قدمي!

---

(1) كان هرقل على علم ديني واسع، وقد كان يتوقع خروج نبي آخر الزمان الذي بشرت به الكتب السابقة، ولكن يبدو أنه كان يعتقد أنه سيخرج من بين اليهود..

يكمل أبوسفيان رضي الله عنه ما جرى في ذلك اليوم: ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأه، فإذا فيه:
بسم الله الرحمن الرحيم
من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين(1)،

---

(1) الأريسيين: نسبة للقسيس الليبي الأمازيغي الموحد آريوس الذي ظهر في الإسكندرية نهاية القرن الثالث الميلادي وبداية القرن الرابع الميلادي، وحارب فكرة تأليه المسيح عليه السلام التي تبناها أسقف الإسكندرية في ذلك الوقت، ووقف في وجه مألهي المسيح عليه السلام في مجمع نيقية عام 325، وقد عانى الأريسيون من الاضطهاد والقتل والتعذيب في زمن الإمبراطورية الرومانية التي كان هرقل إمبراطورا لها، وقد ذكر الإمام ابن حزم الأندلسي في كتابه "الفصل في الملل والأهواء والنحل" كلاماً عن آريوس جاء فيه: " والنصارى فرق منهم أصحاب أريوس، وكان قسيساً بالإسكندرية، ومن قوله التوحيد المجرد، وأن عيسى عليه السلام عبد مخلوق، وأنه كلمة الله تعالى التي بها خلق السموات والأرض"، وأورد ابن تيمية في كتابه "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح" رسالة لرجل مسلم كان نصرانيا اسمه الحسن بن أيوب، في هذه الرسالة أورد الحسن بعضا من أسباب إسلامه: "ولما نظرت في مقالات النصارى وجدت صنفا منهم يعرفون بالأريوسية يجردون توحيد الله ويعترفون بعبودية المسيح عليه السلام ولا يقولون فيه شيئا مما يقوله النصارى من ربوبية ولا بنوة خاصة ولا غيرهما وهم متمسكون بإنجيل المسيح مقرون بما جاء به تلاميذه والحاملون عنه؟، بينما ذهب بعض علماء المسلمين أن الأريسيين هم الفلاحين الذين يعيشون في أراضي الإمبراطورية، والحقيقة أنني لم أجد في المصادر الرومانية أو الغربية ما يشير إلى إطلاق الرومان اسم الأريسيين على الفلاحين، بل على العكس، هناك إجماع من المؤرخين الغربيين ورجال الكنيسة أن اسم الأريسيين أطلق على أتباع آريوس عبر

التاريخ الذين أنكروا عقيدة التثليث ومساواة المسيح علبه السلام بالله، وقد شرحت حكاية الأريسيين بالتفصيل والوثائق الإسلامية والغربية في كتابي "مائة من عظماء أمة الإسلام غيروا مجرى التاريخ".

و يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون.

يروي أبو سفيان رضي الله عنه ما جرى بعد قراءة رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم: فلما فرغ من قراءة الكتاب، ارتفعت الأصوات عنده، وكثر اللغط، وأمر بنا فأخرجنا، فقلت لأصحابي حين خرجنا: لقد أمر أمر ابن أبي كبشة(1)! إنه ليخافه ملك بني الأصفر!

فما زلت موقنا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام. وبالفعل. .. أسلم أبو سفيان رضي الله عنه عند فتح مكة، وتحول إلى أحد أبطال الأمة بعد أن فقد عينيه الاثنتين وهو يقاتل في سبيل الله، ولكن كثيرا من زعماء مكة الذين حاربوا الإسلام من قبل ماتوا قبل أن يسلموا، بعد أن منعهم الكبر عن تصديق دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(1) أبو كبشة: قيل: هو جد النبي صلى الله عليه وسلم من قبل أمه، وهو والد أمه آمنة واسمه وهب بن عبد مناف بن زهرة. وقيل: هو جد النبيصلى الله عليه وسلم من قبل جدة أبيه، وهو والد سلمى الأنصارية الخزرجية والدة عبد المطلب، وهو ابن عمرو بن زيد بن لبيد الخزرجي. وقيل: هو الحارث بن عبد العزي السعدي زوج حليمة التي أرضعت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في صغره. وقيل: هو"جزء بن غالب بن عامر بن الحارث بن غبشان الخزاعي، أو"وجز بن غالب"، وهو من خزاعة ثم من بني غبشان، أحد أجداد النبي من قبل أمهاته. وقيل عن سبب تسمية قريش النبيصلى الله عليه وسلم أن مشركي قريش أطلقوا على النبي صلى الله عليه وسلم لقب ابن أبي كبشة حين دعا إلى الله وخالف أديانهم، تشبيها لأبي كبشة (وجز بن غالب)، الذي خالف قريشاً في عبادة الأوثان فعبد الشعرى (والشعرى هو النجم المضيء الذي يخرج في شدة الحر)، فنسبوه إليه للاشتراك في مطلق المخالفة. وقيل: إن قريشا كانت تنسب النبي إلى جد غامض غير معروف تحفيزا له، لأن العرب كانت إذا حقرت إنسانا نسبته إلى جدغامض غيرمعروف في الناس.

ولكن... كيف كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتحاور مع زعماء قريش من قبل؟ وما هو الأدب الذي تحلى به رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي يحتاجه كثير من المسلمين في هذا الزمان؟

أدب الإنصات

"أقد فرغت يا أبا الوليد؟"(1)

في يوم من الأيام، وبينما نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد الحرام وحده، اجتمع سادة قريش في ناديهم يتناقشون في أمر دعوة محمد صلى الله عليه وسلم التي اكتسبت زخما جديداً بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وقد رأى زعماء مكة أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرون، فقام كبير بني عبد شمس وأحد وجهاء قريش وزعمائها أبو الوليد عتبة بن ربيعة العبشمي القرشي الكناني، وقال لسادة قريش: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا؟
فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه وكلمه.
فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السطة(1) في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قل يا أبا الوليد أسمع".
قال عتبة: يا بن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه

---

(1) السطه : الشرف

أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه.
وبعد أن انتهى عتبة من استعراض كل ما لديه من كلام ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع إليه، قال له الرسول صلى الله عليه وسلم:
أقد فرغت يا أبا لوليد؟
قال: نعم.
قال: فاسمع مني.
قال: أفعل.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بسم الله الرحمن الرحيم " حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آَيَاتُهُ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3)

بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (4) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (5) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6)"(1)

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ على عتبة ما جاء في سورة فصلت، بينما ألقى عتبة يديه خلف ظهره معتمدا عليهما وهو يستمع إلى هذه الآيات، حتى إذا انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة من هذه السورة، فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك

فرجع عتبة بن ربيعة إلى أصحابه في نادي قريش، فلاحظ سادة مكة أن ملامح وجه عتبة قد تغيرت بعد رجوعه من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به!

فلما جلس عتبة إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال: ورائي أني قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط،

---

(1) سورة فصلت: الآيات 1-6.

والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه!

قال عتبة بن ربيعة العبشمي: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

الإنسان بطبيعته يرى الأشياء بمرآته الخاصة، بمعنى أن الشيء الواحد قد يراه عدة أشخاص بعدة أشكال مختلفة وفقا لزاوية الرؤية الخاصة بكل واحد فيهم، أو وفقا للمعلومات المختلفة التي تتوفر لديهم، والتي تمثل انعكاسا للخبرات المكتسبة التي مر بها كل واحد منهم في حياته الخاصة، أو حتى وفقاً للثوابت التي يقدسها كل منهم بسبب بعد عقائدي خاص نابع عن إيمان حقيقي أو موروث ثقافي، لذلك أصبح لزاما على كل صاحب فكرة أو رسالة يريد نشرها أو توضيحها للآخرين أن يبينها لهم بكل أبعادها وتفاصيلها، وهذا ما يتطلب بالضرورة فتح باب للحوار معهم، والحوار لا يعني أن يكون الكلام أحادي الجانب، بل يعني أن يكون هناك أخذ ورد من الجانبين، ولكي يكون الحوار ناجحا ينبغي للمتحاورين أن يتحلوا بأدب الإنصات إلى الطرف الآخر، وهذا للأسف ما يفتقده كثير منا في هذه الأيام، فمن منا مستعد أن ينصت إلى الآخر

حتى يكمل فكرته؟ ومن منا يصبر على الإهانات التي قد توجه إليه أثناء الحوار حتى لا يغير مسار الحوار الأصلي ويحوله إلى مسألة شخصية؟ بل من منا يقبل من الأساس أن يدخل في حوار مع خصمه؟!
المشكلة التي تواجه كثير منا في هذا الزمان أن أدب الإنصات صار عملة نادرة بيننا، وأن أغلب حواراتنا مع بعضنا البعض تتحول إلى صراع للديكة يريد فيه كل طرف من
الأطراف تهميش الطرف الآخر حتى دون أن يترك له فرصة لشرح وجهة نظره، وهذا ناتج لاعتقاد الشخص أن وجهة نظره مقدسة وغير قابلة للنقاش، وأن اجتهاداته في القضايا المختلفة هي الحقيقة المطلقة التي لا غبار عليها، وأن وجهات النظر الأخرى لا تستحق الاستماع إليها، وحتى لو دخل في حوار مع الآخرين، فإنه يدخله بهدف إثبات فكرته، ليس من أجل الفكرة في حد ذاتها، وليس بهدف الوصول إلى الحق والكلمة السواء، بل من أجل إرضاء غروره الشخصي وإثبات وهمه الذي يعيشه
بأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا خلفه، ولكن المتأمل في سيرة سيد بني آدم محمد صلى الله عليه وسلم يجد أنه كان ينتهج أسلوب الحوار مع الجميع، وأنه كان ينصت إلى محاوريه بأدب ويتركهم حتى يكملوا حديثهم إليه، وأنه لم يكن ينصت فقط إلى وجهات النظر المختلفة الصادرة من أصحابه، بل كان ينصت أيضا إلى خصومه وأعدائه الذين كانوا يصفونه بالكذاب والمجنون والساحر، مع علمه أنه نبي الله، وأن دعوته هي دعوة الحق والهدى، وأنهم كانوا على الباطل والضلال، هذا كله لم
يمنعه من محاورتهم وا لإنصات إليهم حتى النهاية، قبل أن يرد عليهم بكل أدب، ويقارع الحجة بالحجة، ويفند الأفكار المغلوطة بالحقائق الثابتة، وفي نهاية الحوار يترك المجال لمحاوريه لاتخاذ قراراتهم الخاصة دون أن يفرضها هو عليهم، بعد أن يكون قد أوصل رسالته إليهم عن طريق الحوار.
انتهاج رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم لأدب الإنصات للآخر المختلف يحتم علينا كمسلمين أن نتعلم منه، فالإنصات للآخرين هوالطريق الأمثل للحوار الناجح، وهذا لا يعني بالضرورة أن الطرف الآخر سيقتنع مباشرة بوجهة نظرك لمجرد أنك أنصت إليه، ولكن الإنصات سيساعدك دون شك على فهم ما يريده الطرف الآخر، وبالتالي سيتيح لك المجال للتفكير بكلامه إما للاقتناع به أوالرد عليه، ومهما كان من يحاورك مستفزا ويفتقد للمنطق في حواره من وجهة نظرك، تذكر كيف كانت ردة فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم استفزازات أبي الوليد أثناء حواره معه، فقد قام ذلك الرجل باتهام الرسول صلى الله عليه وسلم في انتمائه الوطني، واتهمه بأنه يعمل على إثارة الفتنة في مجتمعه، وأنه ينشر أفكارا فاسدة وغريبة عن ثقافة شعبه، وشكك في قدراته العقلية وفي مسألة الوحي، ليتهمه ضمنا بأنه كاذب في دعوته، قبل أن يعرض عليه

رشوة مباشرة مقابل إيقاف دعوته، كل ذلك والرسول صلى الله عليه وسلم يصغي إليه ويستمع إلى كل هذه السخافات بكل هدوء وثبات انفعالي، دون أن يقاطعه ولو لمرة واحدة، ليقول له بعد أن تركه ينتهي من كلامه هذه العبارة التي تحمل كثيرا من معاني أدب الإنصات: "أقد فرغت يا أبا الوليد؟".
ولكن... هل يعني إنصات الإنسان للآخرين أن الاختلاف في وجهات النظر سيختفي مباشرة؟ أم أن اختلاف الآراء يمكن أن يظل قائما بالرغم من إنصات بعضنا لبعض؟ وما هي الطريقة التي ينبغي لنا التعامل بها في هذه الحالة؟

أدب الاختلاف

"قال الشافعي: الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة"(1)

بعد انتصار المسلمين في معركة الأحزاب مباشرة، أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يؤدب الخونة من بني قريظة الذين ثبتت عليهم تهمة الخيانة العظمى بتحالفهم مع الأعداء الذين خططوا لغزو المدينة، على الرغم من وجود اتفاقية دفاع مشترك عن المدينة وقعها معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في السابق، فتوجه الرسول صلى الله عليه وسلم نحو حصون بني قريظة، وقال لأصحابه: لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة، فلبس الصحابة صلى الله عليه وسلم سلاحهم، وتوجهوا نحو ديار بني قريظة، وعندما دخل على بعضهم وقت صلاة العصر دون أن يكونوا قد وصلوا ديار بني قريظة، اختلفوا في أمرهم، فاعتقدت

---

(1) سير أعلام النبلاء للذهبي.

مجموعة أنه وفقا لما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه لا يجوز لهم أن يصلوا العصر إلا بعد وصولهم إلى هدفهم عند بني قريظة، بينما قال البعض الآخر أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يقصد بكلامه ظاهر اللفظ بالنهي عن صلاة العصر إلا في ذلك المكان بالتحديد، وإنما قال ذلك مجازا لحث الصحابة بسرعة التحرك إلى بني قريظة، فصلى بعض الصحابة صلاة العصر في وقتها، وأجل بعضهم الصلاة إلى ما بعد مغيب الشمس، فذكر الصحابة بعد ذلك ما حدث معهم في الطريق لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصار البعض يترقب أي الفريقين قام بالفعل الصحيح، فكانت ردة فعل الرسول صلى الله عليه وسلم على غير ما توقعه الكثيرون!

ويحكي لنا الصحابي عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ما جرى بالضبط في ذلك اليوم:

"قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب: لايصلين أحد العصر إلا في بني قريظة، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم بل نصلي لم يرد منا ذلك، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يعنف واحدا منهم"(1) . لعل هذه القصة الجميلة التي حدثت في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم من بين أروع القصص التي يمكن للمسلمين الاستفادة منها، فهي توضح لنا درسا في غاية الأهمية ربما غاب عن كثير منا، فقد إختلف أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم باجتهاداتهم في ذلك اليوم،

مع الأخذ بعين الاعتبار أنهم كانوا يعيشون في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانوا ينهلون العلم من نفس النبع الصافي، ليس ذلك وحسب، بل إن حديث رسول الله في ذلك اليوم وصلهم مباشرة، أي أنهم كانوا متأكدين يقينا من صحته، ولكنهم وبالرغم من كل ذلك اختلفوا في تفسيره، والأجملمن ذلك كله أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما وصله أمر اختلافهم في معنى حديثه لم يعنف واحدا من الفريقين، وكأن الله سبحانه وتعالى قدر أن تحدث هذه القصة في زمن الصحابة والرسول صلى الله عليه وسلم

---

(1) صحيح البخاري

لكي نتعلم منها أن الأختلاف في الاجتهادات الفقهية كان وما زال وسيظل موجوداً بين المسلمين، فإذا كان الصحابة اختلفوا في اجتهاداتهم زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكيف بمن جاء بعدهم بعدة قرون؟! ونحن هنا عندما نتحدث عن الاختلاف فإننا نعني به الاختلاف السائغ في الأمور التي لم يثبت حكمها بدليل قطعي من كتاب أو سنة أو إجماع، فمن غير المعقول أن يتخذ البعض ما حدث بين الصحابة من إختلاف فقهي في القصة المذكورة لكي يغير المعلوم من الدين بالضرورة، أي أن يغير ثوابت هذا الدين، مثل أن يدعي الاجتهاد في فرضية الصلاة أو عدد ركعاتها، أو فرضية الصوم في شهر رمضان، مثل هذه الأمور لا مجال للاجتهاد فيها لأنها وبكل بساطة أمور ثبتت بالدليل وأجمع المسلمون على حكمها عبر مئات السنين، ولكن ما نقصده هو الاختلاف في الأمور الفرعية الفقهية، فقد اختلف الصحابة في مثل هذه الأمور، واختلف التابعون من بعدهم، واختلف علماء الأمة عبر الأزمنة المختلفة، ولكن من يقرأ ما ورد في كتب التاريخ والسير من كلام أئمة المسلمين عن مخالفيهم في الاجتهادات الفقهية، يجد نفسه أمام أناس في قمة الأدب والرقي الإنساني في فهمهم لطبيعة الاختلاف في الآراء الفقهية، ونذكر هنا بعض الأمثلة التي توضح هذا الأمر:

قال الصحابي أنس بن مالك رضي الله عنه
"كنا نسافر مع النبي صلى الله عليه وسلم فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطرعلي الصائم"(1).
قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله:
"لم يعبر الجسر إلى خراسان مثل إسحاق، وإن كان يخالفنا في أشياء، فإن الناس لم يزل يخالف بعضهم بعضا".
ويضيف: "ولو أنا كلما أخطأ إمام في اجتهاده في آحاد المسائل خطأ مغفوراً له قمنا عليه وبدعناه وهجرناه لما سلم معنا لا ابن نصر ولا ابن مندة ولا من هو

أكبر منهما، والله هو هادي الخلق إلى الحق وهو أرحم الراحمين، فنعوذ بالله من الهوى والفظاظة "(2).
قال الإمام الذهبي رحمه الله في ترجمته لبعض من كان يخالفهم

---

(1) صحيح البخاري.
(2) سير أعلام النبلاء للذهبي.

"مازال العلماء يختلفون ويتكلم العالم في العالم باجتهاده، وكل منهم معذور مأجور، ومن عاند أو خرق الإجماع فهو مأزور، وإلى الله ترجع الأمور".
"ولو أن كل من أخطأ في اجتهاده مع صحة إيمانه وتوخيه لاتباع الحق أهدرناه وبدعناه لقل من يسلم من الأئمة معنا .
"ثم إن الكبير من أئمة العلم إذا كثر صوابه وعلم تحريه للحق واتسع علمه وظهر ذكاؤه وعرف صلاحه وورعه واتباعه يغفر له زلله ولا نضلله ونطرحه وننسى محاسنه"(1).
قال ا لإمام الشافعي رحمه الله الذي وضع مذهبا غير مذهب أبي حنيفة رحمه الله:
" الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة"(2).

---

(1) سير أعلام النبلاء للذهبي.
(2) سير أعلام ا لنبلاه للذهبي.

قال الإمام القرطبي رحمه الله:

"كان أبو حنيفة وأصحابه والشافعي وغيرهم يصلون خلف أئمة أهل المدينة من المالكية وإن كانوا لا يقرأون البسملة لا سراً ولاجهرا"(1).
هذه الأمثلة القليلة التي ذكرناها تبين كيف أن أئمة المسلمين كانوا يختلفون مع بعضهم البعض منذ زمن النبوة في الاجتهادات الفقهية، ولكنهم وبالرغم من ذلك كانوا يتحلون بأدب الاختلاف، هذا الأدب الذي لم يستوعبه كثير منا في هذا الزمان للأسف، فالبعض منا يدعي اتباعه لنهج السلف الصالح، ولكن غاب عنه أن أئمة السلف الصالح لم يكفروا أو يفسقوا من لم يتفق مع اجتهاداتهم الفقهية من بقية المسلمين، كحال بعض التكفيريين في هذا الزمان، ولم يتهموا مخالفيهم في النوايا مثلما يفعل بعض من يدعي معرفته بما في قلوب

البشر في زماننا هذا، ولم يخونوا بعضهم البعض، ولم تكن ألفاظهم نابية في حديثهم عن مخالفيهم، بل على العكس من ذلك، كانوا في قمة

---

(1) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي.

الأدب في تعاملهم الحضاري مع بعضهم البعض، هؤلاء استوعبوا أدب الاختلاف الذي تعلموه من مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم، هذا المعلم المتواضع الذي أبدى تفهما شخصيا للاختلاف الفقهي في اجتهادات تلاميذه من الصحابة، على الرغم من أنه كان نبيا يتلقى الوحي الإلهي من فوق سبع سماوات!

ولكن ماذا عن الاختلاف مع غير المسلمين؟ وكيف كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتعامل معهم؟ وما هي طبيعة العلاقة التي حددها الإسلام في التعامل الإنساني مع غير المسلمين؟

التعايش الإنساني المشترك مع غير المسلمين

"إن النبي صلى الله عليه وسلم مرت به جنازة فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال: أليست نفسا؟"(1)

في العام العاشر من البعثة النبوية الموافق لعام 619 للميلاد، ازدادت وطأة المعاناة والآلام التي لاقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لدرجة سمي بها ذلك العام بعام الحزن، فقد توفيت فيه زوجته الوفية خديجة رضي الله عنها التي كانت بمثابة الحصن النفسي له، وقبل وفاتها بثلاثة أيام توفي عمه أبو طالب الذي كان بمثابة الحصن الدفاعي له، فقد كان أبو طالب يقود جبهة الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام أذى كفار

---

(1) صحيح البخاري.

قريش، واستطاع بما يملكه من مكانة عشائرية أن يقنع من لم يسلم من بني هاشم وبني المطلب بالدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بغض النظر عن اختلافهم معه في الدين، ولكن الوضع اختلف بعد موته، فقد انتقلت الزعامة الهاشمية إلى أخيه أبي لهب أكبر أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم ، فساير من لم يسلم من بني هاشم وبني المطلب أبا لهب في موقفه هذا ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠(1)

وفي هذا العام اشتد اضطهاد قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ووصلت الدعوة في مكة إلى طريق شبه مسدود بعد تضييق الخناق من قبل كفار قريش على دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم تناسى آلامه الشخصية التي مر في ذلك الوقت العصيب من حياته، فقد كان يدرك أن هناك ما هو أهم من ذلك، إنها رسالة الإسلام، الرسالة التي سيتوقف من بعدها إرسال الأنبياء إلى

---

(1) د. خطاب إسماعيل أحمد في مجلة كلية العلوم الإسلامية 2013جامعة الموصل.

الأبد، لذلك كان آخر نبي يبعث في التاريخ محمد صلى الله عليه وسلم يدرك أن اليأس غير مسموح به على الإطلاق، وأن هذه الرسالة التي اختير هو لها

لكي يقوم بتبليغها لبقية أهل الأرض ينبغي لها أن تستمر رغم كل الآلام والجراح التي كان يعانيها في داخله، لذلك قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الوقت قد حان للانتقال بدعوته إلى خارج مكة، وذلك بعد أن أصبح الخطر الذي يتهدد الدعوة في مكة خطرا وجوديا، فبدأ الرسول صلى الله عليه وسلم بالبحث عن مكان آخر ليكون ملاذا آمنا لدعوته العالمية، فوقع اختياره على مدينة تقع في الشرق من مدينة مكة تسمى مدينة الطائف، وقرر السفر إليها داعيا أهلها إلى الإسلام وطالبا النصرة والمنعة منهم، وقد كان اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم لهذه المدينة لتكون القاعدة الجديدة لدعوته اختيارا استراتيجيا مدروسا، فالطائف كانت ثاني أكبر مدينة في الجزيرة العربية بعد مكة مباشرة، وهي مدينة ذات موقع استراتيجي مميز قوية جغرافيا جعلها موقعها بأعالي
الجبال محصنة طبيعيا، وكما أن مكة تقع على أرضها الكعبة التي يقصدها العرب من كل مكان، فإن الطائف كانت تشرف على أكبر أسواق العرب على الإطلاق، سوق عكاظ، والذي كان يقصده العرب كل عام كأكبر فعالية اقتصادية في فترة الجاهلية، بالإضافة لذلك فقد كان سوق عكاظ يعتبر أكبر ملتقى أدبي وإعلامي في الجزيرة العربية، وكان كبار الأدباء والشعراء والمفكرين من مختلف القبائل العربية يتواجدون فيه كل عام للتبارز الأدبي والفكري، وبالتأكيد فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يخطط لعرض دعوته في هذا الملتقى الإعلامي الكبير عندما فكر باتخاذ الطائف كقاعدة جديدة ينطلق منها لنشر دعوته، إضافة لهذا كله فقد كانت قبيلة ثقيف التي تسكن الطائف من أكبر القبائل العربية وأقواها عسكريا، ولو تمكن الرسول صلى الله عليه وسلم من الحصول على النصرة والمنعة من هذه القبيلة القوية فإن ذلك سيكون رادعا قويا لقريش التي تحاول إيذاءه، خاصة في ظل التنافس السياسي والتجاري والثقافي بين المدينتين مكة والطائف. وبالرغم من بعد المسافة بين مكة والطائف والتي تقترب من 100 كيلومتر، وبالرغم من ارتفاع درجة الحرارة في ذلك الوقت من السنة، قرر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يسلك تلك المسافة ذهابا وإيابا مشياً على الأقدام، ولم يصطحب معه في تلك الرحلة الشاقة سوى زيد بن حارثة رضي الله عنه، ويبدو أن هذا الأمر كان مخططاً له من ناحية استراتيجية أيضا(1)، فالرسول صلى الله عليه وسلم يعلم أنه في تحركه إلى الطائف طلبا للنصرة والمنعة سيعتبر بمثابة الخائن لدى زعماء مكة، وبالتالي كانت السرية في هذا التحرك الجريء مطلوبة من ناحية أمنية، لذلك حرص على مغادرة مكة دون دابة لكي لا يلفت الانتباه لسفره، وحرص على اصطحاب زيد بن حارثة دون غيره من أصحابه، فزيد بن حارثة رضي الله عنه كان يعتبر في ذلك الوقت ابن الرسول صلى الله عليه وسلم بالتبني، وكان يطلق عليه في مكة زيد بن محمد، ورؤيته بجانب أبيه بالتبني في ذلك الوقت خارجين مشياً على الأقدام بعيدا عن مكة

لن يلفت انتباه أحد، وفي نفس الوقت سيكون وجوده مفيدا للرسول صلى الله عليه وسلم في تلك

---

(1) د. راغب السرجاني - موقع قصة الإسلام.

الرحلة الشاقة، لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم أستاذاً بما تحمله الكلمة من معنى في علم التخطيط الاستراتيجي!

ولكن سبحان الله. بالرغم من كل الاحتياطات لتي اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم في رحلة الطائف، وبالرغم من كل الاعتبارات المنطقية التي وضعها الرسول صلى الله عليه وسلم في حسبانه قبل القيام بهذه الرحلة، فإن الأمور في الطائف لم تسر بالشكل المطلوب، فقد توجه الرسول صلى الله عليه وسلم فور وصوله الطائف إلى نفر من زعماء الطائف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل بن عمرو الثقفي، ومسعود بن عمرو الثقفي، وحبيب بن عمرو الثقفي، فجلس إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعاهم إلى رسالة الإسلام، وطلب منهم النصرة والمنعة، فرفض هؤلاء الإخوة الثلاثة قبول دعوة الإسلام، ورفضوا نصرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ورفضوا حتى منعته، أي رفضوا مجرد منحه حق اللجوء لديهم، ولم يقتصر الأمر على رفضهم لطلب اللجوء الذي تقدم به الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل قاموا أيضا بالاستهزاء والسخرية منه بكلام جارح وأسلوب منحط لم يراعوا فيه مكانته كحفيد لسيد قريش السابق عبد المطلب بن هاشم، بل ولم يراعوا فيه حتى مشاعره كإنسان سافر إليهم مشيا على الأقدام طالباً للجوء بعد أن فقد أحباءه وضاقت به أرضه، وصاروا يستخفون في كلامهم برسول الله صلى الله عليه وسلم في محاولة لكسره، فأخبره عبد ياليل ساخرا بأنه سيمرط (1) ثياب الكعبة إن كان الله أرسله، وسأله مسعود باستهزاء: أما وجد الله أحدا يرسله غيرك؟ بينما قال أخاهما حبيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بكل وقاحة: لئن كنت رسولا من الله كما تقول، لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام! ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغي لي أن أكلمك! (2).

فلما وجد الرسول صلى الله عليه وسلم ما وجده من هؤلاء الإخوة الثلاثة طلب منهم طلبا إنسانيا بسيطا، وهو أن يكتموا خبر مجيئه إليهم، وذلك خوفا من أن تعلم قريش بذلك، وقال

---

(1) مرط: مزق.

(3) السيرة لابن هشام.

رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني"(2)، ولكنهم على العكس من ذلك قاموا بتسريب هذا الخبر إلى زعماء قريش، فصارت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم مهددة في حال عودته إلى مكة، ولم يكتف زعماء الطائف بكل ما فعلوه، بل قاموا بطرده من أرضهم وتحريض سفهائهم وصبيانهم عليه ليسبوه ويطاردوه وهم يلقون عليه الحجارة، فسالت الدماء من قدمي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحاول زيد بن حارثة رضي الله عنه حماية الرسول صلى الله عليه وسلم حتى شجت رأسه ونزف الدم منها، ولم يزل السفهاء يرمونهما بالحجارة حتى لجأ الرسول صلى الله عليه وسلم وزيد رضي الله عنه إلى بستان يقع على بعد ثلاثة أميال من الطائف، هذا البستان كان يملكه رجلان من أغنياء قريش الذين يملكون البساتين في الطائف المشهورة بالزراعة، وهما عتبة و شيبة ابني ربيعة، وقد قدر الله أن يكون هذان الرجلان في زيارة للبستان في تلك الأثناء، ويبدو أن حالة الرسول صلى الله عليه وسلم والدماء تسيل من قدميه كانت حالة صعبة للغاية، فلما رآه عتبة وشيبة على

---

(1) السيرة لابن هشام.

هذه الحالة تحركت له رحمهما، على الرغم من كونهما من زعماء الكفار في قريش، فدعوا غلاما لهما نصرانيا، يقال له عداس، فقالا له: خذ قطفا من هذا العنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه.

ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال له: كل!
فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يده، قال: باسم الله. ثم أكل.
فنظر عداس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد!
فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس، وما دينك؟
قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟
فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟!
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذاك أخي، كان نبيا، وأنا نبي.

فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه، فلاحظ ابنا ربيعة ما يدور بين عداس والرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك!
فلما جاءهما عداس، قالا له: ويلك يا عداس! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟
قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي!
قالا له: ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خيرمن دينه(1).
ثم تحرك الرسول صلى الله عليه وسلم راجعا إلى مكة مع زيد بن حارثة رضي الله عنه وقد علم أن قريشا وصلها خبر رحلته إلى

---

(1) السيرة لابن هشام

الطائف، وأدرك أن رجوعه إلى مكة دون سند عشائري يحميه من بطش زعماء مكة يعني تعريض نفسه وأصحابه للهلاك، وتعريض رسالته للضياع، فقرر أن يستخدم قانونا قبليا كان سائداً في جزيرة العرب في ذلك الوقت، هذا القانون العربي الأصيل كان يسمى "الإجارة"، ويقضي هذا القانون بتقديم شخص أو قبيلة النصرة والغوث والحماية إلى شخص آخر طالب للحماية أو قبيلة أخرى تطلب الحماية، فيكون الشخص المجار أو القبيلة المجارة في حماية الشخص المجير أو القبيلة المجيرة، وقد كان هذا القانون مقدسا لدى قبائل الجزيرة العربية، بحث كانت العرب تعتبر أي اعتداء على أي شخص مجار بمثابة اعتداء شخصي على الشخص المجير أو القبيلة المجيرة بأسرها، وقد كان يشترط على كل من يقبل بإجارة المستجير أن يحفظ حق الجوار ويدافع عنه بروحه، وإلا نزلت عليه السبة وازدراه العرب أبد الدهر، لذلك كان العرب مستعدين لخوض الحروب الطاحنة مقابل حماية من يجيرونه، وقد قامت بالفعل حروب عديدة بسبب هذا الأمر، لعل من أبرزها حرب البسوس الشهيرة التي استمرت لمدة أربعين عاما، فهذه الحرب لم تقم كما يعتقد البعض بسبب ناقة البسوس التي كان اسمها الحقيقي سعاد بنت منقذ التميمية، بل اشتعلت شرارة هذه الحرب بسبب أعمق من ذلك بكثير، وبالتحديد بسبب قضية حق الجوار التي كانت تعتبر قضية مقدسة عند العرب، لذلك قرر الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن فقد الحماية العشائرية من بني هاشم وبني المطلب أن يلجأ لهذا القانون السائد في بيئته العربية، فقبل أن يدخل مكة بعث برسالة من حدود مكة إلى أحد سادة مكة الأقوياء المعروف عنه الشهامة والمروءة، فقد كان هذا السيد القرشي أحد الستة الشجعان الذين رفضوا الظلم الذي قامت به قريش في حصارها لبني هاشم وبني المطلب، فقام هؤلاء الستة بنقض الصحيفة التي كتبها كفار قريش

وعلقوها في الكعبة، لينتهي بسببهم الحصار الظالم الذي فرض على بني هاشم وبني المطلب بسبب دفاعهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، هذا السيد القرشي الشهم كان يدعى المطعم بن عدي، والذي ما إن وصلته رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بطلب الدخول في جواره، حتى قام من مجلسه، ولبس سلاحه، ونادى بنيه، وقال لهم: تلبسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت، فإني قد أجرت محمدا.

فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زيد بن حارثة رضي الله عنه حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام مطعم بن عدي على راحلته، فنادى: يا معشر قريش، إني قد أجرت محمدا، فلا يهجه أحد منكم!

فانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الركن فاستلمه وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته، ومطعم بن عدي وأبناؤه مطيفون برسول الله صلى الله عليه وسلم (1).

المتأمل الجيد في قصة الرسول صلى الله عليه وسلم في رحلة الطائف سيجد عبراً ودروسا لا يتسع المقام هنا لحصرها جميعا، وإنما أردت التركيز على نقطة مهمة ربما تكون قد

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد.

غابت عن كثير من المسلمين في هذا الزمان بالتحديد، فبعيدا عن المجاملات والنفاق الذي يدعيه البعض، لا شك أن هناك اختلافا عقائديا بين المسلمين وغير المسلمين من الناحية الدينية، فلا ديننا هو دينهم، ولا عقيدتهم هي عقيدتنا، ونحن كفار بما يؤمنون به، وهم كفار بما نؤمن به نحن، وهذا الاختلاف الديني كان ولا يزال وسيبقى موجوداً أبد الدهر بين البشر، شئنا أم أبينا، ولكن هذا الاختلاف الديني لا يمنع من وجود مساحة كبيرة للتعايش السلمي المشترك القائم على احترام القيم الإنسانية النبيلة التي يجمع البشر بطبيعتهم الفطرية على احترامها، مثل العدل ومساعدة الضعفاء والنفور من الظلم وغير ذلك من القيم الإنسانية المشتركة التي لا يكاد يختلف عليها اثنان، وهذه المساحة الكبيرة من القيم المشتركة تسمح للبشر المختلفين دينيا بالتعاون فيما بينهم إنسانيا، فالمطعم بن عدي على سبيل المثال الذي استعد للدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بروحه لم يكن مسلما، ومع ذلك لم يمنع هذا الأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من التواصل معه في السابق وإقامة علاقات متبادلة قائمة على احترام القيم الإنسانية المشتركة بين الطرفين، فالمطعم أجار الرسول صلى الله عليه وسلم بعد عودته من الطائف، وقبل ذلك كان من بين النفر الستة الذين عملوا على إنهاء الحصار

على الرسول صلى الله عليه وسلم ومن بني هاشم وبني المطلب، وبالمناسبة هؤلاء الستة كانوا جميعا غير مسلمين، وقد يتوقع البعض أن رجلا بأخلاق المطعم بن عدي قد أسلم فيما بعد، ولكن هذا الأمر لم يحدث، فقد مات المطعم بن عدي كافرا دون أن يؤمن بدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن هذا الأمر لا يمنع أن نشيد بشهامته ونصرته للحق التي قد يفتقدها كثير من المسلمين في هذا الزمان، والرسول صلى الله عليه وسلم نفسه لم ينس شهامة المطعم بن عدي حتى بعد موته، فقد أوضح الرسول

· صلى الله عليه وسلم بعد ذلك(1) أن المطعم بن عدي لو حيا زمن معركة بدر وطلب الشفاعة في أسرى قريش لقام الرسول صلى الله عليه وسلم بإطلاق سراحهم، وذلك تكريما واحتراما لمواقف هذا الرجل الإنسانية، فحكاية المطعم بن عدي مع

____

(1) صحيح البخاري

الرسول صلى الله عليه وسلم ومدى الاحترام الإنساني المتبادل بين الرجلين المختلفين في الدين تبين لنا القصور الكبير الذي يعاني منه الكثيرون في استيعاب فقه التعامل مع غير المسلمين، فبعض المسلمين يضعون جميع البشر الذين لا ينتمون لدين الإسلام

في سلة واحدة، فيعتبرونهم جميعا أعداء ينبغي على المسلم الحقيقي بغضهم والتعامل معهم بقسوة وجفاء، وقد يصل التطرف بالبعض على الاعتقاد بجواز استباحة دمائهم،

فاستشهدوا بأحاديث نبوية لم يفهموا مفرداتها العربية الفصيحة ولم يدرسوا معناها الحقيقي، وآيات قرآنية لم يفقهوا أسباب نزولها ولا مناسبتها الزمانية والمكانية ولا دلالات سياق ا لآيات في القرآن الكريم، فأصبح جميع من لا ينتمي للإسلام في نظرهم يدخلون في خانة الأعداء، والمشكلة الكبرى التي تواجه هؤلاء ممن يعتقدون أنهم يتكلمون باسم دين محمد صلى الله عليه وسلم أنهم من الأساس لم يقرأوا سيرة نبيهم، وإن كانوا قد قرأوها فإنهم حتما لم يفهموها جيدا، ولو تفكروا قليلا في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم للاحظوا الفرق بين أبي لهب الذي حارب الرسول صلى الله عليه وسلم وأبي طالب الذي دافع عنه حتى آخر رمق في حياته، وبين أبي جهل الذي عذب المسلمين واضطهدهم، والمطعم بن عدي الذي استعد للموت دفاعا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين اليهودي حيي بن أخطب الذي تنقل بين القبائل لكي يكون تحالفا كبيرا من الأحزاب لقتال الرسول صلى الله عليه وسلم في معركة الخندق، واليهودي الآخر مخيريق(1) الذي أصر على القتال بنفسه مع الرسول صلى الله عليه وسلم في معركة أحد وقتل بعد أن أوصى بماله للرسول صلى الله عليه وسلم يتصرف به كيفما يشاء، هؤلاء جميعا لم

يكونوا مسلمين، فهل كان تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم معهم في التعاملات الإنسانية تعاملا واحدا؟!

القاعدة الثابتة التي حددها الله سبحانه وتعالى للتعامل الإنساني مع غير المسلمين هي ما جاء في كتابه الكريم:

لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبّ

---

(1) فتح الباري لابن رجب، شرح النووي على مسلم، البداية والنهاية لابن كثير، تاريخ الطبري، سير أعلام النبلاء للذهبي.

الْمُقْسِطِينَ (8) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9) (1)

ويفهم من هاتين الآيتين أنه ينبغي التفرقة في التعامل مع غير المسلمين وفقا لتصرفاتهم الإنسانية، فهناك الاستثناء في حالة المجرمين الذين يناصبون المسلمين العداء بقتال واضطهاد وغير ذلك من الأعمال العدائية، هؤلاء بطبيعة الحال يعتبرون أعداء وجب التصدي لهم، ولكن القاعدة العامة هي التعامل الإنساني مع غير المسلمين المسالمين، هؤلاء لا يدعونا الله فقط للتعايش معهم بسلام، بل يدعونا للتعامل معهم بالبر والقسط، وهذا مفهوم يفوق مفهوم التعايش السلمي المشترك بمراحل عديدة، فالقسط يعني العدالة، أي أن يكون المسلم عادلا في تعاملاته مع غير المسلمين، أما كلمة البر فهي من الكلمات الصغيرة التي تحمل معنى كبير للغاية في اللغة العربية، فكلمة البر تدل على الاتساع، مثل البر في مقابل البحر، وهي

---

(1) سورة الممتحنة الآيات 8-9.

الأرض الواسعة، والبر وتعني القمح، لكثرة فوائده ومنافعه، أما كلمة البر فتعني الاتساع في فعل الخير، والاتساع في الإحسان والصدق والفضل، وقال القاضي المهدي: "والبر: هو الصلة، وإسداء المعروف، والمبالغة في الإحسان"(1)، لذلك فإن كلمة البر لعظم دلالتها جاءت في أعظم العبادات بعد التوحيد، وهي بر الوالدين، لأن الوالدين سبب وجودنا في الدنيا، فأمر الله ببرهما، فجاء ذكر البر للدلالة على عظم مفهوم العلاقة الإنسانية المشتركة مع غير المسلمين في الحالة الطبيعية، وكأساس للعيش المشترك معهم.

ومن حكم تجربة شخصية ناتجة عن سنوات عشتها في بلدان عربية وغربية مختلفة، وبعد تحليل موضوعي لكثير من المواد التي تنقلها وسائل الإعلام العربية والأجنبية ساعدني فيه تخصصي الأكاديمي في مجال الإعلام، وجدت أن كثيرا من المسلمين، الذين يتحدثون بقسوة عن ما يسمونه "الغرب الكافر"، لم يقابلوا مواطنا غربيا واحدا في حياتهم، ولم يسافروا

---

(1) صيدالأفكار للقاضى لمهدي.

على الإطلاق إلى بلاد غربية، وإنما كونوا أحكامهم المسبقة عن الإنسان الغربي العادي نتيجة دون أن يطلعوا عن قرب على حياة وثقافة المجتمعات الغربية، أو نتيجة لسياسات حكومات غربية خاطئة تم تحميل مسؤوليتها المباشرة للمواطن الغربي العادي الذي قد يكون ضد هذه السياسات من الأساس، وكما أن الحضارة الغربية تحتوي على مظاهر سلبية لا تخفى على

أحد، فمن الإنصاف القول أيضا أن لدى الغرب كثيرا من الأمور الإيجابية التي لا ينبغي إنكارها، وهذا ما أكده شخصيا أحد أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو الصحابي الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنه.
فقد كان عمرو رضي الله عنه تاجرا يسافر كثيرا بين دول العالم، وهذا ما أدى إلى اتساع أفقه الفكري بطبيعة الحال، فقد أتاحت له هذه الأسفار فرصة ثمينة للتعرف على ثقافات وعادات الشعوب المختلفة، لذلك وصف عمرو بن العاص رضي الله عنه الغربيين، أو الروم كما كانوا يعرفون، بأنهم يتميزون بعدة خصال إيجابية: "إن فيهم لخصالا أربعا: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك"(1).
هذا الصحابي الحكيم كان منصفا في وصف الغربيين بهذه الخصال التي لا يخفى على أحد أنها مازالت تنطبق عليهم إلى يوم الناس هذا، فلم يمنع اختلاف عمرو بن العاص رضي الله عنه معهم في الدين أن ينكر عليهم صفاتهم الإيجابية، على عكس كثير من الدعاة المسلمين في هذا الزمان، الذين يعتبرون الغرب بالمجمل مجرد شياطين لا وجود لأي مظهر إيجابي في حضارتهم وثقافتهم!
نفس الشيء ينطبق أيضا على بعض الغربيين الذين يعتقدون أن العرب والمسلمين مجرد أشرار وإرهابيين يجب القضاء عليهم واستئصالهم عن بكرة أبيهم، هؤلاء كونوا صورتهم النمطية عن العرب والمسلمين إما من خلال أفعال بعض

---

(1) صحيح مسلم

المتطرفين الذين لا يمثلون صورة الإسلام الحقيقية، أو من خلال متابعتهم لوسائل إعلام محلية تسيطر عليها جهات معادية للإسلام والعرب، وقد عمل على شرح هذه الظاهرة بالتفصيل البروفيسور الأمريكي إدوارد سعيد، الذي ينتمي لعائلة من أصول فلسطينية لبنانية تنتمي للكنيسية اليونانية الأرثوذكسية، حيث أوضح البروفيسور إدوارد سعيد أن مثل هذا النوع من الفكر الغربي النمطي ناتج بالمقام الأول عن إرث استعماري استشراقي، وقد شرح البروفيسور إدوارد سعيد هذه الظاهرة بشكل مفصل في كتابه الأشهر "الاستشراق"(1)، لذلك فإن حل هذه المشكلة الثقافية الناتجة عن عدم معرفة الآخر المختلف يكمن في التواصل الحضاري والحوار الثقافي، فصحيح أن هناك من غير المسلمين من لديه كره مرضي تجاه الإسلام والمسلمين

---

(1) كتاب الاستشراق الذي أصدره البروفيسور إدوارد سعيد عام 78 19 م، تناول فيه كثيرا من المؤلفات والدراسات والمفاهيم الغربية عن الشرق الاوسط، والتي يجزم البروفيسور سعيد أنها السبب الرئيسي في الشرخ الحاصل بين الحضارة الغربية والشرق أوسطية، وقد أثار الكتاب بمجرد صدوره لأول مرة في الولايات المتحدة الكثير من الاهتمام العالمي، وتذاولته الكثير من المؤسسات الأكاديمية حول العالم بالنقاش، وترجم إلى العديد من اللغات الأجنبية، وصار يدرس في كثيرمن الجامعات الغربية الشهيرة.

المبادئ لا تتجزأ

"إنه لايقوم بدين الله إلامن حاطه من جميع جوانبه"(ا)

كان رسول اله صلى الله عليه وسلم في العام العاشر للهجرة يدرك تمام الإدراك أن مستقبل الدعوة في مكة صار مهدداً تهديدا وجوديا، وحتى بعد تمكنه من الحصول على حماية عشائرية من المطعم بن عدي، فإن شخصا بمثل فكر رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يغب عنه بالتأكيد أن هذه الحماية كانت مؤقتة، وأن المطعم بن عدي قد يموت في أي لحظة، وأن زعماء قريش قد يقررون قتله أو قتل المطعم بن عدي، فآل عبد مناف الذين ينتمي إليها المطعم بن عدي لن يستطيعوا التصدي لجميع بطون قبيلة قريش إذا ما اتخذ زعماء مكة قرارا جماعيا

---

(1) أخرجه ان حبان في الثقات، والبيهقي في الدلائل، وابن عساكر في تاريخ دمشق

الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي ورد عنه في أصح كتاب لدى المسلمين بعد القرآن الكريم أنه توفي ودرعه مرهونة عند يهودي(1)، أي أن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم كان حتى آخر أيامه في هذه الدنيا، يتواصل إنسانيا مع رجل على غير دينه، عاش تحت حكمه بسلام وحرية!

ولكن... ماذا حدث بعد رحلة الطائف ودخول الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في جوار المطعم بن عدي؟ وما هي الخطة الاستراتيجية الجديدة التي اتبعها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بعد رجوعه إلى مكة؟ وما هي تفاصيل العرض المغري الذي عرض على سيدنا محمد محمد صلى الله عليه وسلم في تلك السنة؟ وما هو سبب رفضه لهذا العرض؟ !

---

(1) صحيح البخاري

وخاصة الضعفاء منهم لم يتمكنوا جميعا من الحصول على حماية عشائرية تضمن سلامتهم من بطش كفار قريش، ورسول الله محمد صلى الله عليه وسلم كقائد عام للمسلمين كان يفكر بسلامة أصحابه الضعفاء المعرضين للخطر في أي وقت، لذلك بدأت
تحركات الرسول محمد صلى الله عليه وسلم تأخذ طابعا متسارعا للوصول إلى مخرج عاجل من هذه الأزمة الخطيرة، فبدأ باتباع استراتيجية جديدة في البحث عن موطئ قدم جديد لدعوته، فقرر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في العام العاشر للبعثة بالتوجه
إلى القبائل العربية لدعوتها إلى الإسلام في موسم الحج كعادته في السنوات الأخيرة، ولكنه في هذه السنة سيقوم لأول مرة بدعوة القبائل العربية القوية إلى نصرته وإيوائه هو وأصحابه، فانتظر موسم الحج الذي تسافر فيه القبائل العربية إلى مكة للحج والتجارة ليبدأ بدعوة تلك القبائل، واختار صديق عمره أبا بكر الصديق رضي الله عنه ليكون رفيقه الدائم أثناء جولاته الدعوية بين سادة العرب، وكان يرافقهما علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وفي بعض الأحيان كان يصاحبه عمه العباس رضي الله عنه، وفي أحيان أخرى كان يرافقه زيد بن حارثة رضي الله عنه، والواضح بذلك، وقد حدث هذا الأمر بالفعل عندما اجتمع زعماء قريش بعد ذلك التاريخ بثلاث سنوات تقريبا في دار الندوة لمناقشة الخطط المطروحة للتخلص من رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، ودار الندوة هي الدار التي كانت تعتبر بمثابة المقر التاريخي لاجتماعات زعماء قريش، ويرجع تاريخها إلى زمن سيد قريش الأسبق قصي بن كلاب أحد أجداد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو الشخص الذي أصبحت مكة في زمنه تحت قيادة قبيلة قريش بعد أن انتصر على قبيلة خزاعة التي كانت تحت تسيطر على مكة وشؤون البيت الحرام من قبل، وقصى بن كلاب هو الشخص الذي بنى دار الندوة، وفي اجتماعهم في هذه الدار توصل زعماء قريش إلى قرار جماعي بقتل الرسول محمد صلى الله عليه وسلم على أيدي مجموعة اغتيال مكونة من شبان ينتمون لعديد من قبائل قريش الفرعية، وذلك حتى يتفرق دمه بين القبائل فلا يتمكن بنو عبد مناف من محاربتهم جميعا(1)، ولكن الله أنجى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من تلك المؤامرة، إضافة لهذا كله فإن الصحابة رضي الله عنهم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم النصرة والمنعة منهم، وسيعمل الصديق رضي الله عنه ببعض التصرفات الذكية على تصوير نفسه كمساعد شخصي للرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك لمنح الاجتماعات التي ستعقد بين الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وزعماء تلك القبائل طابعا رسميا يتناسب مع طبيعة مثل

تلك اللقاءات القبلية، هذا كله قبل أن يبدأ الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بالتحدث إلى زعماء تلك القبائل، ويبدو أن اختيار الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لعلي والعباس وزيد رضي الله عنهم ليكونوا معه في هذه المهمة الدعوية كان له بعد استراتيجي كبير، فمرافقتهم للرسول محمد صلى الله عليه وسلم سيكون له أهمية خاصة في مجتمع بدوي ذي طبيعة عشائرية مثل مجتمع الجزيرة العربية الذي تقدر فيه منزلة الشخص بحسب مكانته الاجتماعية بين عشيرته، فوجود أشخاص من بني هاشم مثل ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه والعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه إضافة لوجود مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه الذي كان في ذلك الوقت ابنه بالتبني سيعطي انطباعا لدى القبائل العربية بأن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن وحيدا أو مطروداً من عائلته، لهذا السبب يبدو أن اختيارات الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لرفاقه في هذه المهمة لم تكن عشوائية، بل كانت اختيارات ذكية تدل على معرفة تامة لطبيعة المهمة، فاختياره لأبي بكر الصديق رضي الله عنه لهذه المهمة لم يكن فقط نتيجة للثقة التي كان الصديق رضي الله عنه يحظى بها عند رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، فبالرغم من الصداقة القديمة التي كانت تربط بين الرجلين، كان وجود أبي بكر الصديق رضي الله عنه مهما ومفيداً للغاية في ذلك الوقت بالتحديد، فالشيء الذي لا يعرفه الكثيرون منا أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان عالما كبيرا في تاريخ وأنساب القبائل العربية المختلفة، ووجوده في هذه المهمة سيساعد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم على معرفة الجوانب المختلفة للقبائل، وبالتالي اختيار الأسلوب المناسب لدعوة كل قبيلة بما يتناسب مع بعدها الثقافي وثقلها السياسي، وبالإضافة إلى دعوة جميع القبائل إلى الإسلام سيعمل أبو بكر الصديق رضي الله عنه على تحديد القبائل القوية منها والتي يمكن للرسول محمد صلى الله عليه وسلم طلب الحماية منها، وسيكون لأبي بكر رضي الله عنه -كما سنرى — دور عبقري في التمهيد لمساعدة القبائل على أخذ صورة أولية عن رسالة الإسلام وطلب مثل أبي جهل، ولكن من غيرالإنصاف تعميم هذه النظرة على الجميع، فهناك أيضا من غير المسلمين من هم على شاكلة المطعم بن عدي، من الشرفاء المستعدين للتضحية بأرواحهم من أجل نصرة المظلومين والقضايا العادلة، ولا ينبغي لنا بالمقابل أن ننكر أن هناك من المسلمين من شوه صورة الإسلام بأفعاله وأقواله وأفكاره المتطرفة، ولكن من الظلم تعميم تصرفات هؤلاء على أمة بأكملها، فتاريخنا المشرف يحتوي على سجل طويل من التعايش السلمي المشترك مع غير المسلمين، تشهد عليه جامعات ا لأندلس في قرون أوروبا المظلمة، وتشهد عليه كنائس القدس العتيقة التي حافظ على سلامتها المسلمون لمئات السنين، وتشهد عليه حارات اليهود في مدن شمال أفريقيا، وتشهد عليه سفن المسلمين التي أنقذتهم من محاكم التفتيش في إسبانيا

لتنقلهم إلى تلك المدن، وتشهد عليه كتب علماء الإغريق التي أحرقتها الكنيسة وترجمها المسلمون وأنقذوها من الاندثار، بعد أن أصبحت الترجمات العربية لبعض هذه الكتب هي المصادر الوحيدة المتبقية لهذا الإرث الإنساني، وفوق كل هذا تشهد عليه سيرة عظيمة لرسول الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كان يحرص على أن يرافقه أفراد من عائلته، حتى وإن كان العباس رضي الله عنه في ذلك الوقت ما يزال مشركا غير مؤمن بدعوته، فوجود هؤلاء الأشخاص سيعمل على ضرب الدعاية العكسية التي كان يقوم بها عم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الآخر أبو لهب بن عبد المطلب، والذي كان من يتبع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في السابق ليحرض القبائل العربية على عدم تصديق ابن أخيه، لذلك فقد كانت اختيارات الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لرفاقه في تلك المهمة الدعوية اختيارات مدروسة بعناية! وعلى مدار موسم الحج من السنة العاشرة للبعثة، تنقل الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بين كثير من القبائل العربية يعرض عليهم نفسه، كان من أبرزها قبيلة كندة، وقبيلة كلب، وقبيلة بني بكر بن وائل، وقبيلة بني حنيفة، وقبيلة بني عامر بن صعصعة، وقبيلة محارب بن خصفة، وقبيلة عبس، وقبيلة همدان، وقبيلة ربيعة، وقبيلة بني شيبان، وغيرها من القبائل العربية والأفراد الذين كان يقابلهم في موسم الحج، فكان رد زعماء تلك القبائل مختلفا، فمنهم من أساء الأدب في الرد، ومنهم من حاول ابتزاز الرسول محمد صلى الله عليه وسلم مقابل منحه الحماية، ومنهم من اعتذر بأدب لأسباب يرى أنها منطقية من وجهة نظره، وقد فصلت كتب التاريخ ما جرى من حوارات بين الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وزعماء تلك القبائل، ولكن لا يتسع المقام هنا لعرض تفاصيل كل تلك الحوارات، لذلك سنكتفي بعرض ما ورد عن قبيلتين اثنتين فقط، هاتان القبيلتان هما: قبيلة بني عامر بن صعصعة، وقبيلة بني شيبان.

بنو عامر بن صعصعة: قصد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم مضارب قبيلة بني عامر بن صعصعة عند سوق عكاظ، وقد كانت هناك أسباب مهمة دفعت الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لاختيار هذه القبيلة العربية لتكون من بين القبائل التي يطلب منها الحماية واللجوء، فقبيلة بني عامر بن صعصعة قبيلة مقاتلة وشجاعة، وكانت تعد من أكبر القبائل عددا، وهي واحدة من بين خمس قبائل عربية معروفة في الجزيرة العربية بأنها لم تخضع لأية قبيلة أخرى، ولم تتبع للملوك على الإطلاق، ولم تؤدي الجزية لأحد، مثلها في ذلك مثل قبيلة قريش، لذلك عرض الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الإسلام على سادة بني عامر بن صعصعة الذين التقاهم في موسم الحج، وطلب منهم النصرة والمنعة، وبعد أن سمع وجهاء القبيلة دعوة رسول الله محمد صلى

الله عليه وسلم ، قال أحد زعمائهم واسمه بيحرة بن فراس: "والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب!"(1).
ثم التفت بيحرة إلى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم سائلا إياه: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟
فرد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم: الأمر إلى الله، يضعه حيث يشاء.
فقال بيحرة: أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟! لا حاجة لنا بأمرك! وبعد أن رفض بنو عامر بن صعصعة طلب الرسول

---

(1) سيرة بن هشام

محمد صلى الله عليه وسلم رجعوا إلى ديارهم، وهناك أخبروا أحد شيوخهم الحكماء بما دار بينهم وبين الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد كان ذلك الشيخ طاعنا في السن حتى صار لا يقدر أن يوافي مع أفراد قبيلته المواسم، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم، فلما قدموا عليه ذلك العام، سألهم عما كان في موسمهم، فقالوا: جاءنا فتى من قريش ثم أحد بني عبد المطلب يزعم أنه نبي، يدعونا الى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا، فوضع الشيخ يديه على رأسه، ثم أخذ يلومهم على عدم قبول نصرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال لهم: يا بني عامر، هل لها من تلاف؟ هل لذناباها من مطلب؟(٢) والذي نفس فلان بيده، ما تقولها إسماعيلي قط(2)، وإنها لحق، فأين كان رأيكم و قتها ؟(3).
بنو شيبان: كان بنو شيبان من القبائل العربية القوية الكثيرة العدد التي تسكن في الركن الشمالي الشرقي من الجزيرة العربية

---

(1) مثل عربي يضرب لما فات، وأصله من ذنابي الطائر إذا أفلت من حباله، فطلبت الأخذ بذناباه، ويقترب من معنى "سبق السيف العذل".
(2) أي ما ادعى النبوة كاذبا أحد من بني إسماعيل.
(3) الباية والنهاية لابن كثير.

على حدود العراق، وكانت مساكنهم تقع في المنتصف بين قبائل الجزيرة العربية وحدود الإمبراطورية الساسانية الفارسية، وكانوا بحكم موقعهم الجغرافي الاستراتيجي ملتزمين بتعهدات سياسية مع إمبراطورية فارس، وقد كانت قبيلة بني شيبان من أكثر القبائل أدبا في الرد على دعوة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم في تلك السنة، فالذي يتضح مما ورد في مصادر تاريخية متعددة(1) من تفصيلات للحوار الذي جرى بين الرسول محمد صلى

الله عليه وسلم وبين هذه القبيلة العراقية، أن بني شيبان امتازوا بالتنظيم والخلق الرفيع، وهو الأمر الذي أشاد به الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بنفسه، إضافة لصحابته الذين شهدوا معه ذلك الحوار الذي أثار إعجابهم، (2) وتروي كتب التاريخ عبارة جميلة يصف فيها الصحابي الجليل علي بن أبي طالب رضي الله عنه إعجابه بهذه القبيلة، ويعبر فيها عن مدى تقديره لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: "انتهينا إلى مجلس عليه السكينة والوقار، وإذا

---

(1) الثقات لابن حبان، ودلائل النبوة للأصبهاني، ودلائل النبوة للبيهقي، والبداية والنهاية لابن كثير.

(2) د. خطاب إسماعيل أحمد في مجلة كلية العلوم الإسلامية 2013- جامعة الموصل.

مشايخ لهم أقدار وهيئات، فتقدم أبو بكر فسلم، وكان أبو بكر مقدما في كل خير"

فقال لهم أبو بكر رضي الله عنه: ممن القوم؟
قالوا: من بني شيبان بن ثعلبة.
فالتفت أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال: بأبي أنت وأمي، هؤلاء غرر الناس(1٢). وقد كان في القوم مفروق بن عمرو، وهانئ بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك، وكان أقرب القوم إلى أبي بكر مفروق بن عمرو، وكان مفروق بن عمرو قد غلب عليهم بيانا ولسانا، وكانت له غديرتان تسقطان على صدره(2)، فكان أدنى القوم مجلسا من أبي بكر.

فقال أبو بكر رضي الله عنه لمفروق بن عمرو: كيف العدد فيكم؟ فقال له مفروق: إنا لنزيد على ألف ولن تغلب ألف من قلة.
فقال أبو بكر رضي الله عنه: فكيف المنعة فيكم؟
فقال مفروق: علينا الجهد ولكل قوم جد.

---

(1) رجل أغر أي رجل شريف، وغرر الناس أي أشراف قومهم.
(2) غديرتان: خصلتان طويلتان من الشعر تلتويان

فقال أبو بكر رضي الله عنه: فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟
فقال مفروق: إنا أشد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح، والنصر من عندلله يديلنا مرة ويديل علينا، لعلك أخو قريش؟(1)
فقال أبو بكر رضي الله عنه: إن كان بلغكم أنه رسول الله فها هو هذا.
فقال مفروق: قد بلغنا أنه يذكر ذلك.
ثم التفت مفروق إلى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، فجلس وقام أبو بكر ترضي الله عنه يظل بثوبه رسول الله رضي الله عنه، ثم بدأ رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم يعرض لبني شيبان دعوته.
قال رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم: أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأني رسول الله، وأن تؤووني وتنصروني حتى أؤدي عن الله الذي أمرني به، فإن قريشا قد تظاهرت على أمر الله، وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن

---

(1) يقصد النبي القرشي محمد محمد صلى الله عليه وسلم ، بعد أن بدأت العرب تتناقل أخباره.

الحق، والله هو الغني الحميد.

قال له مفروق: وإلى ما تدعو أيضا يا أخا قريش؟

فتلا رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم قوله تعالى:

" قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153)" (1)

فقال له مفروق : وإلى ما تدعو أيضا يا أخا قريش؟ فوالله ما

---

(1) سورة الأنعام الآيات 151-153.

هذا من كلام أهل الأرض! ولو كان من كلامهم لعرفناه!

فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء في كتاب الله: " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90) "(1).

فقال له مفروق: دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك.

ثم أشار مفروق إلى هانئ بن قبيصة، وكأنه أحب أن يشركه في الكلام، فقال: وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا(2) فقال هانئ لرسول الله صلى الله عليه وسلم: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وصدقت قولك، وإني أرى إن تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر لم نتفكر في أمرك وننظر في عاقبة ما تدعو إليه زلة في الرأي وطيشة في العقل

---

(1) سورة النحل الآية 90.

(2) صاحب ديننا: المسؤول عن الشؤون الدينية فى القبيلة.

وقلة نظر في العاقبة، وإنما تكون الزلة مع العجلة، وإن من ورائنا قوما نكره أن نعقد عليهم عقدا، ولكن ترجع ونرجع وتنظر وننظر.

ثم أشار هانئ إلى المثنى بن حارثة، وكأنه أحب أن يشركه في الكلام، فقال: وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا(1).
فقال المثنى: قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك يا أخا قريش، وأعجبني ما تكلمت به، والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة، وتركنا ديننا واتباعنا إياك لمجلس جلسته إلينا، وإنا إنما نزلنا بين صريين(2) أحدهما اليمامة والآخر السماوة.
فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما هذان الصريان؟
فقال له المثنى: أما أحدهما فطفوف البر وأرض العرب، وأما الآخر فأرض فارس وأنهار كسرى، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثا ولا نؤوى محدثا(3)، ولعل هذا الأمر الذي تدعونا إليه مما تكره الملوك، فأما ما

---

(1) صاحب حربنا: المسؤول العسكري للقبيلة.
(2) صريين: أي تجمعين سكانين.
(3) أي لا نقوم بأمر جديد من شأنه إحداث تغييرات على الأوضاع المعتادة في المنطقة، ولا نقدم الإيواء لمن يقوم بذلك.

كان مما يلي بلاد العرب فذنب صاحبه مغفور وعذره مقبول، وأما ما كان يلي بلاد فارس فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول، فان أردت أن ننصرك ونمنعك مما يلي العرب فعلنا.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أسأتم الرد إذ أفصحتم بالصدق، إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه.
لقد كان بمقدور الرسول صلى الله عليه وسلم القبول بهذا العرض المغري الذي قدمه وجهاء قبيلة بني شيبان، والرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الأثناء كان في أمس الحاجة لأي مساعدة، فقد عاد منذ قليل من الطائف مطرودا والدماء تسيل من قدميه، و تخلى عنه أهله بنو هاشم، واضطهدته قبيلته قريش وضيقت عليه وعلى دعوته الخناق بشكل كبير للغاية، وصار وجوده في مكة محفوفاً بالمخاطر الحقيقية، وأصبحت الرسالة التي يريد تبليغها للبشر أجمعين مهددة تهديدا وجوديا، صارت مسألة بقاء الرسالة في خطر وهاهو الآن يحصل على عرض من إحدى أقوى القبائل العربية ليس فقط لإيوائه ومنحه الحرية لمواصلة دعوته الدينية، وليس فقط للدفاع عنه في وجه كفار قريش، بل أيضا عرضوا عليه الدفاع عنه أمام جميع قبائل جزيرة العرب بأسرها، إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقبل هذا العرض لكي يوضح لي ولك وللإنسانية بأسرها قاعدة أخلاقية مهمة، ألا وهي أن المبادئ لا تتجزأ، وأنه لا يمكن للإنسان الإيمان بمبدأ أخلاقي في مكان ما والتخلي عن نفس هذا

المبدأ في مكان آخر وفقاً لحاجاته ومخاوفه الشخصية، فعلى الرغم من مرونة الرسول صلى الله عليه وسلم في تعاملاته الحياتية، فإن مسألة المبادئ بالنسبة إليه كانت مسألة ثابتة لا تتغير مهما واجه من متاعب ومصاعب بسبب ثباته على مبادئه، فلم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم ميكيافليا(٢) لكي يقبل بتغيير أو تجزئة مبادئه، فالقارئ الجيد لسيرة محمد صلى الله عليه وسلم يجد أنه لا ينتمي ذلك النوع من البشر الذي يؤمن بالنفعية والواقعية السياسية التي لا تستند على أساس أخلاقي، ولم يكن من أتباع قاعدة "كل ما هو مفيد فهو ضروري بغض النظر عن الجانب

___

(1) الميكيافلية مبدأ نفعي ينسب للمفكر الإيطالي نيكولو دي برناردو دي ماكيافيلي الذي ظهر في فلورينسا في عصر النهضة وأوضح أفكاره السياسية في كتابه الشهير "الأمير" الذي وضع فيه أسس التنظير السياسي الواقعي.
الأخلاقي,)، لذلك اعتذر الرسول صلى الله عليه وسلم بأدب عن قبول عرض بني شيبان، ورفض من قبل الابتزاز الذي عرضه كبير قبيلة عامر بن صعصعة بأن يقدموا له الحماية في حياته مقابل انتقال الملك لهم بعد وفاته، وقد كان بمقدور الرسول صلى الله عليه وسلم القبول بهذا العرض ولو بشكل مؤقت على أمل أن يغيروا قناعاتهم النفعية تلك بعد إسلامهم، أو أن يرحل عنهم لاحقا بعد أن تستقر أوضاعه، ولكن مبادئ الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن لتتجزأ على الإطلاق، نفس الشيء ينطبق على بني شيبان، فقد كان بإمكان الرسول صلى الله عليه وسلم القبول بعرضهم بحمايته من العرب دون الفرس، فكان بإمكانه اللجوء أولا إلى قبيلة بني شيبان ومواصلة دعوته من هناك للقبائل العربية، وفي أسوأ الظروف كان بإمكانه الرحيل من أرضهم في حالة تهديد الفرس لهم، ولكنه رفض ذلك، على الرغم من أنه كان يعرف عن طريق الوحي أن أتباعه سينتصرون على جيوش إمبراطورية فارس الساسانية قريبا، وسيكون بنو شيبان من بين المسلمين الذين سيشهدون ذلك النصر، وقد ظهر ذلك من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم لوجهاء بني شيبان، فقبل أن يودعهم بشرهم بأنه سيأتي يوم قريب سينتصرون فيه على إمبراطورية فارس، وقد حدثت هذه البشارة النبوية بالفعل بعد سنوات قليلة، وأصبح المسؤول العسكري لقبيلة بني شيبان المثنى بن حارثة الشيباني بعد إسلامه أحد أشهر قادة الفتوحات الإسلامية في العراق وفارس، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم أراد من خلال اعتذاره عن قبول عرض بني شيبان إيصال رسالة مهمة للبشرية بشكل عام وللمسلمين بشكل خاص، هذه الرسالة تجسدت في تلك المقولة العجيبة التي اختصرت كثيرا من المعاني العميقة في كلماته القليلة: "إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه"

أي أن من أراد الالتزام بمبادئ هذا الدين، فعليه أن يعلم أن المبادئ لا تتجزأ، بمعنى أنه لا يمكن للمسلم اختيار جانب واحد دون غيره من جوانب الإسلام، وبمعنى آخر أنه لا يمكن للمسلم أخذ ما يريد من مبادئ الإسلام الثابتة وإهمال الجوانب الأخرى وفقا لأهوائه ورغباته، فلا يمكن للمسلم مثلا أن يلتزم بالعبادات مثل الصلاة والصوم وفي نفس الوقت يكون كاذبا ظالما متكبراً بحجة أنه أفضل من بقية البشر فقط لأنه يلتزم العبادات، نفس الشيء ينطبق على المسلم الذي يختار الجانب الأخلاقي دون غيره من الجوانب، فيختار أن يكون صادقا أميناً وفي نفس الوقت يهمل العبادات التي فرضها الله عليه بحجة أن هذا الدين دين أخلاق ومعاملات، فهذا الدين كما أوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقوم به إلا من حاطه من جميع جوانبه، وليس من جانب واحد فقط!

وسبحان الله...

مباشرة بعد أن اعتذر الرسول صلى الله عليه وسلم عن قبول عرض قبيلة بني شيبان، وفي نفس اليوم، وبعد توديعهم مباشرة، وجد الرسول صلى الله عليه وسلم مجموعة صغيرة تتكون من ستة أشخاص ينتمون إلى إحدى القبائل العربية، فذهب إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأجرى معهم حوارا قصيرا تغيرت بعده موازين القوى ليس فقط في مكة أو الجزيرة العربية، بل تغيرت بعد هذا الحوار القصير مع هؤلاء الستة موازين القوى في الكرة الأرضة بأسرها! فمن يكون هؤلاء الستة؟ وما هي تفاصيل الحوار الذي جرى بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبينهم؟ ولماذا كان هذا الحوار قصيرا؟ وما الذي جرى بعد ذلك؟ وهل كان اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم الذكي لرفاقه في مهمته الدعوية اختيارا استثنائيا؟ أم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يسير وفق منهجية معينة في اختياراته للأشخاص الذين يوكل إليهم المهمات الخاصة؟

المثابرة

" إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ "(٢)

بعد فترة قصيرة من وصولها إلى مكة، نفد الماء الذي كان لدى السيدة هاجر عليها السلام، فأحست بالعطش، وأخذ طفلها الرضيع إسماعيل عليه السلام يتلوى من شدة العطش، فلم تكن مكة في ذلك الوقت مدينة تجارية يقصدها الناس من كل أنحاء العالم كما هي الآن، بل كانت مجرد واد مجدب غير ذي زرع لا يسكنه أحد من الناس، فأخذت هاجر عليها السلام تبحث في مكة عن ماء أو رزق أو أي إنسان يغيثها قبل أن يفتك الجوع والعطش بها وبصغيرها، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا، فلم تر أحدا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت جبل المروة فقامت على الجبل، فنظرت هل ترى أحدا، فلم تر أحدا، فرجعت إلى الصفا من جديد، ثم مرة أخرى إلى المروة، وأخذت تسعى بين الصفا والمروة لسبع مرات دون أن ترى أحدا أو أثرا لحياة، وبعد ذلك سمعت صوتا، فذهبت إلى موضع الصوت، فوجدت الملك يخرج لها الماء من بين صخور مكة الصماء، فشربت وأرضعت وليدها، وأخذت تحوض الماء وتغرف منه، فتكونت بذلك "بئر زمزم" رمز الحياة الأولى في مكة، بعد ذلك مرت بالقرب من مكة قافلة لقبيلة من اليمن تسمى قبيلة "جرهم"، فرأوا طيرا يحوم فوق موضع في مكة، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء! لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء! بعد ذلك ذهبوا فوجدوا أم إسماعيل عند الماء، وعقدوا اتفاقا معها أن تسمح لهم بالتزود من ماء زمزم مقابل أجر لها، فتزودت هاجر بذلك بالغذاء لها ولطفلها، واستوطنت قبيلة جرهم اليمانية مكة لتكون أول قبيلة تسكنها (1).

---

(1) القصة بروايتها الأصلية وردت في صحيح البخاري.

الجميل في قصة السيدة هاجر عليها السلام أنها وبالرغم من وجودها وحيدة مع رضيعها في ذلك الوادي الصخري المجدب، لم تسلم نفسها لتكون ضحية

لليأس، فقد كانت مؤمنة بأن الله لن يضيعها، ولكنها لم تقف مكتوفة الأيدي تنتظر فرج الله، بل أخذت تسعى بكل ما أوتيت من قوة للبحث عن الحياة بين الصفا والمروة، وبالرغم من إدراكها من المحاولة الأولى أنه لا يبدو في الأفق أي مظهر من مظاهر الحياة، استمرت في سعيها ولم تتوقف، وكررت المحاولة، ليس لمرة أو مرتين، بل لسبع مرات متتالية، وبعد هذه المحاولات المستمرة التي ربما لو رآها بعض الناس تقوم بها لظنوا أنها محاولات عبثية لا جدوى منها، جاءها الفرج، والجميل أن الفرج جاءها بعد ذلك بطريقة أسهل وأعظم مما كات تتوقعه!

ولكن لماذا لم يبعث الله سبحانه وتعالى الملك ليخرج لهاجر ماء زمزم منذ البداية بدلا من تركها تسعى لسبع مرات بين الصفا والمروة؟

لعل الله أراد بذلك أن يعلمنا من خلال هذه المرأة المصرية البطلة أحد أهم المعاني في هذه الحياة، إنها المثابرة!

فالمثابرة هي أساس نجاح الإنسان، والناجحون في كافة المجالات ما هم سوى أشخاص مثابرين لا يتوقفون عن السعي وراء تحقيق أحلامهم، ولا ييأسون من أول فشل يعترضهم، بل يستمرون في محاولاتهم المتكررة دون كلل أو ملل، هؤلاء هم فقط الذين يصلون في نهاية الأمر إلى أهدافهم، بينما يفشل كثير غيرهم، ليس لأنهم أقل ذكاء أو قوة منهم، بل لأنهم افتقدوا لمعنى الاستمرارية والبقاء، افتقدوا لمعنى المثابرة!

والمتأمل في حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم سيجد أنه أمام إنسان مثابر بطبعه، لا يعرف معنى اليأس والانكسار، والأمثلة على ذلك في سيرته لا تكاد تحصى، ولكن يكفي أن يذكر الإنسان ما جرى له في عام الحزن، وكيف أنه استجمع قواه بعد وفاة زوجته الحبيبة وعمه الذي دافع عنه أمام الجميع، ليسافر إلى الطائف مشيا على الأقدام أملا في فرج لمحنته، ليصدم هناك بأناس لم يكتفوا فقط برد طلبه للجوء عندهم، بل حاولوا كسره من الداخل بالسخرية منه والحط من قدره، ليس ذلك فحسب، بل لوحق بعدها بالحجارة من شرذمة من السفهاء والصبية، ليرجع من حيث أتى، إلى وطنه الذي كانت فيه مراتع الصبا وملاعب الطفولة البريئة، ليكتشف أن هذا الوطن أصبح مغلقا في وجهه، ليدخله في نهاية الأمر بعد أن أصبح لاجئا في وطنه، ثم ينهض من جديد، ليتنقل بعدها دون توقف بين قبائل العرب يدعوهم لدعوة الإسلام ويعرض عليهم نفسه الشريفة، لترفضه القبيلة تلو الأخرى، ولكنه استمر في مسيرته، وواصل محاولاته دون يأس، ليس لمرة أو لمرتين أو لسبع مرات، بل دعا في تلك الأيام القليلة ما لا يقل عن عشرين قبيلة عربية، لم تقبله فيها أي قبيلة على الإطلاق، ورغم كل هذه المحاولات والأبواب المغلقة التي أوصدت في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ في مدة زمنية لم تتعد الأشهر القليلة، اختار رسول الله صلى الله عليه وسلم قرار الاستمرار، قرار المثابرة، قرار التحدي، لكي يثبت للإنسانية بأسرها بأن تغيير التاريخ

يحتاج للكثير من العمل والصمود في وجه العواصف العاتية التي تواجه الإنسان في مسيرة حياته.
فأحيانا تحيط بك الأحزان والآلام من كل جانب، فهل تجلس بعدها وحيدا لتندب حظك وتسلم نفسك للذكريات لكي تقضي عليك وتكتب نهاية قصتك الحزينة؟
أم تكون كمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، فتنهض من جديد، وتنفض عنك غبار الأحزان، لتواصل مسيرتك بعزيمة وإصرار وثبات؟
و أحيانا تفكر بفعل شيء فيه خير لك وخير لمن حولك، فتقوم بالتخطيط له تخطيطا محكما، وتأخذ جميع احتياطاتك في سبيل ذلك، وتعتقد أنك قمت بكل ما ينبغي القيام به لكي تصل إلى هدفك الذي خططت له، ولكن الأمور تجري عكس ما خططت له تماما! فماذا تفعل وقتها؟ هل تنسحب مباشرة وتسلم الراية متحججا أنك قد قمت بأقصى ما تقدر عليه؟ أم تكون قويا مثابرا كرسول الله صلى الله عليه وسلم وتحاول مرارا وتكرارا دون يأس أو إحباط؟
وأحيانا يحاول من حولك إيقاف تقدمك وكسرك وتمزيقك إربا إربا إن استطاعوا ذلك، فهل تقبل بأن تكون ضحية من ضحاياهم التي استسلمت لهم؟ أم تكون شديداً صلبا لا يكسر ولا يهزم ولا يعرف معنى للاستسلام، فتخيب آمالهم، وتستمر في طريقك رغما عن أنوفهم، تماما كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟
وسبحان الله!
بعد أن قام الرسول صلى الله عليه وسلم ببذل قصارى جهده في دعوة القبائل العربية، وبعد المحاولة العشرين، حدث نفس ذلك الأمر الذي يتكرر بشكل مذهل في التاريخ، لقد جاء الفرج بطريقة سريعة وسهلة وغير متوقعة!
ففي نفس موسم الحج للعام العاشر من البعثة، ومباشرة بعد اجتماعه مع وجهاء قبيلة شيبان العراقية، وجد الرسول صلى الله عليه وسلم مجموعة صغيرة من العرب تتكون من ستة أشخاص، هؤلاء الستة الذين سيتغير معهم مجرى تاريخ البشرية إلى الأبد هم(1):

---

(1) زاد المعاد لابن قيم لجوزية.

(1) أسعد بن زرارة زينه.رضي الله عنه
(2) عوف بن الحارث رضي الله عنه
(3) رافع بن مالك رضي الله عنه.
(4) قطبة بن عامر بن حديدة رضي الله عنه.
(5) عقبة ن عامر بن نابي رضي الله عنه.

(6) جابر بن عبد الله بن رئاب رجيتؤعنه.

هؤلاء النفر الستة كانوا ينتمون جميعا لقبيلة عربية تسمى "الخزرج"، وهي قبيلة تسكن في مدينة زراعية مشهورة بأشجار النخيل تقع على بعد خمسمائة كيلو متر تقريبا شمال مكة، هذه المدينة كانت تسمى "يثرب"، قبل أن يتغير اسمها بعد هجرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إليها إلى "المدينة"، ويروى أنها سميت بيثرب نسبة لأول من سكنها: وهو يثرب بن قاينة بن مهلائيل بن إرم بن عبيل بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام(1)، وقد كانت هناك بعض القبائل الأخرى التي كانت تشارك قبيلة الخزرج في هذه المدينة، منها قبيلة الأوس، وهم

---

(1) وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى- السمهودي.

أبناء عمومة الخزرج، وكانت بين هاتين القبيلتين من أبناء العمومة حروب طاحنة أوشكت على الفتك بهم، وكانت تعيش هناك أيضا قبيلة بني قريظة، وقبيلة بني القينقاع، وقبيلة بني النضير، وهذه القبائل الثلاث كانت تتكون من اليهود الذين استوطنوا هذه المدينة لأسباب سنشرحها لاحقا.
وبعد أن وجد الرسول صلى الله عليه وسلم هؤلاء النفر الستة توجه إليهم وسألهم:
من أنتم؟(1).
قالوا: نفر من الخزرج.
قال: أمن موالي(2) يهود؟
قالوا: نعم.
قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟
قالوا: بلى.
وبعد ذلك أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يشرح له دعوة

---

(1) سيرة ابن هشام.

(2) أي من حالفهم.

الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فما كان من هؤلاء النفر الستة إلا أن أسلموا مباشرة جميعا دون استثناء، فكان هؤلاء الستة النواة الأولى لمن سيعرفون بعد ذلك باسم شهير "الأنصار"، ولذلك لأنهم ناصروا الرسول صلى الله عليه وسلم وقدموا له النصرة والمنعة.

وبعد ذلك اللقاء السريع في موسم الحج من العام العاشر للبعثة، رجع النفر الستة إلى مدينتهم، فذكروا لقومهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم (1)، وفي موسم الحج من العام التالي جاء وفد من الأنصار يتكون من 12 رجلا، فبايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم ما عرف في التاريخ ب "بيعة العقبة الأولى"، وسميت بذلك لأنها كانت عند منطقة العقبة بمنى، وفي هذه البيعة لم يشترط الرسول صلى الله عليه وسلم على هذا الوفد النصرة والمنعة كما كان يفعل مع زعماء القبائل الكبيرة التي كان يقابلهم، والظاهر والله أعلم أن السبب في ذلك

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير.

يرجع لعدد المسلمين المحدود في المدينة، إضافة لأن غالبية من بيدهم القرار السياسي في المدينة من زعماء الأوس والخزرج لم يكونوا قد أسلموا بعد، لذلك لم يرد الرسول صلى الله عليه وسلم تحميل من أسلم من أهل المدينة مسؤولية لا طاقة لهم بها، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على عقلية قيادية سليمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالقائد العاقل لا يكلف أتباعه أمورا تفوق قدراتهم وإمكانياتهم، فإن فعل ذلك فهو يعرضهم للتهلكة، أو يشجعهم على عصيانه، لذلك اختار الرسول صلى الله عليه وسلم عوضا عن ذلك أن يطلب منهم البيعة على بعض الأمور العقائدية والأخلاقية التي يسهل على كل واحد منهم تطبيقها على نفسه، ويبدو أن الهدف الرئيس من هذه البيعة هو وضع حجر الأساس لبناء مجتمع مسلم سليم في المدينة، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا الوفد: "بايعوفي على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه" (1).

الشيء الآخر الملاحظ من هذه البيعة، أنها لا تحتوي على فعل أي أمر من الأوامر، بل كل ما فيها مجرد اجتناب لبعض النواهي، وهذا الأمر يدل أيضا على الاستراتيجية السليمة التي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتبعها في دعوته، فهؤلاء الأشخاص هم مسلمون جدد، أي أنهم بالكاد انتقلوا من مرحلة الكفر إلى مرحلة الإسلام، لذلك فإنه ليس من الحكمة أن يطالبوا بتنفيذ أوامر تتعلق بحياتهم الجديدة قبل نهيهم على ترك بعض الأمور المحرمة التي ربما كانوا يقومون بها في حياتهم السابقة، وهذه الحكمة النبوية تغيب للأسف عن كثير من الدعاة المسلمين في هذا الزمان، فيأمرون من أسلم جديدا أو

---

(1) صحح البخاري، صحيح سلم.

من بدأ بالالتزام دينيا أن ينفذوا مباشرة أمورا جديدة في حياتهم قبل أن يتخلصوا بداية من رواسب حياتهم السابقة!
وبعد أن رجع وفد الأنصار إلى المدينة، انتشر الإسلام بشكل كبير بين الأوس والخزرج، وأسلم أبرز زعماء هاتين القبيلتين، فأحس الأنصار رضي الله عنهم أنه ينبغي عليهم حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيوائه في مدينتهم، فسافر وفد كبير منهم إلى مكة بعد عام كامل من بيعة العقبة الأولى، والتقوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في موسم الحج في نفس المكان عند العقبة، وقد كان هذا الوفد الكبير مكونا من ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين، كان من بينهم الصحابي جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه، الذي يروي لنا ماذا حصل من أحداث في تلك المرحلة التاريخية المهمة:
"فقلنا: حتى متى نترك رسول الله صلى الله عليه وسلم يطرد في جبال مكة ويخاف؟ فرحل إليه منا سبعون رجلاً، حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين حتى توافينا، فقلنا: يا رسول الله، علام نبايعك؟ قال: على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى أن تقولوا في الله لاتأخذكم في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة، قال: فقمنا إليه، خبايعناه" (1).
وبذلك تمت البيعة التي عرفت في التاريخ ب "بيعة العقبة الثانية"، وهي البيعة التي بايع فيها الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصرة والمنعة، وبذلك حصل الرسول صلى الله عليه وسلم أخيرا على موطن جديد لرسالته، فهاجر إلى المدينة سرا بعد هذه البيعة بثلاثة أشهر، لتبدأ هناك مرحلة جديدة من عمر الدعوة المحمدية.

ولكن ما هو سر انتشار الإسلام بشكل سريع في المدينة بالتحديد؟ ولماذا استجاب الخزرجيون الستة الذين قابلهم

---

(1) رواه أحمد في مسنده

الرسول صلى الله عليه وسلم في عام الحزن مباشرة لدعوة الإسلام ؟

الإجابة تكن في كلمات قليلة ذكرها المؤرخ ابن اسحاق يشرح فيها مجريات لقاء الرسول صلى الله عليه وسلم مع هؤلاء الستة (1):
فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن وكان مما صنع الله بهم في الإسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا قد غزوهم ببلادهم فكانوا إذا كان بنهم شيئ قالوا لهم : إن نبيا مبعوث الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض : يا قوم تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه

---

(1) سيرة ابن هشام

ما عرض عليهم من الإسلام، وقالو إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، وتعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا".

ومن هذا الكلام، ومن بعض الدلائل التاريخية الأخرى، يمكن لنا أن نفهم أن سر استجابة هؤلاء النفر الستة يكمن في بعض العوامل:

العامل الأول: اليهود!

قد يعجب البعض أن يهود يثرب لم يكونوا فقط أهم عنصر عمل على تقبل هؤلاء الستة للإسلام بسرعة، بل كانوا أيضا سببا رئيسا لسرعة تقبل قبيلتي الأوس والخزرج لرسالة الإسلام، فلقد كان اليهود يعلمون أن هناك نبيا سيخرج في نهاية الزمان، وكانوا يكثرون من ذكره أمام جيرانهم من الأوس والخزرج، ووصل الأمر بهم بأنهم كانوا يهددونهم باتباع ذلك النبي ويتوعدونهم بأنهم سيعملون بعد ذلك على قتلهم قتل إرم وعاد، وقبيلة عاد قبيلة من العرب البائدة التي تمت إبادتها عن بكرة أبيها، فكان يهود يثرب بذلك يهددون الأوس والخزرج بحرب إبادة جماعية بعد خروج النبي الذي ينتظرونه ليتبعوه، فلما اجتمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخزرجيين الستة وأخبرهم بأنه نبي، أدركوا مباشرة أنه هو نفسه ذلك النبي الذي كان اليهود يخبروهم عنه، وقال بعضهم لبعض: "يا قوم، تعلمون والله إنه للنبي الذي تدعوكم به اليهود، فلا تسبقنكم إليه"، أي أنهم كانوا حريصين على اتباع النبي صلى الله عليه وسلم قبل اليهود الذين للمفارقات التاريخية العجيبة لم يتبعوه على الرغم من انتظارهم له، لذلك كان الأنصار من أسرع الناس في دخول الإسلام.

ولكن كيف علم اليهود بخروج الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ ولماذا استوطنوا ببلدة يثرب وما حولها من بلدات مثل خيبر وتيماء؟!

الحقيقة أن اليهود كانوا ينتظرون نبي آخر الزمان في تلك المنطقة الجغرافية بالتحديد لعلمهم من خلال كتبهم بأن نبي آخر الزمان سيهاجر قريبا إلى إحدى تلك البلدات، ويؤكد هذا الأمر ما ورد في قصة الصحابي سلمان الفارسي رضي الله عنه أن صاحب عمورية، الذي يبدو من كلامه أنه كان على دين المسيح التوحيدي، أوصى تلميذه سلمان رضي الله عنه قبل مماته أن يسافر إلى بلاد العرب لمقابلة نبي آخر الزمان الذي حان أوان بعثته، صاحب عمورية ذكر لتلميذه سلمان رضي الله عنه أوصاف المدينة التي سيهاجر إليها هذا النبي: "أي بني، والله ما أعلمه بقي أحد على مثل ما كنا عليه آمرك أن تأتيه، ولكن قد أظلك زمان نبي يبعث من الحرم، مهاجره بين حرتين إلى أرض سبخة ذات نخل، وإن فيه علامات لا تخفى، بين كتفيه خاتم النبوة، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، فإن استطعت أن تخلص إلى تلك البلاد فافعل، فإنه قد أظلك زمانه(1)

---

(1) فتح الباري لابن حجر العسقلاني.

لذلك ما إن رأى سلمان الفارسي مدينة يثرب وتفحص جغرافيتها ولاحظ نخيلها الكثير، حتى أدرك مباشرة أنها هي المدينة التي أخبره عنها أستاذه في عمورية، ويبدو أن اليهود كانوا يشكون في عدة مدن يكثر فيها النخيل يحتمل أن تكون هي المدينة المقصودة في النبوءات التي وردت في كتبهم، لذلك تركز اليهود في الحجاز في يثرب، وخيبر، وتيماء، وهي مدن مشهورة بوفرة أشجار النخيل فيها.

ولكن ماذا ورد بالتحديد في التوراة والإنجيل من نبوءات عن هجرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ؟

لا نعرف بالتحديد تفاصيل تلك النبوءات الكاملة، ولذلك لسبب بسيط، وهو أن التوراة والإنجيل ككتابين مستقلين لم يعد لهما وجود من الأساس، كل ما تبقى من هذين الكتابين هي بعض الكتابات التي حفظت من الوحي الأصلي والموجودة في "العهد القديم، و"العهد الجديد " اللذين يكونان "الكتاب المقدس" المعروف ب "البايبل" ، وهي كلمة إغريقية تعني "الكتب"، ولذلك يطلق على المكتبة العامة في بعض لغات العالم "بيبليوتيك" أو "بيبليوتيكا"، المشكلة أن هذا الكتابات تم تدوينها من أشخاص مجهولين كثر على مدى سنوات طويلة وبعد مئات السنوات من موت موسى عليه السلام ورفع المسيح عليه السلام، فتمت إضافة الكثير من التاريخ المروي والقصص والحكايات التي لا علاقة لها بالوحي الأصلي الذي يتم تغييره بشكل دائم إما

عن قصد أو غير قصد بسبب الترجمات المختلفة أو بسبب الزمن، لذلك
يصعب إيجاد كل ما كتب عن نبوءات تخص النبي محمد صلى الله عليه وسلم ،
ولكن بالرجوع إلى الكتاب المقدس الموجود حاليا يمكننا أن نعثر على بعض
الدلائل المثيرة التي تشير إلى بعض تلك النبوءات: "وحي من جهة بلاد العرب.
في الوعر في بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين 13 . هاتوا ماء لملاقاة
العطشان يا سكان أرض تيماء وافوا الهارب بخبز14 فانهم من امام(1)
السيوف

---

(1) امام: الصحيح أن تكتب بالهمزة "أمام"، وتحتوي الترجمة العربية للكتاب المقدس على العديد من الأخطاء الإملائية والنحوية، وقد رأينا نقل النص دون تعديل كما وجدناه.

قد هربوا. من امام السيف المسلول ومن امام القوس المشدودة
ومن امام شدة الحرب. فانه هكذا قال لي السيد في مدة سنة كسنة
الاجير يفنى كل مجد قدارة (1) ".

وتيماء أرض تقع شمال المدينة المنورة التي كانت تعرف باسم يثرب، والمتمعن لهذه الكلمات يلاحظ أنها تتحدث عن الهجرة التي هاجر فيها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم والمسلمون خوفا من بطش قريش، وقيدار اسم أحد أبناء إسماعيل عليه السلام الذي كان يعيش في مكة، وهو أحد أجداد قريش، والواضح أن هذه الكلمات تتحدث عن حرب ستحدث "في مدة السنة" بعد الهجرة، وهي المدة التي حدثت بعدها معركة بدر الكبرى!

العامل الثاني: الحروب القبلية بين الأوس والخزرج!

من أهم العوامل التي عملت على سرعة تقبل سكان المدينة للإسلام وهو اسم لمعركة طاحنة وقعت بين أبناء العمومة من الأوس والخزرج بمكيدة من يهود يثرب قبل

---

(1) الكتاب المقدس "البابيل" - سفر أشعياء: الإصحاح 21

الإسلام بخمس سنوات فقط! قتل فيها أعظم زعمائهم وقادتهم الكبار، فأحس الأوس والخزرج أنهم بحاجة إلى رجل حكيم يوحد صفوفهم من جديد، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثابة المنقذ للأنصار.

العامل الثالث: الجذور اليمانية للأوس والخزرج!

لعل التركيبة السكانية لأفراد قبيلتي الأوس والخزرج لعبت دورا إضافيا في سهولة تقبلهم لدعوة الإسلام واستقبال الرسول صلى الله عليه وسلم مهاجرا إلى أرضهم، فالذي لا يعرفه الكثيرون عن الأنصار من هاتين القبيلتين أنهم

كانوا بالأصل أحفاداً لمهاجرين من اليمن، وبالتحديد من قبيلة الأزد اليمانية، وبالتأكيد فإن هذا الأمر خلق في ثقافتهم الجمعية تعاطفا إنسانيا مع المهاجرين والمضطهدين، ولا شك أنهم يمتلكون مرويات شعبية موروثة من أجدادهم تتحدث عن قضية الهجرة ومعنى أن يضطر الإنسان للهجرة من أرضه ومفارقة أهله، إضافة لذلك فإن العرب من أهل اليمن يمتازون برقة في القلوب يفتقد لها كثير من العرب العدنانيين الذين يمتازون بالشدة والصلابة في الطبع، وهذا ليس عيبا فيهم، وإنما هي الفروقات البشرية الناتجة عن اختلاف الموروثات الثقافية وتنوع الطبيعة الجغرافية والمناخية لسكان الجزيرة العربية، وأهل اليمن بحكم طبيعة بلادهم ومناخها من رعاة الغنم، بينما يمتاز سكان قريش على سبيل المثال برعي الإبل، ورعي الإبل يحتاج للشدة، بينما يحتاج رعي الغنم للحكمة والهدوء، ويمنحه وقتا للتأمل والتفكر، الأمر الذي يكسب راعي الغنم جوا من السكينة والوقار، لذلك "ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم"(1)، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم واصفا سكان اليمن الذين قدموا إليه بعد ذلك: "أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة وألين قلوبا، الإيمان يمان، والحكمة يمانية، والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل، والسكينة والوقار في أهل الغنم" (2).

كل هذه الأمور عملت على سرعة تقبل الأنصار للإسلام

---

(1) صحيح البخاري.
(2) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري

وجهوزيتهم لاستقبال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في أرضهم، وإضافة لهذا كله، حدث في تلك الأثناء أمر كان بمثابة النقطة الفاصلة في سرعة انتشار الإسلام في المدينة!

فبعد بيعة العقبة الأولى، طلب الأنصار من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث معهم شخصا يعلمهم الدين ويقرأ عليهم القرآن، فاختار الرسول صلى الله عليه وسلم لهذه المهمة شابا من أصحابه ليسافر إلى المدينة لتعليم أهلها الإسلام، فما أن وصل هذا الشاب القرشي إلى المدينة حتى أحدث فيها ثورة اجتماعية غيرت من موازين المعادلة في الجزيرة العربية!

فمن يكون ذلك الشاب القرشي؟ وما الذي قام به في المدينة؟ ولماذا وقع عليه اختيار رسول الله صلى الله عليه وسلم ليكون أول سفير للإسلام في التاريخ؟

الثبات

الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3)

من بين أوائل البشر الذين آمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم شاب من قبيلة تميم العربية اسمه خباب بن الأرت رضي الله عنه، وقد كان خباب رضي الله عنه يعيش في مكة بعد أن تم أسره من قبيلته صغيرا وعرضه في سوق العبيد، لتشتريه سيدة خزاعية من سكان مكة ليصبح عبدا لها، وبعد أن بعث الرسول صلى الله علي وسلم بدعوة الإسلام، جذبت هذه الدعوة الجديدة بما تحتويه من مبادئ للعدل والمساواة بين البشر خبابا رضي الله عنه، ولأنه كان ففيرا ووحيدا ويفتقد للدعم القبلي في مكة، اعتبر من بين المسلمين المستضعفين الذين لم يكن كفار قريش يحسبون

---

(1) سورة العنكبوت، الآيات 1-3.

لهم حسابا في مكة، فقاموا بتعذيبه تعذيبا شديدا لكي يترك دين الإسلام، فكانوا يوقدون النار ثم يسلقونه عليها، ثم يضعونه على الأرض، ويعتلي رجل صدره(٢)، وكانت مولاته تأخذ الحديدة المحماة فتضعها على رأسه(2)، هذا الأمر لم يترك ندوبا ظلت مرسومة على جسده وحسب، بل عملت على فقدان خباب رضي الله عنه لأجزاء من لحمه احترقت بالكامل نتيجة لعمليات التعذيب البشع التي كان يتعرض لها، وبالرغم من كل ذلك، رفض هذا الشاب الفقير ترك إيمانه بدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فاستمر على دينه، واستمرت قريش في تعذيبه هو ومن معه من المستضعفين، ويبدو أن الآلام الجسدية والنفسية قد اشتدت عليهم لدرجة لم تعد تحتمل، فذهبوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليشكوا له حالهم، فقالوا له: يا رسول الله، ألا تدعو لنا؟ ألا تستنصر لنا؟
فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد.
(2) أسد الغابة لابن الأثير

فيه فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم او عصب وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب
على غنمه ولكنكم تستعجلون"(1).

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم ما يصيب أصحابه من عذابات جسدية في شوارع مكة، وكان ألمه شديداً لما يتعرضون له، وكان أصحابه دائما نصب عينيه في عمله الدؤوب لإيجاد مخرج لهذا الواقع الصعب الذي يمر به المسلمون في مكة، ولكنه في نفس الوقت كان يخشى عليهم أن يتسلل اليأس إلى قلوبهم في لحظة من اللحظات، أو أن يفقدوا الأمل والإيمان في قضيتهم العادلة نتيجة للظلام والظلم الذي يرونه منتشرا حولهم، لذلك حرص الرسول صلى الله علي وسلم على تذكيرهم بأساليب التعذيب البشعة التي كان يتعرض لها المسلمون السابقون من أتباع من سبقه من الأنبياء، وتذكيرهم بثبات هؤلاء المسلمين بالرغم من كل ما تعرضوا له، وبعد ذلك ذكرهم بالمستقبل المشرق الذي ينتظر هذه الدعوة، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يريد بذلك ألا يترك المسلمون مجالا للكفار للنيل من إيمانهم قيد أنملة، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يريد بذلك التأكيد على مبدأ مهم ربما ينساه البعض مع مرور الأيام، إننا نتحدث عن الثبات، فمن أراد اتباع دين محمد صلى الله عليه وسلم ، فعليه أن يعلم أنه معرض للاختيار في ثباته، لكي يعلم الصادق من الكاذب، يقول الله عز وجل:" الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3)"(1)

فهناك كثير ممن يدعون انتماءهم للإسلام مستعدون لبيع دينهم بأرخص الأثمان، وهناك من يعيش حياته يتحدث باسم الدين، ويذكر للناس بشكل دائم قصص ثبات الصحابة والسلف الصالح، ولكنه عندما يتعرض لاختبار في ثباته، كأن تقدم إليه إغراءات مالية، أو أن يتعرض للتهديد من أي نوع،

---

(1)سورة العنكبوت، الآيات 1 -3.

يكتشف الناس أن كل ما كان يذكره من قصص عن الثبات كانت مجرد أوهام يبيعها على بسطاء الناس، ليسقط هو كالثمرة العفنة، بينما يبقى ذكر الثابتين على الحق خالدا عبر التاريخ، ولعل في قصة سحرة فرعون التي ذكرت في القرآن درسا في معنى الثبات، فهؤلاء السحرة عندما عرضوا خدماتهم على فرعون لم يكونوا دعاة مبدأ أو دين من الأساس، بل كانوا مجرد طالبي مال ودنيا، ولكنهم عندما

علموا صدق موسى عليه السلام آمنوا بالله حق إيمانه، وثبتوا على الحق رغم التهديدات المخيفة التي أطلقها الطاغية فرعون، وقالوا له بكل ثبات: " فافض ما أنت قاض "، كل هذا الإيمان وكل هذا الثبات وهم لم يركعوا لله ركعة في حياتهم، ولكنهم ضربوا بثباتهم أروع صور السمو الإنساني، ليحفظ الله ذكرهم في كتاب يتلى في المحاريب إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها:" فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آَمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70) قَالَ آَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آَذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آَمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73) "(1) .

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم قدوة لأصحابه في الثبات، فقد حاول كفار قريش كسر عزيمته وإيقاف مسيرة تقدمه باستخدام أساليب مختلفة، منها ما كان جسديا، ومنها ما كان نفسيا، فاتهموه بالكذب، وشككوا بقدراته العقلية، وأشاعوا عنه شائعات تهدف لتشويه سمعته، وحاصروه اجتماعيا، وحاربوه اقتصاديا، وعرضوا عليه المال والملك والنساء مقابل ترك دعوته، واعتدوا عليه جسديا في عدة مناسبات، وصاروا يسخرون منه بأساليب منحطة، واعتدوا على أقرب الناس إليه، ووصل الأمر بهم إلى حد التخطيط لتصفيته جسديا قبل الهجرة، كل ذلك والرسول الله

---

(1) سورة طه،الآيات 70-73.

صلى الله عليه وسلم ثابت كالجبال الراسخة، بالرغم من شراسة الحرب الظالمة التي شنها زعماء قريش عليه.

لذلك لم يكن غريباً على أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن يكونوا ثابتين مثل معلمهم، ومن بين هؤلاء الأصحاب الذين أربكوا زعماء قريش بثباتهم وإيمانهم الراسخ شاب اسمه مصعب بن عمير رضي الله عنه، هذا الشاب لم يكن فقيرا معدما، ولم يكن غريبا لا أهل له ولا سند، بل كان مصعب رضي الله عنه شابا وسيما مترفاً من أجمل وأغنى شباب مكة، وكان يلبس أفخر الملابس ويتطيب بأطيب العطور، فهو ينتمي لعائلة من أغنى عائلات مكة وأرقاها حسبا ونسبا، فمصعب بن عمير رضي الله عنه ينتمي لبني عبد الدار الذين يحملون شرف حمل مفتاح الكعبة ويتولون مسؤولية سدانتها، فقد قسمت قريش شؤون مكة في الجاهلية بين بطونها، فاختص بنو عبد الدار

بمهمة سدانة الكعبة، والسدانة تعني العناية بالكعبة والقيام بشؤونها من فتحها وإغلاقها وتنظيفها وغسلها وكسوتها وإصلاح هذه الكسوة إذا تمزقت واستقبال زوارها وكل ما يتعلق بذلك، وهذا الأمر أكسبهم شرفاً عظيما بين العرب، وأيضا اختص بنو عبد الدار بمسؤولية القيام بدار الندوة التي كانت بمثابة مجلس الشيوخ لزعماء مكة، إضافة لهذا كله كان بنو عبد الدار هم حملة لواء قريش في حروبها، لذلك فإن قريشا بعد أن علمت بإسلام مصعب رضي الله عن لم تجرأ على تعذيبه كما فعلت مع المستضعفين من سكان مكة الذين لا يملكون قبيلة تحميهم من بطش الكفار، وعوضا عن ذلك مارست عليه أمه ضغوطات نفسية كبيرة، وبعد ذلك تم حبسه وتوثيقه لرده عن دينه الذي اختاره لنفسه، ولكن مصعبا رضي الله عنه استمر على موقفه بكل ثبات، ورفض أن يترك دين الإسلام، وبعد ذلك استطاع مصعب بن عامر رضي الله عنه الهرب من محبسه، وهاجر إلى الحبشة مع المسلمين الذين لجأوا إليها هربا من ظلم قريش، قبل أن يعود مكة من جديد، ليختاره الرسول صلى الله عليه وسلم بعد بيعة العقبة الأولى ليسافر إلى المدينة ويعلم أهلها مبادئ الإسلام ويقرأ عليهم القرآن، فكان مصعب رضي الله عنه بذلك أول سفير في تاريخ الإسلام.

ولكن ما هي الأسباب التي جعلت الرسول صلى الله عليه وسلم يختار من أجلها مصعب بن عمير رضي الله عنه ليكون مبعوثه الخاص إلى المدينة ؟ ولماذا وقع الاختيار على مصعب رضي الله عنه دون غيره من الصحابة لهذه المهمة الخطيرة؟ !

لا نعرف بالتحديد ما كان يفكر به الرسول صلى الله عليه وسلم عندما اختار مصعب بن عمير رضي الله عنه لإرساله إلى المدينة، ولكن المتأمل في تحركات واختيارات الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته يجد أنها تتم وفق دراسة علمية محددة الأهداف، لذلك سنذكر هنا بعض الأمور التي ربما كانت من أسباب وقوع الاختيار على مصعب بن عمير رضي الله عنه بالتحديد:

1- الثبات: أكد مصعب بن عمير رضي الله عنه خلال سنوات إسلامه الأولى أنه ثابت الإيمان، وقد برهن على ذلك من خلال تمسكه بدينه بالرغم من الضغوطات النفسية التي كانت تمارسها عليه أمه، ومن خلال إصراره على التمسك بدينه على الرغم من حبسه وتوثيقه، ولا شك أن ثبات هذا الشاب الغني الذي كان بمثابة فتى قريش المدلل والذي اعتاد على رغد العيش كان من بين أهم المؤهلات التي رشحته لمهمة السفر إلى المدينة، فلو أن مصعبا رضي الله عنه كان شخصا مهزوزا ويفتقد للثبات الإيماني.

كان يمكن له في تلك الحالة أن يرتد عن دينه في المدينة، فيفتن بذلك المسلمين الجدد في دينهم، أو أن يستقل بالمدينة عن تبعيته لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن يفتن ببريق السلطة والشهرة، فيؤسس في المدينة نظاما سياسيا مستقلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وربما

يؤسس دينا جديدا كما فعل مسيلمة الكذاب بعد ذلك، وقد تكرر أمر تمرد وانشقاق السفراء والتابعين في التاريخ في حالات كثيرة لا يتسع المقام لذكرها، لذلك فإن ثبات مصعب بن عمير رضي الله عنه ضروريا للغاية في هذه المهمة الخطيرة.

2- الخبرة: كان مصعب بن عمير رضي الله عنه من بين المهاجرين المسلمين إلى الحبشة، ولا شك أن وجوده السابق في بلد أجنبية مثل الحبشة أكسبه خبرة في كيفية تعامل الأجنبي مع أهل البلاد الأصليين، الأمر الذي من شأنه تقليل إمكانية حدوث مشكلات ناتجة عن اختلاف الثقافات بين المهاجر والسكان الأصليين

3- الأسلوب: كان مصعب بن عمير رضي الله عنه بطبعه إنسانا رقيقا، دمث الخلق، حكيما في تعاملاته مع الآخرين، لطيفا في ألفاظه معهم، بشوش الوجه، حسن المعشر، وهذه الصفات ليست فقط مهمة، بل ضرورية لأي داعية يسعى للتواصل مع الناس لطرح ما لديه من أفكار، فالناس إذا ما وجدوا أن الداعية يتعامل معهم بقسوة وغلظة، فإنهم في الغالب سينفرون منه حتى وإن كانوا مقتنعين بدعوته، لذلك فإن اختيار شاب رقيق مثل مصعب بن عمير رضي الله عنه كان اختيارا موفقا للغاية، على الرغم من وجود من كان أكثر منه علما وصحبة لرسول الله رضي الله عنه من الذين لازموه في مكة ولم يهاجروا إلى الحبشة، فمثل هذه المهمات الدعوية تحتاج بالأساس إلى داعية يتميز بالرقة والحكمة وبشاشة الوجه.

4- نسبه وحسبه: انتماء مصعب بن عمير رضي الله عنه لبني عبد الدار سيكون عاملا مساعدا للغاية في مهمته الجديدة في المدينة، فبالرغم من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفرق بين الناس على حسب انتماءاتهم القبلية والعرقية، إلا أنه في نفس الوقت كان إنسانا عاقلا يرى الواقع الذي يعيش فيه والبيئة التي تحيط به، فالعرب بطبيعتهم يمجدون الأشخاص ذوي النسب والحسب، ووجود شاب شريف من عائلة قرشية كبيرة تشرف على بيت الله الحرام الذي تقدسه العرب سيسهل عليه مهمة دعوة الناس والتحدث مع كبراء القوم في المدينة، وهذا ما حصل بالفعل، فقد تمكن مصعب بن عمير رضي الله عنه من مقابلة سادة الأوس والخزرج والجلوس معهم في نفس المجلس ودعوتهم إلى الإسلام، ويمكن تخيل مجرد إمكانية حدوث هذا الأمر لو أن من تم إرساله إلى المدينة كان أحد المستضعفين المسلمين، ولا شك أن الرسول صلى الله عليه وسلم وضع في حسبانه هذه الاعتبارات الاجتماعية عند اختياره لمصعب بن عمير العبدري رضي الله عنه.

وبالفعل... فقد أظهر مصعب بن عمير رضي الله عنه كفاءة وبراعة فاقت التوقعات، فما إن وصل المدينة حتى بدأ بمهمته في تعليم المسلمين أمور دينهم، وامتدت نشاطاته لتشمل دعوة غير

المسلمين إلى الإسلام، وقد نزل مصعب رضي الله عنه في ضيافة الصحابي الأنصاري أسعد بن زرارة الخزرجي رضي الله عنه، الذي صار رفيقه في تحركاته لدعوة الناس إلى الإسلام، وفي يوم من الأيام، خرج مصعب بن عمير رضي الله عنه وأسعد بن زرارة في مهمة دعوية إلى حديقة تابعة لنفر من قبيلة الأوس، وقدر أن يتواجد في تلك الحديقة في ذلك الوقت سيدان من كبار سادة قبيلة الأوس، وهما أسيد بن حضير وسعد بن معاذ، وقد كانا في ذلك الوقت كافرين، والظاهر أن سعدا كان قد سمع بأمر ذلك الشاب القرشي الذي جاء من مكة ليغير دين قومه في المدينة، فأراد أن يطردهما من الحديقة، ولكنه امتنع عن ذلك لكون أسعد بن زرارة رضي الله عنه ابن خالته، فطلب من صاحبه أسيد بن حضير أن يقوم بهذه المهمة نيابة عنه، وقال له بغضب: لا أبا لك! انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدما.

فأخذ أسيد بن حضير حربته، وتوجه بغضب نحو مصعب بن عمير وأسعد بن زرارة رضي الله عنهما، فلما رآه أسعد رضي الله عنه متوجها نحوهما، أدرك أنها فرصة ثمينة لدعوة هذا الرجل السيد في قومه، فقال لمصعب رضي الله عنه: هذا سيد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه.
فلما اقترب أسيد بن حضير منهما قال لهما بصوت غاضب: ماجاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة!
فقال له مصعب رضي الله عنه: أو تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره!
فقال أسيد: أنصفت!
ثم ركز أسيد بن حضير حربته، وجلس إليهما يستمع، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فبدأت ملامح وجه أسيد بن حضير تتغير، وقد علق مصعب وأسعد على ذلك لاحقا بقولهما: "والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله! "
ثم قال أسيد بن حضير: ما أحسن هذا الكلام وأجمله، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟
فقالا له: تغتسل فتطهر و تطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين. وبعد أن أحس أسيد بن حضير رضي الله عنه بحلاوة الإيمان، أراد مباشرة أن يبدأ بالتحرك لنشر هذا الدين بين الناس، فقال لمصعب وأسعد رضتيلئنعنها: إن

ورائي رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ!
ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلا، قال لمن حوله: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم!
وقد كان أسيد بن حضير رضي الله عنه يفكر في حيلة يدفع من خلالها سعدا لكي يستمع إلى كلام مصعب رضي الله عنه ويستمع إلى القرآن، فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟
قال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسا، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حدثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك، ليخفروك! فقام سعد مغضبا مبادرا متخوفا على ابن خالته، وتناول الحربة، ثم خرج إلى الرجلين، فلما رآه أسعد بن زرارة رضي الله عنه متوجها نحوهما، قال لمصعب رضي الله عنه: أي مصعب، جاءك والله سيد من وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان!
فلما اقترب منهما سعد، رآهما مطمئنين، فأدرك أن أسيدا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتما، ثم قال لأسعد بن زرارة رضي الله عنه:
يا أبا أمامة، أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في دارينا بما نكره؟!
فقال له مصعب بن عمير رضي الله عنه: أوتقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمرا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره!
قال سعد: أنصفت!
ثم ركز الحربة وجلس يستمع إلى كلام مصعب رضي الله عنه فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، ووصف أسعد ومصعب رضي الله عنه لاحقا ما حصل مع سعد في ذلك الوقت: "فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، لإشراقه وتسهله! "
ثم قال لهما سعد: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟

قالا: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين.
فقام سعد بن معاذ رضي الله عنه فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته، فأقبل عامدا إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير، فلما رآه قومه مقبلا قالوا نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم!
فلما وقف عليهم قال لهم سعد رضي الله عنه:
يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟
قالوا: سيدنا وأوصلنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة.

قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله و رسوله!
فلم يمس في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما ومسلمة! (1)

---

(1) سيرة ابن هشام ، تاريخ الطبري ، البداية والنهاية لابن كثير

وبعد ذلك انتشر الإسلام بشكل كبير في بقية قبيلة الأوس، ويوما بعد يوم أخذت رسالة الإسلام تنتشر بشكل متسارع في جميع أرجاء المدينة على يدي مصعب بن عمير رضي الله عنه، فأقبل الناس في المدينة على دين الله، فكانت المدينة بعد أقل من عام من وصول مصعب رضي الله عنه مستعدة لاستقبال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ليخرج وفد كبير منها ويبايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة الثانية، التي مهدت لأعظم هجرة في تاريخ الإنسانية، الهجرة التي بدأت من بعدها أحداث فاصلة في تاريخ الأرض، بعد أن أثبت مصعب بن عمير رضي الله أن اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم له في هذه المهمة الخطيرة كان اختيارا في محله.
ولكن هل كان نجاح الرسول · صلى الله عليه وسلم في اختياره لمصعب بن عمير رضي الله عنه أمرا استثنائيا؟ أم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يتبع منهجية ثابتة في اختياره للأشخاص الذين توكل إليهم المهمات الخاصة؟ وإن كان الأمر كذلك

بالفعل، ما هي الأسس التي كان يتبعها الرسول صلى الله عليه وسلم في اختياراته؟

اختيار الشخص المناسب للمكان المناسب

"إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة"(1)
جاء الصحابي أبو ذر الغفاري رضي الله عنه ذات مرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله إن كانت هناك إمكانية بأن يوكل إليه الرسول صلى الله عليه وسلم وظيفة ذات مسؤولية، فقال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه: يا رسول الله، ألا تستعملني؟
فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده على منكبيه تلطفا وترفقا، وقال له:
"يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة

---

(1) صحيح البخاري

خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها"(1).
هذه الحكاية البسيطة التي رواها أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، تختصر بشكل بليغ المنهجية الثابتة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبعها في اختياراته للأشخاص الذين توكل إليهم المهمات القيادية المختلفة، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحرص على تعيين الشخص المناسب في المكان المناسب، وكان يحرص عند تعيين موظفيه على تحييد العامل العاطفي في اختياراته، فكانت كفاءة الشخص، ومناسبته لطبيعة المهمة، من أهم العوامل التي ينظر إليها الرسول صلى الله عليه وسلم عند اختياره للأشخاص المكلفين بأداء المهمات المختلفة، فبالرغم من حب الرسول صلى الله عليه وسلم الكبير لأبي ذر الغفاري رضي الله عنه، امتنع عن تعيينه بمنصب قيادي، وذلك لعدم مناسبته لهذا المنصب، والسبب في ذلك هو ضعف أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، وليس المقصود بالضعف هنا الضعف الجسدي، فقد كان أبو ذر الغفاري رضي الله عنه قوي البدن شجاعا، ولكن المقصود بالضعف هنا هو ضعف الرأي(1)، أي أن أبا ذر رضي الله عنه لم يكن يتميز بأنه صاحب رأي قوي، وهذا ليس عيبا يقلل من شأنه ومكانته العظيمة في تاريخ الإسلام، وإنما هي طبيعة البشر التي تختلف من شخص إلى آخر، فهناك القوي، وهناك الضعيف، وهناك الذكي، وهناك الأقل ذكاء، وهناك من تسيطر على قرارته العاطفة، وهناك من يحكم العقل في قراراته، والاختلاف بين البشر وطباعهم وقدراتهم سنة كونية، وأبو ذر الغفاري كان شخصا بسيطا من قبيلة غفار الأعرابية يحب الله ورسوله بشكل لا يوصف وتغلب على قراراته العاطفة الجياشة، وقد ظهر ذلك واضحا عند إسلامه مباشرة، فعندما

جاء أبو ذر الغفاري رضي الله عنه إلى مكة وأعلن إسلامه بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم ، طلب الرسول صلى الله عليه وسلم منه أن يرجع إلى بلده، ويكتم أمر إسلامه، وأن يرجع إلى المسلمين في مكة إذا بلغه بأن المسلمين صارت لهم القوة في مكة، ولكن أبا ذر رضي الله عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

(1) سير أعلام النبلاء لذهبي.

والذي بعثك بالحق، لأصرخن بها بين أظهرهم!
فجاء إلى المسجد الحرام وقريش فيه، فقال: يا معشر قريش، إنى أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.
فانقض عليه كفار قريش وأخذوا يضربونه ضربا كاد أن يقتله، قبل أن يتدخل العباس بن عبد المطلب ويخلصه من بطش قريش، بعد أن حذرهم بأن قوافل قريش التجارية تمر على موطن قبيلته غفار، العجيب أن أبا ذر الغفاري رضي الله عنه جاء في اليوم الثاني وكرر فعلته في المسجد الحرام، ويصف أبو ذر الغفاري ما حدث معه قائلا: "فلما أن أصبحت الغد رجعت، فقلت مثل ما قلت بالأمس، فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ، فصنع بي مثل ما صنع بالأمس، وأدركني العباس فأكب علي، وقال مثل مقالته بالأمس"(1).
هذا الحب الكبير للإسلام، والشجاعة العظيمة في مواجهة الكفار، لم يكونا كافيين بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لتعيين أبي ذر الغفاري رضي الله عنه في منصب قيادي، فحب الإسلام شيء، والكفاءة العملية اللازمة لأداء الوظائف المختلفة شيء آخر، والخلط بين الأمرين هو الخطأ الكبير التي يقع فيه الكثير من المسلمين في هذا الزمان، فيعتقدون أن التفاوت في الالتزام الديني بين الأشخاص هو العامل الأهم في تولي المناصب المختلفة، وهذا أمر مخالف لهدي النبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان يركز في تعييناته على مؤهلات الشخص ومدى جهوزيته لأداء المهمة المكلف بها، فقد كان أبو ذر الغفاري رضي الله عنه من أعظم الصحابة السابقين الأوائل للإسلام، وكان فضله في الإسلام يفوق فضل كثير من الصحابة، إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعينه على الإطلاق في أي منصب قيادي، بينما عين عمرو العاص رضي الله عنه كأمير على سرية ذات السلاسل بعد أيام قليلة فقط من إسلامه، وقد كان عمرو بن العاص رضي الله عنه في هذه السرية أميرا على عدد من كبير من عمالقة الصحابة من أمثال أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وغيرهما من كبار الصحابة الذين يفوقونه بلا شك بالفضل من الناحية الدينية، إلا أن المعيار الذي كان الرسول صلى الله عليه وسلم ينظر إليه في اختياراته هو معيار الكفاءة، فقد كان عمرو بن العاص رضي الله عنه مشهورا بين

العرب بالبراعة القيادية، والذكاء الحاد، وسرعة البديهة في اتخاذ القرارات الحاسمة، وهذه كلها مميزات فردية ينبغي وجودها في القائد الناجح، وقد أثبت عمرو بن العاص رضي الله عنه بالفعل أنه كان اختيارا موفقا من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد انتصر في تلك السرية بالرغم من قلة عدد المسلمين مقارنة بأعدائهم، وأظهر فيها براعة قيادية فائقة عندما رفض أن يشعل جنوده النار بالليل بالرغم من شدة البرد، فرد عمرو رضي الله عنه طلب الصحابة رضي الله عنه الذين كلموه ليسمح لهم بإيقاد النار، ووصل الأمر به أنه رد بشدة على طلب أبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي جاءه ليكلمه في هذا الأمر، ورفض عمرو بن العاص رضي الله عنه أيضا أن يتبع المسلمون الأعداء بعد هزيمتهم، وقد شكاه الصحابة بعد عودتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره عمرو بن العاص رضي الله عنه عن سبب قيامه بهذا الأمر:

يا رسول الله، إني كرهت أن آذن لهم أن يوقدوا نارا فيرى عدوهم قلتهم، وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد فيعطفوا عليهم!

فحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره(1).

وربما يعجب البعض عند علمه أن اختيارات الرسول صلى الله عليه وسلم للأشخاص لأداء المهام الوظيفية المهمة لم تقتصر فقط على الأشخاص الذين كانوا أقل منزلة من غيرهم من الناحية الدينية، بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم اختار شخصا كافرا في مهمة من أخطر المهمات على الإطلاق، فلقد وقع اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم على دليل كافر اسمه عبد الله بن أريقط ليكون دليله في هجرته من مكة إلى المدينة، وتوضح السيدة عائشة رضي الله عنها في روايتها عن تفاصيل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم سبب هذا الاختيار: "واستأجر النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلا من بني الديل، ثم من بني عبد بن عدي، هاديا خريتا

---

(1) صحيح ابن حبان

الخريت: الماهر بالهداية — قد غمس يمين حلف في آل العاص بن وائل، وهو على دين كفار قريش، فأمناه، فدفعا إليه راحلتيهما، ووعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، فأتاهما براحلتيهما صبيحة ليال ثلاث، فارتحلا(1)".

والواضح من كلام السيدة عائشة رضي الله عنها أن هذا الدليل الكافر كان متقنا لعمله، ماهرا في معرفته للطرق المختلفة، أمينا، عمليا يلتزم بمواعيده، فلم يمنع اختلاف الرسول صلى الله عليه وسلم معه في الدين أن يختاره ليكون دليله في هذه الرحلة المصيرية الخطيرة، وهذا إن دل على شيء فإنه

يدل على حرفية عالية من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم في اختياره للشخص المناسب في المكان المناسب.
وفيما يلي بعض الأمثلة القليلة التي تظهر المنهجية الثابتة التي اتبعها الرسول صلى الله عليه وسلم في اختياراته للأشخاص المكلفين بأداء المهمات الوظيفية المختلفة:

---

(1) صحيح البخاري.

أبو بكر الصديق رضي الله عنه: كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه بمثابة كبير المستشارين لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما يتميز به من رجاحة عقل وحسن رأي وحكمة وعلم بتاريخ الجزيرة العربية وتركيبتها الديموغرافية، وبالتأكيد فإن التفاهم الإنساني الناتج عن الصداقة القديمة التي ربطت أبا بكر الصديق رضي الله عنه بالرسول صلى الله عليه وسلم كان من بين العوامل التي عملت على اختياره من قبل الرسول رضي الله عنه ليكون رفيقه في رحلة الهجرة الشاقة، إضافة لذلك فإن دراسة أبي بكر الصديق رضي الله عنه لعلم التاريخ جعله الاختيار الأمثل لصحبة الرسول صلى الله عليه وسلم في تحركاته ادعوية بين القبائل العربية، فقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يعطي الرسول صلى الله عليه وسلم التقديرات التاريخية لكل قبيلة من القبائل العربية المستهدفة بالدعوة، ليتم تحديد الاستراتيجية الخاصة في دعوة كل قبيلة من تلك القبائل وفقا لما يتناسب مع ظروفها الاجتماعية وخلفياتها الثقافية والسياسية.
عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كان بمثابة المستشار الثاني للرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يمثل الجناح المقابل لجناح أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ففي الوقت الذي كان فيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه يميل للين في اتخاذ القرارات، كان عمر رضي الله عنه يميل للشدة، ووجود عمر رضي الله عنه بجانب أبي بكر رضي الله عنه سيساعد الرسول صلى الله عليه وسلم على الإلمام بالآراء المختلفة المتعلقة بسياسة الدولة.
عثمان بن عفان رضي الله عنه: وقع اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم على عثمان بن عفان رضي الله عنه ليكون مبعوث الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مكة قبل صلح الحديبية، وقد وقع الاختيار على عثمان رضي الله عنه بعد مشورة مع عمر رضي الله عنه الذي كان هو المرشح لتلك المهمة في بداية الأمر، وقد وقع الاختيار على عثمان رضي الله عنه لهذه المهمة الخطيرة لكونه ينتمي لبني عبد شمس الذين كانت لهم قوة كبيرة في مكة من شأنها

أن تمنعه من أي انتقام محتمل من زعماء قريش، على عكس عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي كان ينتمي لبني عدي بن كعب الذين لم تكن لهم قوة كافية في مكة كقوة بني عبد شمس.

علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كان علي رضي الله عنه شابا من أشجع وأقوى الصحابة، فاختاره الرسول صلى الله عليه وسلم في مهمات فدائية خطيرة وعمليات قتالية خاصة عالية المستوى، فاختاره لينام على فراشه ليلة الهجرة، واختاره ليكون أحد الفرسان الثلاثة الذين تقدموا للمبارزة في بداية غزوة بدر، واختاره لحمل لواء المسلمين في خيبر، ولخلافته في قيادة المدينة عندما غادرها الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك.

حذيفة بن اليمان رييهعه: كان حذيفة رضي الله عنه يتمتع بمهارات استخباراتية خاصة، فقد كان ماهرا بطرق جمع المعلومات وتحليلها، وكان يمتلك ثباتاً انفعاليا كبيرا يفتقد له كثير من العرب الذين تغلبهم العاطفة في أوقات كثيرة، وكانت لديه مقدرة فائقة على إحاطة المعلومات الخطيرة بسرية كبيرة، هذه الصفات أهلته ليكون بمثابة مديرا للاستخبارات الخاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أوكل إليه الرسول صلى الله عليه وسلم مهمة جمع المعلومات الاستخباراتية من قلب صفوف العدو في معركة الأحزاب، واستطاع حذيفة رضي الله عنه القيام بهذه المهمة بنجاح دون لفت انتباه العدو أو القيام بأي عمل انفعالي من شأنه إفشال تلك العملية، وقد أطلع الرسول صلى الله عليه وسلم حذيفة بن اليمان رضي الله عنه بأسرار خطيرة تتعلق بأسماء المنافقين المزروعين داخل الدولة، وقد أظهر حذيفة رضي الله عنه أن اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم له ليكون كاتم أسراره كان اختيارا موفقا، فقد احتفظ حذيفة بن اليمان بتلك الأسرار كما أمره الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يطلع بها أحدا حتى بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، والجدير بالذكر أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه كان من أهم أسباب النصر في معركة نهاوند المصيرية التي سقطت على إثرها إمبراطورية فارس الساسانية إلى الأبد، فقد قام حذيفة بن اليمان بخدعة استخباراتية في بداية المعركة أوهمت الفرس أن القيادة الإسلامية في تلك المعركة لم تصب بأذى، على الرغم من أن القائد العام للمسلمين النعمان بن مقرن المزني رضي الله عنه كان أول من سقط في تلك المعركة!

محمد بن مسلمة رضي الله عنه: كان من بين أفراد فرقة النخبة المكلفة بحراسة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان محمد بن مسلمة رضي الله عنه بمثابة قائد قوات التدخل السريع والمهمات الخاصة التابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان هذا الصحابي الجليل كما جاء في وصفه أسود اللون، قوي البنية، طويل القامة، عظيم الجسم، وكان يغلب عليه الطابع العسكري، فأهلته صفاته الجسمانية والذهنية ليقع عليه اختيار رسول الله صلى الله عليه وسلم في كثير من العمليات القتالية الخطيرة، فاختاره

الرسول صلى لله عليه وسلم ليكون قائد قوات الحرس الخاص المكونة من 50 صحابيا والموكل إليها حراسة معسكر المسلمين عند بياتهم قبل غزوة أحد(1)، وقد كان محمد بن مسلمة رضي الله عنه أحد الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد عندما دبت الفوضى في جيش المسلمين، وكان قائد المهمة السرية الخاصة التي أنهت خطر المجرم كعب بن الأشرف الذي كان يعتدي على نساء المدينة ويتعاون مع مشركي مكة ضد المسلمين في المدينة، وكان محمد بن مسلمة رضي الله عنه المبعوث الخاص الذي اختاره الرسول

---

(1) الرحيق المختوم للمباركفوري.

صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير بعد محاولتهم الفاشلة لاغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتم اختياره أيضا من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم ليكون قائد قوات نخبة الفرسان المكونة من 100 فارس أثناء توجه المسلمين لأداء عمرة القضاء(1)، وقد أوكل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى محمد بن مسلمة رضي الله عنه مهمة قيادة القوات الخاصة في مهمتين قتاليتين هما سرية القرطاء وسرية ذي القصة، وفي هذه السرية الأخيرة كان محمد بن مسلمة رضي الله عنه على وشك الموت، إلا أنه نجى من الموت بأعجوبة ليشارك مع الرسول صلى الله عليه وسلم في كل غزواته، باستثناء غزوة تبوك، وذلك لأنه الرسول صلى الله عليه وسلم أوكل إليه وقتها مهمة البقاء في المدينة لحراستها(2)، وحتى بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كان محمد بن مسلمة رضي الله عنه ضمن كتيبة المهمات الخاصة التي أرسلها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مصر بعد أن استعصى على جيش المسلمين هناك فتح حصن بابليون، فاستطاعت هذه الكتيبة القتالية الخاصة فور

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد.
(2) سير أعلامالنبلاء للذهبي.

وصولها تسلق أسوار حصن بابليون واقتحامه، وقد اختار الفاروق عمر رضي الله عنه محمد بن مسلمة رضي الله عنه ليكون مبعوثه الخاص إلى الولايات الإسلامية المختلفة في مهمات استقصائية هدفها التحقق من الشكاوى التي تصل إلى الخليفة من المواطنين في تلك البلدان(1) .

الأمثلة التي توضح عبقرية اختيارات الرسول صلى الله عليه وسلم للشخص المناسب في المكان المناسب أمثلة كثيرة لا يتسع المقام لحصرها جميعا في صفحات هذا الكتاب، وإنما أردت فقط من خلال ذكري لهذه الأمثلة القليلة لتي ذكرتها إلقاء الضوء على المنهجية العلمية المدروسة التي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتبعها في اختياراته، وبإمكان من يرغب في معرفة المزيد عن هذا الموضوع الرجوع إلى تاريخ ومميزات كل شخص عينه الرسول صلى الله عليه وسلم في وظيفة من الوظائف، عندها سيجد الإنسان نفسه أمام عقلية احترافية مبهرة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، لذلك لم يكن من المستغرب أن ينجح الرسول صلى الله عليه وسلم خلال سنوات قليلة فقط في بناء دولة قوية امتد نفوذها في كامل أرجاء الجزيرة

---

(1) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير.

العربية، هذه الدولة التي أنشأها الرسول صلى الله عليه وسلم كانت دولة مؤسسات يتم فيها تعيين الشخص المناسب في المكان المناسب، لذلك نجح الرسول صلى الله عليه وسلم في الاستفادة من اختصاصات وقدرات مواطني دولته على أكمل وجه، ولو أن اختيارات الرسول صلى الله عليه وسلم لمستشاريه وعماله كانت اختيارات عشوائية أو اختيارات قائمة على الواسطة أو المحسوبية، لما نجحت دعوته التي جاء بها، ولانهارت دولته كما انهارت كل الدول التي استبعدت أصحاب الكفاءات عن مركز اتخاذ القرارات، وعينت عوضا عنهم من لا يستحقون تلك المناصب التي أوكلت إليهم، لذلك حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على التحذير من خطورة هذا الأمر وعواقبه الوخيمة: "عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة. قالكيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة"(1).

---

(1) صحيح البخاري.

ولكن... في نفس الوقت الذي حذر فيه الرسول صلى الله عليه وسلم من تضييع الأمانة ووصفها بأنها من علامات الساعة، أخبر أن

هناك آمرا ضروريا يمكن القيام به آثناء قيام الساعة. فماهو هذا الشيء؟!

اختيار الشخص المناسب للمكان المناسب

"إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة"(1)
جاء الصحابي أبو ذر الغفاري رضي الله عنه ذات مرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله إن كانت هناك إمكانية بأن يوكل إليه الرسول صلى الله عليه وسلم وظيفة ذات مسؤولية، فقال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه: يا رسول الله، ألا تستعملني؟
فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده على منكبيه تلطفا وترفقا، وقال له: "يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة

---

(1) صحيح البخاري

خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها"(1).
هذه الحكاية البسيطة التي رواها أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، تختصر بشكل بليغ المنهجية الثابتة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبعها في اختياراته للأشخاص الذين توكل إليهم المهمات القيادية المختلفة، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحرص على تعيين الشخص المناسب في المكان المناسب، وكان يحرص عند تعيين موظفيه على تحييد العامل العاطفي في اختياراته، فكانت كفاءة الشخص، ومناسبته لطبيعة المهمة، من أهم العوامل التي ينظر إليها الرسول صلى الله عليه وسلم عند اختياره للأشخاص المكلفين بأداء المهمات المختلفة، فبالرغم من حب الرسول صلى الله عليه وسلم الكبير لأبي ذر الغفاري رضي الله عنه، امتنع عن تعيينه بمنصب قيادي، وذلك لعدم مناسبته لهذا المنصب، والسبب في ذلك هو ضعف أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، وليس المقصود بالضعف هنا الضعف الجسدي، فقد كان أبو ذر الغفاري رضي الله عنه قوي البدن شجاعا، ولكن المقصود بالضعف هنا هو ضعف الرأي(1)، أي أن أبا ذر رضي الله عنه لم يكن يتميز بأنه صاحب رأي قوي، وهذا ليس عيبا يقلل من شأنه ومكانته العظيمة في تاريخ الإسلام، وإنما هي طبيعة البشر التي تختلف من شخص إلى آخر، فهناك القوي، وهناك الضعيف، وهناك الذكي، وهناك الأقل ذكاء، وهناك من تسيطر على قرارته العاطفة، وهناك من يحكم العقل في قراراته، والاختلاف بين البشر وطباعهم وقدراتهم سنة كونية، وأبو ذر الغفاري كان شخصا بسيطا من قبيلة غفار الأعرابية يحب الله ورسوله بشكل لا يوصف وتغلب على قراراته العاطفة الجياشة، وقد ظهر ذلك واضحا عند إسلامه مباشرة، فعندما جاء أبو ذر الغفاري رضي الله عنه إلى مكة وأعلن إسلامه بين يدي الرسول

صلى الله عليه وسلم ، طلب الرسول صلى الله عليه وسلم منه أن يرجع إلى بلده، ويكتم أمر إسلامه، وأن يرجع إلى المسلمين في مكة إذا بلغه بأن المسلمين صارت لهم القوة في مكة، ولكن أبا ذر رضي الله عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

(1) سير أعلام النبلاء لذهبي.

والذي بعثك بالحق، لأصرخن بها بين أظهرهم!
فجاء إلى المسجد الحرام وقريش فيه، فقال: يا معشر قريش، إنى أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.
فانقض عليه كفار قريش وأخذوا يضربونه ضربا كاد أن يقتله، قبل أن يتدخل العباس بن عبد المطلب ويخلصه من بطش قريش، بعد أن حذرهم بأن قوافل قريش التجارية تمر على موطن قبيلته غفار، العجيب أن أبا ذر الغفاري رضي الله عنه جاء في اليوم الثاني وكرر فعلته في المسجد الحرام، ويصف أبو ذر الغفاري ما حدث معه قائلا: "فلما أن أصبحت الغد رجعت، فقلت مثل ما قلت بالأمس، فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ، فصنع بي مثل ما صنع بالأمس، وأدركني العباس فأكب علي، وقال مثل مقالته بالأمس"(1).
هذا الحب الكبير للإسلام، والشجاعة العظيمة في مواجهة الكفار، لم يكونا كافيين بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لتعيين أبي ذر الغفاري رضي الله عنه في منصب قيادي، فحب الإسلام شيء، والكفاءة العملية اللازمة لأداء الوظائف المختلفة شيء آخر، والخلط بين الأمرين هو الخطأ الكبير التي يقع فيه الكثير من المسلمين في هذا الزمان، فيعتقدون أن التفاوت في الالتزام الديني بين الأشخاص هو العامل الأهم في تولي المناصب المختلفة، وهذا أمر مخالف لهدي النبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان يركز في تعييناته على مؤهلات الشخص ومدى جهوزيته لأداء المهمة المكلف بها، فقد كان أبو ذر الغفاري رضي الله عنه من أعظم الصحابة السابقين الأوائل للإسلام، وكان فضله في الإسلام يفوق فضل كثير من الصحابة، إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعينه على الإطلاق في أي منصب قيادي، بينما عين عمرو العاص رضي الله عنه كأمير على سرية ذات السلاسل بعد أيام قليلة فقط من إسلامه، وقد كان عمرو بن العاص رضي الله عنه في هذه السرية أميرا على عدد من كبير من عمالقة الصحابة من أمثال أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وغيرهما من كبار الصحابة الذين يفوقونه بلا شك بالفضل من الناحية الدينية، إلا أن المعيار الذي كان الرسول صلى الله عليه وسلم ينظر إليه في اختياراته هو معيار الكفاءة، فقد كان عمرو بن العاص رضي الله عنه مشهورا بين العرب بالبراعة القيادية، والذكاء الحاد، وسرعة البديهة في اتخاذ القرارات الحاسمة، وهذه كلها مميزات فردية ينبغي وجودها في القائد الناجح، وقد أثبت

عمرو بن العاص رضي الله عنه بالفعل أنه كان اختيارا موفقا من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد انتصر في تلك السرية بالرغم من قلة عدد المسلمين مقارنة بأعدائهم، وأظهر فيها براعة قيادية فائقة عندما رفض أن يشعل جنوده النار بالليل بالرغم من شدة البرد، فرد عمرو رضي الله عنه طلب الصحابة رضي الله رضي الله عنه الذين كلموه ليسمح لهم بإيقاد النار، ووصل الأمر به أنه رد بشدة على طلب أبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي جاءه ليكلمه في هذا الأمر، ورفض عمرو بن العاص رضي الله عنه أيضا أن يتبع المسلمون الأعداء بعد هزيمتهم، وقد شكاه الصحابة بعد عودتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره عمرو بن العاص رضي الله عنه عن سبب قيامه بهذا الأمر:

يا رسول الله، إني كرهت أن آذن لهم أن يوقدوا نارا فيرى عدوهم قلتهم، وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد فيعطفوا عليهم!

فحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره(1).

وربما يعجب البعض عند علمه أن اختيارات الرسول صلى الله عليه وسلم للأشخاص لأداء المهام الوظيفية المهمة لم تقتصر فقط على الأشخاص الذين كانوا أقل منزلة من غيرهم من الناحية الدينية، بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم اختار شخصا كافرا في مهمة من أخطر المهمات على الإطلاق، فلقد وقع اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم على دليل كافر اسمه عبد الله بن أريقط ليكون دليله في هجرته من مكة إلى المدينة، وتوضح السيدة عائشة رضي الله عنها في روايتها عن تفاصيل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم سبب هذا الاختيار: "واستأجر النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلا من بني الديل، ثم من بني عبد بن عدي، هاديا خريتا

---

(1) صحيح ابن حبان

الخريت: الماهر بالهداية — قد غمس يمين حلف في آل العاص بن وائل، وهو على دين كفار قريش، فأمناه، فدفعا إليه راحلتيهما، ووعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، فأتاهما براحلتيهما صبيحة ليال ثلاث، فارتحلا(1)".

والواضح من كلام السيدة عائشة رضي الله عنها أن هذا الدليل الكافر كان متقنا لعمله، ماهرا في معرفته للطرق المختلفة، أمينا، عمليا يلتزم بمواعيده، فلم يمنع اختلاف الرسول صلى الله عليه وسلم معه في الدين أن يختاره ليكون دليله في هذه الرحلة المصيرية الخطيرة، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على حرفية عالية من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم في اختياره للشخص المناسب في المكان المناسب.

وفيما يلي بعض الأمثلة القليلة التي تظهر المنهجية الثابتة التي اتبعها الرسول صلى الله عليه وسلم في اختياراته للأشخاص المكلفين بأداء المهمات الوظيفية المختلفة:

---

(1) صحيح البخاري.

أبو بكر الصديق رضي الله عنه: كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه بمثابة كبير المستشارين لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما يتميز به من رجاحة عقل وحسن رأي وحكمة وعلم بتاريخ الجزيرة العربية وتركيبتها الديموغرافية، وبالتأكيد فإن التفاهم الإنساني الناتج عن الصداقة القديمة التي ربطت أبا بكر الصديق رضي الله عنه بالرسول صلى الله عليه وسلم كان من بين العوامل التي عملت على اختياره من قبل الرسول رضي الله عنه ليكون رفيقه في رحلة الهجرة الشاقة، إضافة لذلك فإن دراسة أبي بكر الصديق رضي الله عنه لعلم التاريخ جعله الاختيار الأمثل لصحبة الرسول صلى الله عليه وسلم في تحركاته ادعوية بين القبائل العربية، فقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يعطي الرسول صلى الله عليه وسلم التقديرات التاريخية لكل قبيلة من القبائل العربية المستهدفة بالدعوة، ليتم تحديد الاستراتيجية الخاصة في دعوة كل قبيلة من تلك القبائل وفقا لما يتناسب مع ظروفها الاجتماعية وخلفياتها الثقافية والسياسية.
عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كان بمثابة المستشار الثاني للرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يمثل الجناح المقابل لجناح أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ففي الوقت الذي كان فيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه يميل للين في اتخاذ القرارات، كان عمر رضي الله عنه يميل للشدة، ووجود عمر رضي الله عنه بجانب أبي بكر رضي الله عنه سيساعد الرسول صلى الله عليه وسلم على الإلمام بالآراء المختلفة المتعلقة بسياسة الدولة.
عثمان بن عفان رضي الله عنه: وقع اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم على عثمان بن عفان رضي الله عنه ليكون مبعوث الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مكة قبل صلح الحديبية، وقد وقع الاختيار على عثمان رضي الله عنه بعد مشورة مع عمر رضي الله عنه الذي كان هو المرشح لتلك المهمة في بداية الأمر، وقد وقع الاختيار على عثمان رضي الله عنه لهذه المهمة الخطيرة لكونه ينتمي لبني عبد شمس الذين كانت لهم قوة كبيرة في مكة من شأنها أن تمنعه من أي انتقام محتمل من زعماء قريش، على عكس عمر بن

الخطاب رضي الله عنه الذي كان ينتمي لبني عدي بن كعب الذين لم تكن لهم قوة كافية في مكة كقوة بني عبد شمس.
علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كان علي رضي الله عنه شابا من أشجع وأقوى الصحابة، فاختاره الرسول صلى الله عليه وسلم في مهمات فدائية خطيرة وعمليات قتالية خاصة عالية المستوى، فاختاره لينام على فراشه ليلة الهجرة، واختاره ليكون أحد الفرسان الثلاثة الذين تقدموا للمبارزة في بداية غزوة بدر، واختاره لحمل لواء المسلمين في خيبر، ولخلافته في قيادة المدينة عندما غادرها الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك.
حذيفة بن اليمان رييهعه: كان حذيفة رضي الله عنه يتمتع بمهارات استخباراتية خاصة، فقد كان ماهرا بطرق جمع المعلومات وتحليلها، وكان يمتلك ثباتاً انفعاليا كبيرا يفتقد له كثير من العرب الذين تغلبهم العاطفة في أوقات كثيرة، وكانت لديه مقدرة فائقة على إحاطة المعلومات الخطيرة بسرية كبيرة، هذه الصفات أهلته ليكون بمثابة مديرا للاستخبارات الخاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أوكل إليه الرسول صلى الله عليه وسلم مهمة جمع المعلومات الاستخباراتية من قلب صفوف العدو في معركة الأحزاب، واستطاع حذيفة رضي الله عنه القيام بهذه المهمة بنجاح دون لفت انتباه العدو أو القيام بأي عمل انفعالي من شأنه إفشال تلك العملية، وقد أطلع الرسول صلى الله عليه وسلم حذيفة بن اليمان رضي الله عنه بأسرار خطيرة تتعلق بأسماء المنافقين المزروعين داخل الدولة، وقد أظهر حذيفة رضي الله عنه أن اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم له ليكون كاتم أسراره كان اختيارا موفقا، فقد احتفظ حذيفة بن اليمان بتلك الأسرار كما أمره الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يطلع بها أحدا حتى بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، والجدير بالذكر أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه كان من أهم أسباب النصر في معركة نهاوند المصيرية التي سقطت على إثرها إمبراطورية فارس الساسانية إلى الأبد، فقد قام حذيفة بن اليمان بخدعة استخباراتية في بداية المعركة أوهمت الفرس أن القيادة الإسلامية في تلك المعركة لم تصب بأذى، على الرغم من أن القائد العام للمسلمين النعمان بن مقرن المزني رضي الله عنه كان أول من سقط في تلك المعركة!
محمد بن مسلمة رضي الله عنه: كان من بين أفراد فرقة النخبة المكلفة بحراسة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان محمد بن مسلمة رضي الله عنه بمثابة قائد قوات التدخل السريع والمهمات الخاصة التابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان هذا الصحابي الجليل كما جاء في وصفه أسود اللون، قوي البنية، طويل القامة، عظيم الجسم، وكان يغلب عليه الطابع العسكري، فأهلته صفاته الجسمانية والذهنية ليقع عليه اختيار رسول الله صلى الله عليه وسلم في كثير من العمليات القتالية الخطيرة، فاختاره الرسول صلى لله عليه وسلم ليكون قائد قوات الحرس الخاص المكونة من

50 صحابيا والموكل إليها حراسة معسكر المسلمين عند بياتهم قبل غزوة أحد(1)، وقد كان محمد بن مسلمة رضي الله عنه أحد الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد عندما دبت الفوضى في جيش المسلمين، وكان قائد المهمة السرية الخاصة التي أنهت خطر المجرم كعب بن الأشرف الذي كان يعتدي على نساء المدينة ويتعاون مع مشركي مكة ضد المسلمين في المدينة، وكان محمد بن مسلمة رضي الله عنه المبعوث الخاص الذي اختاره الرسول

---

(1) الرحيق المختوم للمباركفوري.

صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير بعد محاولتهم الفاشلة لاغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتم اختياره أيضا من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم ليكون قائد قوات نخبة الفرسان المكونة من 100 فارس أثناء توجه المسلمين لأداء عمرة القضاء(1)، وقد أوكل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى محمد بن مسلمة رضي الله عنه مهمة قيادة القوات الخاصة في مهمتين قتاليتين هما سرية القرطاء وسرية ذي القصة، وفي هذه السرية الأخيرة كان محمد بن مسلمة رضي الله عنه على وشك الموت، إلا أنه نجى من الموت بأعجوبة ليشارك مع الرسول صلى الله عليه وسلم في كل غزواته، باستثناء غزوة تبوك، وذلك لأنه الرسول صلى الله عليه وسلم أوكل إليه وقتها مهمة البقاء في المدينة لحراستها(2)، وحتى بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كان محمد بن مسلمة رضي الله عنه ضمن كتيبة المهمات الخاصة التي أرسلها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مصر بعد أن استعصى على جيش المسلمين هناك فتح حصن بابليون، فاستطاعت هذه الكتيبة القتالية الخاصة فور

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد.
(2) سير أعلامالنبلاء للذهبي.

وصولها تسلق أسوار حصن بابليون واقتحامه، وقد اختار الفاروق عمر رضي الله عنه محمد بن مسلمة رضي الله عنه ليكون مبعوثه الخاص إلى الولايات الإسلامية المختلفة في مهمات استقصائية هدفها التحقق من الشكاوى التي تصل إلى الخليفة من المواطنين في تلك البلدان(1) .

الأمثلة التي توضح عبقرية اختيارات الرسول صلى الله عليه وسلم للشخص المناسب في المكان المناسب أمثلة كثيرة لا يتسع المقام لحصرها جميعا في صفحات هذا الكتاب، وإنما أردت فقط من خلال ذكري لهذه الأمثلة القليلة لتي ذكرتها إلقاء الضوء على المنهجية العلمية المدروسة التي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتبعها في اختياراته، وبإمكان من يرغب في معرفة المزيد عن هذا الموضوع الرجوع إلى تاريخ ومميزات كل شخص عينه الرسول صلى الله عليه وسلم في وظيفة من الوظائف، عندها سيجد الإنسان نفسه أمام عقلية احترافية مبهرة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، لذلك لم يكن من المستغرب أن ينجح الرسول صلى الله عليه وسلم خلال سنوات قليلة فقط في بناء دولة قوية امتد نفوذها في كامل أرجاء الجزيرة

---

(1) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير.

العربية، هذه الدولة التي أنشأها الرسول صلى الله عليه وسلم كانت دولة مؤسسات يتم فيها تعيين الشخص المناسب في المكان المناسب، لذلك نجح الرسول صلى الله عليه وسلم في الاستفادة من اختصاصات وقدرات مواطني دولته على أكمل وجه، ولو أن اختيارات الرسول صلى الله عليه وسلم لمستشاريه وعماله كانت اختيارات عشوائية أو اختيارات قائمة على الواسطة أو المحسوبية، لما نجحت دعوته التي جاء بها، ولانهارت دولته كما انهارت كل الدول التي استبعدت أصحاب الكفاءات عن مركز اتخاذ القرارات، وعينت عوضا عنهم من لا يستحقون تلك المناصب التي أوكلت إليهم، لذلك حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على التحذير من خطورة هذا الأمر وعواقبه الوخيمة: "عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة. قالكيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة"(1).

---

(1) صحيح البخاري.

ولكن... في نفس الوقت الذي حذر فيه الرسول صلى الله عليه وسلم من تضييع الأمانة ووصفها بأنها من علامات الساعة، أخبر أن

هناك آمرا ضروريا يمكن القيام به آثناء قيام الساعة. فماهو هذا الشيء؟!

حماية البيئة

"إن قامت الساعة، وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها"(ا) "عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بسعد وهو يتوضأ فقال: ما هذا السرف يا سعد؟ قال: أفي الوضوء سرف؟! قال: نعم، وإن كنت على نهر جار"(2).
هذه القصة التي حدثت مع الصحابي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه تبين لنا كيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحرص تمام الحرص على الحفاظ على موارد البيئة، فقد بين لصاحبه أنه حتى في العبادات لا يجوز إهدار الماء، حتى وإن كان هذا الماء نابعا من نهر جار.

---

(1) مجمع الزوائد للهيثمي.
(2) رواه أحمد في مسنده، وابن ماجة في سننه.

والمتابع لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، يجد أنه كان رائداً في فكر الحفاظ على البيئة في ذلك الوقت الذي يسبق عصرنا الحالي بما يزيد عن 14 قرنا، ولم يكتف الرسول صلى الله عليه وسلم بزيادة الوعي البيئي لدى أصحابه، بل أوضح لهم أن الحفاظ على البيئة يعتبر من صلب الدين الإسلامي، وبذلك أضفى لفكر الحفاظ على البيئة قدسية دينية، ويظهر هذا الفكر الراقي في كثير من أحاديثه التي أوضح فيها حرصه على المحافظة على البيئة ومواردها: فحث الرسول صلى الله عليه وسلم على إزالة التلوث البيئي برفع الأذى عن الطرق، فقال: "تبسمك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف صدقة، ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، ونصرك الرجل الرديء البصر لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقه"(1).

---

(1) رواه ابن حجر العسقلاني في تخريج مشكاة المصابيح.

وشجع الرسول صلى الله عليه وسلم على التشجير وزيادة الرقعة الخضراء في الأرض، فقال: "ما من مسلم يغرس غرسا ، إلا كان ما أكل منه له صدقة ، وما سرق منه له صدقة ، وما أكل السبع منه فهو له صدقة ، وما أكلت الطير فهو له صدقة ، ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة " (1).

ولزيادة الوعي البيئي، وإبراز أهميته القصوى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن قامت الساعة، وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها"(2).
وشدد الرسول صلى الله عليه وسلم على أهمية استصلاح الأراضي، فقال:
"من أحيا أرضا ميتة فله فيها أجر، وما أكلت العافية منها فهو له صدقة"(3).

---

(1) صحيح مسلم
(2) مجدع الزوائد للهيثمي.
(3) السيوطي في الجامع الصغير، وابن حبان في صحيحه.

والعافية: كل طالب رزق من بشر أو حيوان.
وحذر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس من عدم احترام نظافة البيئة، وذلك عن طريق تلويثهم للطرق بمخلفاتهم، فقال صلى الله عليه وسلم: " اتقوا اللعانين ، قالوا: ومااللعانان يارسول الله؟ فال: الذي يتخلى(٢) في طريق الناس أو بظلهم "(2).
ودعا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عدم تلويث المياه، فقال: " عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه نهى أن يبال في الماء الراكد "(3).
" لا يغتسل أحدكم في الماء الدائم وهو جنب"(4)
ولم ينس الرسول صلى الله عليه وسلم تسليط الضوء على نوع

---

(1) يتخلى: يتغوط.
(2) صحيح مسلم.
(3) صحيح مسلم.
(4) صحيح مسلم.

آخر من التلوث، وهو التلوث السمعي الناتج عن الضوضاء التي يسببها بعض الناس للآخرين، فحذر من هيشات الأسواق، أي من اختلاطها وارتفاع الأصوات واللغط فيها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وإياكم وهيشات الأسواق"(1).
ولم يكتف الرسول صلى الله عليه وسلم من التحذير من الصوت العالي في الأسواق، بل حذر منه أيضا أثناء العبادات: "عن أبي سعيد قال: اعتكف رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد، فسمعهم يجهرون بالقراءة فكشف الستر وقال: ألا إن كلكم مناج ربه فلا بؤذين بعضكم بعضا، ولا يرفع بعضكم على بعض بالقراءة، أو قال في الصلاة"(2)

ونهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن إهدار موارد البيئة، فقال: "كلوا، وتصدقوا، والبسوا، في غير إسراف ولا مخيلة (3)"(1)

---

(1) صحيح مسلم
(2) رواه أبو داود في سننه، وابن عبد البر في التمهيد.
(3) المخيلة:هى العجب والكبر.

ولكن... ماذا عن عالم الحيوان؟ وكيف كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعامل الحيوانات؟ وما حكاية الجمل الذي جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعينين دامعتين؟ وماذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما رآه بهذه الحالة؟

(ا) رواه ابن ماجة في سننه، والنسائي في سننه، والإمام أحمد في مسنده، والنيسابوري في المستدرك على الصحيحين.

الرفق بالحيوان

"أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟"(١)

في يوم من الأيام، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم راكبا على دابته وهو يردف خلفه طفلا صغيرا هو عبد الله بن جعفر رضي الله عنه، وهو قد كان هذا الطفل ابنا لجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم حائطا، أي بستانا، لرجل من الأنصار، وهناك حدث أمر في غاية العجب: "فدخل حائطاً لرجل من الأنصار فإذا جمل، فلما رأى النبي · صلى الله عليه وسلم حن وذرفت عيناه، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم فمسح ذفراه(2)، فسكت،

---

(1) رواه أبوداود ني سنة.

(2) مسح ذفراه: مسح مؤخرة الرأس.

فقال: من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله. فقال: أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟ فإنه شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه(1)(2)·

هذه القصة العجيبة التي نقلها ذلك الصحابي عندما كبر، تبين لنا النهج الرحيم الذي كان الرسول صلى الله عليه وسلم ينتهجه في معاملة الحيوانات، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحرص على معاملة الحيوانات برفق ورحمة، على عكس كثير من المسلمين في هذا الزمان للأسف، الذين يعاملون الحيوانات بكل قسوة، ويعتقدون أن مسألة الرفق بالحيوانات مسألة خاصة بالمترفين من الناس، فيسيئون معاملة الحيوانات، ويضربونها بطريقة بشعة، ويصل الجنون ببعضهم إلى حد الاستمتاع برؤية الحيوان وهو يتعذب أمامه، هؤلاء لم يفقهوا دين محمد

---

(1) تدئبه: تتعبه. من الدأب وهو العمل عليه باستمرار وبدون غذاء، يعني: لا يغذيه ويتعبه في العمل والكد. (شرح سنن أبي داود: الشيخ عبد المحسن العباد)

(2) رواه أبو داود في سننه.

صلى الله عليه وسلم ، ولم يتبعوا هديه في التعامل مع الحيوانات، ففقدوا فرصة الاقتداء بسنة النبي صلي الله عليه وسلم ، وعرضوا أنفسهم بذلك لفقدان شفاعته يوم الدين، بعد أن فقدوا انسانيتهم من قبل، عندما نسوا أن ذلك الحيوان الذي بين أيديهم يملك روحا أيضا، وأن الله قادر عليهم أكثر من قدرتهم هم على مثل تلك الحيوانات الضعيفة، وغاب عنهم أنهم قد يفقدون رحمة الله سبحانه عندما يحتاجون إليها في الدنيا أو الآخرة، مثل هؤلاء لم يصلهم هذا الحديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن كان قد وصلهم فإنهم قطعا لم يفقهوا معناه: "الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء"(1).
والتعامل برحمة ورفق مع الحيوانات هو واجب على جميع البشر بغض النظر عن معتقداتهم الدينية والفكرية، ولكن في حالتنا كمسلمين تزداد المسؤولية لتتعدى الاعتبارات

---

(1) رواه الترمذى فى سننه.

الإنسانية والبيئية لتصبح أيضا واجبا دينيا يحتمه علينا الشرع الحنيف، ولكي ندرك أهمية التعامل برحمة مع الحيوانات، يكفينا فقط أن نتأمل بعض الأحاديث التي وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقد ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم حكاية رجل نال الشكر والغفران من الله فقط لأنه سقى كلبا عطشانا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بينما رجل يمشي بطريق فاشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: قد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغني فنزل إلبئر، فملأ خفه فأمسكه بفيه، حتى رقي فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له. فقالوا يا رسول الله وإن لنا في البهائم لأجرا؟ فقال: في كل ذات كبد رطبة أجر"(١)
وأوضح الرسول صلى الله عليه وسلم عظم الأجر الذي قد

---

(1) رواه أبو داود في سننه.

يترتب على الرفق بالحيوان، وذلك بذكره لقصة بغي نالت الغفران لمجرد سقايتها لكلب عطشان: "بينما كلب يطيف بركية، كاد يقتله العطش، إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها، فسقته فغفرلها به).

بينما استحقت امرأة أخرى النار لأنها حبست هرة، دون أن تطعمها أو تتركها لكي تبحث عن الطعام لوحدها: "دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض"(2).
وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يرفقوا بدوابهم أثناء السفر، وحثهم على أن يبطئوا من سرعتهم إذا ساروا في طريق مخصبة، وأنهم يعطوها حقها في أن تأكل من أعشاب الطريق، أما إذا مروا في طرق مجدبة فعليهم الإسراع

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، ومسلم في صحيحه
(2) صحيح البخاري.

لكي لا يزيدوا من تعب دوابهم بالبقاء في تلك الطرق التي لا تحتوي على غذاء، ولكي تدرك رحمة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحيوان، فعليك أن تتخيل أن حرصه لم يقتصر على الحيوانات المستأنسة فقط، بل شمل أيضا الحيوانات البرية والسباع التي تعبر الطريق، فأمر المسافرين أن يبتعدوا عن الطريق إذا أرادوا التعريس، أي المبيت ليلا، وذلك لكي لا يزعجوا الحيوانات التي تنشط في الليل وتتنقل عبر الطرق، أو تلك التي تبحث عن مخلفات الطعام المتبقية من القوافل العابرة(1)، فقال صلى الله عليه وسلم: "إذا سافرتم في الخصب فأعطوا الإبل حقها وإذا. سافرتم في الجدب فأسرعوا السير فإذا أردتم التعريس فنكبوا عن الطريق"(2)
وحتى الصلاة التي تعتبر عماد الدين الإسلامي، فقد علم الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه المسافرين ألا ينشغلوا بها قبل

---

(1) عون المعبود، لمحمد شمس الحق العظيم آبادي.
(2) رواه أبو داود في سننه.

أن يزيلوا الأحمال عن ظهور دوابهم لكي تستريح أثناء تأديتهم للصلاة، وفي هذا يقول الصحابي أنس بن مالك رضي الله عنه : " كنا إذا نزلنا منزلا لا نسبح حتى تحل الرحال" (1).
وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم الناس أن يستخدموا الحيوانات كأهداف للتدريب حين يتعلمون الرماية، فقال نبي الرحمة عليه أفضل الصلاة والسلام: "لاتتخذوا شيئاً فيه الروح غرضا "(2).
ونهى الرسول صلى الله عليه وسلم أيضا أن يتخذ الناس ظهور الحيوانات كمنابر أثناء خطبهم وأشعارهم أو ما شابه ذلك من الأمور التي قد ترهق الحيوانات، فقال صلى الله عليه وسلم: " إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر،

فإن الله إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض فعليها فاقضوا حاجاتكم" (3)

---

(1) رواه أبو داود في سننه.
(2) صحح سلم.
(3) رواه أبو داود فى سننه.

والحقيقة أن الأمثلة على رحمة الرسول صلى الله عليه وسلم بالحيوانات والرفق بها أمثلة كثيرة لا يتسع المقام هنا لحصرها جميعا، ولكننا لا يمكننا الانتقال للحديث عن درس آخر من دروس مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم ، دون أن نذكر قصة الحمرة الحزينة، والحمرة طائر صغير كالعصفور(1)، وهذه القصة التي نقلها لنا الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، تختصر لنا - حسب رأيي - ملايين الكلمات التي قد نحتاجها لوصف إنسان في قمة الرقة، وقمة الرحمة، وقمة الجمال، اسمه محمد صلى الله عليه وسلم ، يقول ابن مسعود رضي الله عنه: " كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فانطلق لحاجته فرأينا حمرة(2) معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تفرش(3)، فجاء

---

(1) عون المعبود، لمحمد شمس الحق العظيم آبادي
(2) جعلت تفرش: صارت ترفرف فوقهما، والتفريش مأخوذ من فرش الجناح وبسطه،
والتعريش أن ترتفع فوقهما وتظلل عليهما انتهى. (عون المعبود، لمحمد شمس الحق العظيم آبادي).
(3)رواه أبو داود فى سننه.

النبي صلى الله عليه وسلم فقال من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها"(1).

ولكن.. إذا كان هذا هو شكل تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم مع الحيوانات، فكيف كان شكل تعامله مع بني الإنسان؟ وما هو السبب الذي دفع بكثير من ألد أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم لكي يتحولوا بمشاعرهم بشكل عجيب ليضحوا بأرواحهم من أجله؟ وما هي الاستراتيجية التي اتبعها الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوته للناس؟ وماذا قال أسطورة الهند غاندي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قرأ سيرته؟

كسب القلوب

"تبسمك في وجه أخيك صدقة"(١)

في وادي اليرموك، في 5 رجب من العام 15 هـ الموافق ل 20 أغسطس 336 م، أوشكت جحافل جيوش الإمبراطورية البيزنطية الرومانية وحلفائها على تدمير جيش المسلمين تدميرا نهائيا، وذلك بعد أن قاموا بتطويق المسلمين ومحاصرتهم من كل جانب، عند تلك اللحظة الحرجة، فوجئ المسلمون بفارس من قادة المسلمين يتقدم في ساحة المعركة ليكسر غمد سيفه وينادي في سماء اليرموك بصوت عال: " أيها المسلمون من يبايع على الموت؟ " فتقدم إليه 400 رجل ليكونوا ما عرف في التاريخ باسم "كتيبة الموت"، واستعد هذا القائد المسلم للتحرك بهذه الكتيبة

---

(1) رواه ابن حجر العسقلاني في تخريج مشكاة المصابيح.

الفدائية لاقتحام صفوف الروم في محاولة شبه مستحيلة لفتح ثغرة في صفوفهم، وقبل أن يتحرك بفرسانه توجه القائد العام لجيش المسلمين في تلك المعركة سيف الله المسلول خالد بن الوليد رضي الله عنه نحو قائد كتيبة الموت وحاول منعه من التضحية بنفسه في تلك المهمة المميتة، فنظر إليه ذلك القائد وقال له: "إليك عني يا خالد، فلقد كان لك مع رسول الله سابقة، أما أنا وأبي فقد كنا من أشد الناس على رسول الله، فدعني أكفر عما سلف مني، ولقد قاتلت رسول الله في مواطن كثيرة وأفر من الروم اليوم؟! إن هذا لن يكون أبدا".

وانطلق القائد المسلم بفرسان كتيبة الموت إلى قلب جيش الروم، فصعق جنود الإمبراطورية الرومانية بمنظر ذلك القائد ومن معه من الفرسان الذين يقتحمون صفوفهم دون أدنى خوف من الموت، وانهالت نبالهم على أفراد تلك الكتيبة كزخات المطر في محاولة لوقف تقدمهم، إلا أن أفراد كتيبة الموت الإسلامية استمروا في التقدم نحو صفوف جيش الإمبراطورية على الرغم من تساقطهم واحداً تلو الآخر، وما هي إلا لحظات حتى تمكنت كتيبة الموت الإسلامية من إحداث تغيير في ميزان المعركة لصالح المسلمين، فبحث القائد خالد بن الوليد رضي الله عنه عن قائد كتيبة الموت بين المصابين، فقد كان ذلك القائد إضافة لكونه أحد أقربائه صديقا قديما له، ليتم العثور عليه ملقى في ساحة المعركة والدماء تسيل منه، فوضع خالد رضي الله عنه رأس صاحبه على فخذه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، وما هي إلا لحظات حتى فارق ذلك القائد الحياة بعد أن عمل على تغيير مجرى معركة اليرموك، لينتصر

المسلمون في تلك المعركة المصيرية التي كانت نقطة فاصلة في التاريخ الإنساني.
العجيب في هذه القصة أن هذا القائد الذي ضحى بروحه بعد أن تذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم كان نفسه قبل ذلك بسنوات قليلة من أشد أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد أن ورث تلك العداوة الشديدة من أبيه الذي كان ألد أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم ، إننا نتحدث عن عكرمة رضي الله عنه، الصحابي الجليل الذي كان ابنا للعدو الأول للمسلمين أبي جهل!
ولكن ما سر هذا التغير العجيب في المشاعر التي كان قلب عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه يحملها تجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وكيف تحول هذا الشاب القرشي إلى فدائي يقدم حياته من أجل الدفاع عن رسالة الرجل الذي كان في يوم من الأيام من أشد أعدائه؟
نرجع في الزمان إلى ما قبل ذلك التاريخ بسنوات قليلة، وبالتحديد إلى عام فتح مكة، في ذلك الوقت أصدر الرسول صلى الله عليه وسلم عفوا عاما على سكان مدينة مكة الذين حاربوه في السابق لسنوات طويلة، واستثني من هذا العفو ستة أشخاص ثبتت عليهم جرائم كبرى كانت عقوبتها الإعدام، وكان عكرمة بن أبي جهل من بين أولئك الستة، فهرب من مكة، ثم ركب سفينة يريد الهروب من خلالها بعيدا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن عاصفة هوجاء ضربت السفينة، فطلب أصحاب السفينة من الركاب أن يخلصوا الدعاء لله فقط بأن ينجيهم من الغرق، وأن يتركوا دعاء الآلهة في هذا الوقت، وقالوا: أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئا ها هنا. فقال عكرمة: والله لئن لم ينجني من البحر إلا الإخلاص لا ينجيني في البر غيره، اللهم إن لك علي عهدا إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمداً صلى الله عليه وسلم حتى أضع يدي في يده، فلأجدنه عفوا كريما(1)، ثم رجع عكرمة بعد ذلك وأسلم بعد أن عفا عنه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصبح منذ ذلك اليوم صحابيا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.
ولعل قصة عكرمة رضي الله عنه كانت من أروع الأمثلة التي توضح أمرا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص عليه طيلة حياته، هذا الأمر هو كسب القلوب، فعكرمة حارب الرسول

---

(1) السنن الكبرى للبيهقي.

صلى الله عليه وسلم حربا شعواء لسنوات عديدة، وأبوه فرعون هذه الأمة أذاق الرسول صلى الله عليه وسلم أنواع العذاب والاضطهاد، ولكن الرسول

صلى الله عليه وسلم لم ينتقم من عكرمة لما قام به هو وأبوه، ولم يوجه له أية إهانة أو حتى مجرد عتاب، فلم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم ينتمي إلى ذلك النوع من البشر الذي يحرص على الانتقام ممن آذوه في السابق، بل على العكس من ذلك، كان يعفو ويصفح ويعامل خصومه السابقين بكل رقة وأدب، لذلك لم يكن غريبا أن تتعلق قلوبهم به بعد أن تعاملوا معه عن قرب بعيدا عن ما كان يشاع عنه وعن رسالته، فمحمد صلى الله عليه وسلم لم يبعث لكي يسوق الناس إلى حتفهم، بل بعث ليهدي الناس إلى طريق السعادة، وقد كانت أخلاقه النبيلة وتعاملاته الإنسانية الراقية كفيلة أن تجذب القلوب الحية إلى جانبه، لتتحول هذه القلوب من قلوب كارهة إلى قلوب محبة له، ويتحول أصحابها من أعداء أرادوا النيل منه ومن رسالته، إلى أنصار يريدون النصرة له ولرسالته.
قصة الصحابي الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنه مثال آخر على ذلك، فعمرو رضي الله عنه كان قبل إسلامه من أبرز قادة الكفار ومن ألد أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم على الإطلاق، وكان هو الرجل الذي أرسلته قريش إلى الحبشة لكي يلاحق فيها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهناك في الحبشة بذل كل ما يستطيع في محاولة لتشويه صورة محمد صلى الله عليه وسلم في نظر النجاشي ملك الحبشة، قبل أن يسلم في نهاية الأمر، ليصف لنا بكلماته القليلة مدى التغيير الذي طرأ على قلبه في علاقته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي بدلا من معاتبته على ما قام به سابقا من حرب عليه وعلى الإسلام، طلب منه نسيان الماضي والتطلع إلى المستقبل، يقول عمرو بن العاص رضي الله عنه: لقد رأيتني وما أحد أشد بغضا لرسول الله صلى الله عليه وسلم مني، ولا أحب إلي أن أكون قد استمكنت منه فقتلته، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار، فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك.
فبسط يمينه، فقبضت يدي.
قال: ما لك يا عمرو؟!
قلت: أردت أن أشترط!
قال: تشترط بماذا؟
قلت:أن يغفر لي.
قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله؟
يصف عمرو بن العاص ما حصل لقلبه بعد إسلامه: "وما كان أحد أحب إلي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالا له، ولوسئلت أن أصفه ما أطقت، لأني لم أكن أملأ عيني منه!"(1).

كسب القلوب التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص عليه، من أهم الأمور التي يمكن لنا نحن المسلمون أن نتعلم منها، خاصة في هذا الزمان الذي صار فيه كثير من المسلمين

---

(1) صحيح مسلم.

يخسرون قلوب الناس بدلا من كسبها، فصاروا بقسوة قلوبهم وسوء أخلاقهم وفظاظة ألسنتهم وتجهم وجوههم ينفرون الناس عن دين الله، مثل هؤلاء يمثلون أكبر خطر على سمعة الإسلام، خاصة إذا عملوا في مجال الدعوة، فهم يعملون عن علم أو دون علم على ابتعاد الناس عن الدين، ليس فقط من غير المسلمين الذين اعتقدوا أن هؤلاء هم من يعكسون تعاليم الإسلام، بل أيضا من عامة المسلمين الذين ظنوا أن الالتزام الديني يعني أن يكون الإنسان عابس الوجه غليظ القلب فظ اللسان!
يصف الله سبحانه وتعالى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بقوله:" ... وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ..."(1)

فلو رجع الناس إلى أصل الإسلام وسيرة رسول الإسلام من مصادرها ا لأصلية لوجدوا إنسانا رقيق القلب، مبتسم الوجه، دمث الخلق، يخاطب الناس بأجمل الألفاظ، ويراعي مشاعر وظروف الآخرين، الأمر الذي مكنه من كسب قلوب ليس فقط الصحابة الذين آمنوا به في زمانه، وليس فقط المسلمين في كل زمان ممن آمنوا به وأحبوه أكثر من أنفسهم دون أن يروه، بل أيضا كل إنسان قرأ سيرته بإنصاف تاريخي، مهما كان الزمان الذي ظهر في هذا الإنسان، ومهما كانت اديانة التي يدين بها، ويكفيك فقط أن تقرأ الكلمات القليلة التي ذكرها الزعيم الروحي الهندوسي الأشهر مهاتما غاندي(٦) في وصف رسول الله محمد (2) صلى الله عليه وسلم:

---

(1) موهانداس كرمشاند غاندي (2 أكتوبر 1869 - 30 يناير 1948) محامي هندي عاش وعمل في جنوب أفريقيا واستقر بعد ذلك في الهند ليصبح أحد السياسيين البارزين لحركة تحرر الهند من التاج البريطاني، يعرف باسم المهاتما غاندي، المهاتما أي الروح العظيمة، تم اغتياله عام 1948 من قبل أحد المتطرفين الهندوس الذي لم ترق له دعوات غاندي للأغلبية الهندوسية باحترام حقوق الأقلية المسلمة، وهي الدعوات التي اعتبرتها بعض الفئات

الهندوسية المتعصبة خيانة عظمى، ليتم التخلص من غاندي عبر اغتياله عن عمر 78 عاما.
(2) من تصريح لغاندي نشر في صحيفة "Young India" عام1924.

" أردت أن أعرف صفات الرجل الذي يملك بدون نزاع قلوب ملايين البشر . لقد أصبحت مقتنعا كل الاقتناع أن السيف لم يكن الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته، بل كان ذلك من خلال بساطة الرسول مع دقته وصدقه في الوعود، وتفانيه وإخلاصه لأصدقائه وأتباعه، وشجاعته مع ثقته المطلقة في ربه وفي رسالته. هذه الصفات هي التي مهدت الطريق، وتخطت المصاعب وليس السيف. بعد انتهائي من قراءة الجزء الثاني من حياة الرسول وجدت نفسي أسفا لعدم وجود المزيد للتعرف أكثر على حياته العظيمة".
ولكن كيف كان تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم مع شعبه؟ وهل كان قائداً مستبداً بآرائه؟ أم أنه يستمع لكل الآراء المختلفة "؟

عدم التفرد بالرأي

" وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ "

عندما وصلت المعلومات الاستخباراتية إلى الرسول صلى الله عليه وسلم تتحدث عن رصد تحركات عسكرية لقوات قبيلة قريش قبل غزوة بدر، أراد الرسول صلى الله عليه وسلم الاستماع إلى رأي الناس قبل اتخاذه لأي قرار سياسي يتعلق بمصير الأمة، فأطلع من معه على المعلومات الاستخباراتية التي وصلته، وطلب منهم إبداء آرائهم الحرة فيما يتعلق بهذا الأمر، فتقدم كبير مستشاري الرسول صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق رضي الله عنه فأبدى رأيه الخاص في الموضوع، ثم تقدم المستشار الثاني للرسول صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعبر عن رأيه بكل حرية، وبعدها تقدم صحابي ثالث

---

(1) سورة الشورى الآية 38

من المهاجرين وهو المقداد بن عمرو رضي الله عنه، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك ا لغماد(ا) لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه"(2)٠

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا، ودعا له، ثم استمر الرسول صلى الله عليه وسلم يسأل الناس أن يبدوا له آراءهم بالمشورة، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحرص أن يستمع إلى آراء فئة أخرى لم تبدي رأيها، فبعد أن تكلم ممثلو المهاجرين، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يرغب بمعرفة رأي

---

(1) برك الغماد منطقة تقع في الجزيرة العربية بعيدة من موقع الحدث، والمقصود من ذلك " أننا معك إلى أبعد الحدود".

(2) سيرة ابن هشام.

الأنصار، فنادى الرسول صلي الله عليه وسلم أن أشيروا علي أيها الناس، فلما قال ذلك توجه إليه بالكلام أحد أبرز زعماء الأنصار وهو سعد بن معاذ رضي الله عنه، وقال له: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟
قال الرسول صلى الله عليه وسلم: أجل.
فقال سعد بن معاذ رضي الله عنه: "فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك علي ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك فامض يا رسول الشه لما أردت فنحن معك فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسرعلى بركة الله"(1).

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير.

وبعد أن استمع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى آراء ممثلي الفئات المختلفة من الناس، اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم قراره الذي يوافق إجماع الناس من حوله، فتحرك بجيشه نحو آبار بدر، لينتصر المسلمون هناك في المعركة العسكرية الفاصلة التي عرفت في التاريخ بغزوة بدر الكبرى.
اختار الله عز وجل محمدا بن عبد الله صلى الله عليه وسلم من بين جميع خلقه ليكون نبيه الأعظم الذي يوحى إليه، ولكن الله تعالى قدر ألا تكون كل أفكار وأعمال وأقوال النبي صلى الله عليه وسلم نابعة عن وحي يتلقاه من السماء، وفي ذلك حكمة عظيمة من الله عز وجل، فلو كان الأمر كذلك، لما احتاج لاستشارة أصحابه في الأمور الإنسانية التي لا وحي فيها، فقدم الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك درسا مهما ليس فقط للمسلمين بل للإنسانية بأسرها، ويتلخص هذا الدرس المهم بأن الإنسان العاقل هو الذي يشاور من حوله من أصحاب الرأي، ولا يستبد برأيه، ولا يستحقر آراء من حوله، ولا يعتبر أن رأيه الإنساني هو الحقيقة المطلقة التي لا تقبل النقاش، حتى وإن كان صاحب هذا الرأي نبيا مرسلا يتنزل عليه الملك جبريل عليه السلام من فوق سبع سماوات!
والمشكلة الكبيرة التي تواجه كثيرا من مجتمعاتنا الإسلامية في هذا الزمان هي مشكلة الابتعاد عن مبدأ من أهم مبادئ الإسلام، هذا المبدأ هو مبدأ الشورى، والشورى تعني باختصار أن يناقش أصحاب الرأي وجهات النظر المختلفة في قضية من القضايا بهدف الوصول إلى النتيجة الأمثل، ولأهمية هذا

المبدأ سميت سورة من سور القرآن باسم "سورة الشورى"، ذكرت فيها الشورى كصفة من صفات المؤمنين: " فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (36) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (37) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (38) " (1)

---

(1) سورة الثورى الآيات 36-38.

وأمر اله عز وجل الرسول صلى الله عليه وسلم أن يشاور أصحابه: " فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159)" (1)
فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أمر نبيه الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم أن يشاور أصحابه، فكيف بمن دونه من البشر من الملوك والرؤساء وأصحاب السلطة وصولا إلى المدراء والآباء والأمهات والأفراد العاديين؟!. فالشيء الذي قد ينساه الكثيرون منا، أن اتباع نظام الشورى في اتخاذ القرارات ليس مقصورا فقط على النظم السياسية، بل يشمل أيضا جميع مجالات الحياة، وليس مقصورا فقط على أصحاب القرار السياسي، بل ينبغي لكل من أراد النجاح في حياته الخاصة أن يتبع نظام الشورى، فالرجل وزوجته ينبغي أن يشاور كل منهما الآخر قبل اتخاذ القرارات الخاصة، والوالدان

---

(1) سورة آل عمران الآية 9 15.

ينبغي لهما أن شاورا الأبناء عندما يتعلق الأمر بمستقبل العائلة، والمعلم بإمكانه أن يشاور تلاميذه للوصول إلى أنسب طريقة لهم في التعليم، والمدير يستطيع أن يستفيد من خبرات موظفيه وآرائهم في تطوير العمل، وهذا الأسلوب في اتخاذ القرارات عن طريق تفعيل نظام الشورى معمول به في تعاملات غير المسلمين في كثير من دول العالم، ولكن السؤال الذي ينبغي علينا كمسلمين أن نطرحه على أنفسنا: من منا يتبع نظام الشورى في حياته الخاصة؟ !
فمن فوائد الشورى أنها تتيح للإنسان الاستفادة من خبرات الآخرين وأفكارهم المتنوعة، فأفكار البشر تتنوع وفقا لتجاربهم المختلفة ونظرتهم الخاصة

للأشياء الناتجة عن اختلاف زاوية الرؤية التي ينظر من خلالها كل شخص إلى نفس الصورة، وعندما يقوم الإنسان باستشارة من حوله في موضوع معين، فإنه يتمكن بذلك من رؤية الصورة كاملة من زوايا مختلفة، وفي نفس الوقت يمكنه أن يخرج بأفكار جديدة ما كانت لتتبادر إلى ذهنه مطلقا لو أنه لم يستمع إلى أفكار الآخرين، وهذا يحدث فقط عندما تتاح لمن يستشيرهم الحرية الكاملة للتعبير عن آرائهم الخاصة بعيداً عن جو الإرهاب الفكري، وأيضا عندما لا يكون المستشارون أشخاصا منافقين لا يقولون إلا ما يوافق هوى من يستشيرهم، إما خوفا على علاقتهم به، أو طمعا في مكاسب خاصة منه، وفي طبيعة الحال يشترط لنجاح الشورى أن يكون الشخص الذي يطلب المشورة بعيدا عن الكبر والتشبث برأيه، وأن يكون مستعدا لتقبل المشورة حتى وإن كانت عكس ما كان يرى، لا أن يطلب المشورة من الناس متوقعا أن يستمع منهم فقط إلى صدى لرأيه الخاص!

وقد كان الرسول محمد صلى الله عليه وسلم يستشير أصحابه بشكل مستمر، ويتيح لهم فرصة إبداء آرائهم الخاصة بكل حرية، وكان هو بدوره يستمع إلى جميع الآراء، بما فيها الآراء المختلفة مع رأيه الخاص، وفي كثير من الأحيان كان يأخذ برأي أصحابه المخالف لرأيه الأولي، ولعل في قصة تحديد مكان غزوة أحد مثالا على ذلك: فبعد الهزيمة المذلة التي تعرض لها مشركو قريش في غزوة بدر الكبرى، وهلاك معظم قادتهم الكبار، أراد القادة الجدد لقريش الانتقام من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فشكلوا جيشا جرارا مكونا من ثلاثة آلاف مقاتل، وتوجهوا بهذا الجيش نحو المدينة للقضاء على المسلمين نهائيا، فوصلت رسالة مستعجلة من قبل الاستخبارات الإسلامية إلى الرسول صلى الله عليه وسلم تخبره بأنباء تحركات قريش نحو المدينة، فأعلن الرسول صلى الله عليه وسلم حالة النفير العام في أرجاء المدينة لصد خطر الغزاة، وكعادته في اتخاذ القرارات السياسية، عقد الرسول صلى الله عليه وسلم مجلسا استشاريا عسكريا لدارسة الموقف وتحديد الطريق الأمثل لمقاومة الغزاة، وكان السؤال المطروح هو أيخرج المسلمون إليهم، أم يمكثوا في المدينة؟ وكان رأي الرسول صلى الله عليه وسلم الشخصي ألا يخرج المسلمون من المدينة لملاقاة جيش العدو، وأن يتحصنوا بها، فإن دخلها الغزاة، قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة، والنساء من فوق البيوت(1)، وقد وافقه على هذا الرأي نفر من كبار الصحابة،

---

(1) زاد المعاد لابن قيم الجوزية.

ولكن مجموعة من فضلاء الصحابة المتحمسين، وخاصة من الذين لم تتح لهم فرصة المشاركة في غزوة بدر، أشاروا على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يخرج المسلمون لملاقاة جيش الكفار، وألحوا عليه بهذا الرأي، فنهض

الرسول صلى الله عليه وسلم ودخل بيته ولبس لأمته، واللأمة تعني الدرع أو لباس الحرب، فأحس هؤلاء الصحابة بالندم بأنهم ألحوا على الرسول صلى الله عليه وسلم بطلبهم الخروج لملاقاة الأعداء، وكرهوا أن يكونوا قد طلبوا أمرا لا يحبه الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقالوا: يا نبي الله، أنمكث كما أمرتنا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه"(1).
والشورى كفكرة ليست اختراعا جديدا جاء به الإسلام، فصحيح أن الإسلام رسخ مبدأ الشورى دينيا وجعله من المبادئ الأساسية الضرورية لاتخاذ القرارات، ولكن من

---

(1) كتاب السنن الكبرى للبيهقي.

الناحية التاريخية فإن هذا المبدأ الإنساني كان موجوداً منذ فجر التاريخ، فالمخاطر والتحديات التي واجهتها التجمعات السكانية البدائية للإنسان القديم حتمت على البشر التشاور بشأنها من أجل الوصول إلى الرأي الأفضل لتجاوزها، فطور الإنسان عبر الزمان أنظمة وأشكالا مختلفة تتم من خلالها عملية الشورى.
فقد طبق عرب الجاهلية مبدأ الشورى بشكل واسع، فحالة العرب السياسية والاجتماعية قبل الإسلام لم تكن بتلك الصورة الفوضوية التي يتخيلها البعض، فقد طور العرب نظما استراتيجية متقدمة تناسبت مع بيئتهم القبلية، فكانت مجالس الشورى تعقد بشكل مستمر في لقاءات شيوخ القبائل العربية، واستعان ملوك اليمن بالحكماء وأهل الرأي في اتخاذ قراراتهم المصيرية، وقد ورد في القرآن الكريم في قصة بلقيس ملكة مملكة سبأ اليمنية ما يدل على ذلك:" قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (32) "(1).

---

(1) سورة النمل الآية 32

وقد طورت قريش نظاما متقدما للشورى في زمن الجاهلية، فاتخذوا "دار الندوة" التي بناها جدهم قصي بن كلاب كمقر رسمي لعقد اجتماعاتهم التشاورية، وكان زعماء مكة وأهل الرأي فيها يجتمعون في تلك الدار للتناقش في أمور مكة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية، مثل أمور السلم والحرب، وقضايا التجارة وتنظيم القوافل، وتحديد السلطات المكلف بها كل

بطن من بطون قريش، وقد كانت الاتفاقات التجارية مع القبائل الأخرى تبرم في دار الندوة(1).
ولعل الإغريق القدماء، وبالتحديد سكان أثينا، كانوا من بين أهم الذين ساهموا في تحويل مبدأ الشورى إلى نظريات محددة المعالم، ومن ثم نقلها من الطور النظري إلى طورها العملي على أرض الواقع، فظهرت لديهم أشكال مختلفة من المجالس الاستشارية، فكان هناك النظام الأرستقراطي، والأرستقراطية تعني حرفيا "حكم النخبة"، وكان

---

(1) أخبارمكة وماجاء فيها من الآثار ، أبو الوليد الأزرقي.

هذا النظام مقتصرا على النخب والطبقة الغنية والأعيان الذين وصلوا إلى مراتبهم عن طريق الوراثة، وظهرت في أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد الديموقراطية ، وتعني حرفيا "حكم الشعب"، ووفقا لهذا النظام منحت أثينا القديمة، وهي أقدم ديموقراطية في التاريخ، حق إبداء الرأي للمواطنين الرجال دون النساء، والسادة دون العبيد، وبالرغم من السلبيات المجتمعية التي نتجت عن الديموقراطية الأثينية والتي أدت فيما بعد إلى إعدام الفيلسوف الإغريقي الأشهر سقراط الذي انتقد الديموقراطية الأثينية، فإنه مما لا شك فيه أنها كانت أفضل من غيرها من نظم الاستبداد التي كانت سائدة في كثير من حضارات العالم القديم، كالحضارة الفرعونية في مصر على سبيل المثال، والتي كان فيها الحاكم يعتبر نفسه إلها يحكم عبيدا لا وجود لأي اعتبار لآرائهم، فكان يمكن لفرعون من الفراعنة أن يسخر طاقات شعبه وثروات بلاده لسنوات طويلة للعمل على بناء قبر عملاق له توضع فيه كنوز الدولة لتكون بجانبه بعد موته، بدلا من استخدام هذه الطاقات وهذه الثروات للصالح العام، وتسخيرها لإقامة مجتمع تسود فيه قيم العدل والمساواة، يقول أمير الشعراء أحمد شوقي رحمه الله في ميميته الشهيرة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، والتي سماها "نهج البردة":
واترك رعمسيس إن الملك مظهره... في نهضة العدل لا في نهضة الهرم!
ويقول أمير الشعراء رحمه الله في قصيدة أخرى.
زمان الفرد يا فرعون ولى   ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض   على حكم الرعية نازلينا
والحقيقة أن الفراعنة ما كان لهم أن يقوموا بما قاموا به لو أنه كان هناك قانون يحد من سلطاتهم المطلقة، ونظام للشورى يراقب أعمالهم ويصوبها، وفي ظل غياب مثل هذه الأمور، كان باستطاعة الفرعون أن يتصرف كيفما يشاء، دون أن يخشى من أي مساءلة، ودون أن يستمع لأي رأي، فقد كان الفرعون يعتبر نفسه إلها تجب طاعته العمياء دون نقاش من رعيته، أو عبيده

كما كان هو يراهم، وكما كانوا هم يرون أنفسهم، بعد أن استطاع كهنتهم اقناعهم بعبوديتهم لفرعون، ويوضح الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم العقلية السياسية التي كان فرعون ينتهجها في الحكم: قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29) (1).

ويصف الله عز وجل قوم فرعون الذين ارتضوا على أنفسهم أن يكونوا مجرد عبيد: " فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54) "(2).

والأمثلة التاريخية على المفاسد التي يجلبها استبداد الإنسان برأيه وابتعاده عن الشورى أمثلة كثيرة لا يتسع المقام لذكرها

---

(1) سورة غافر الآية 29.

(2) سورة الزخرف الآية 54 .

جميعا، ولا تقتصر تلك المفاسد على الشعوب وحدها، بل تشمل المستبد أيضا، فالاستبداد في معظم الأحيان يؤدي بصاحبه إلى الجنون، وفي أحيان كثيرة يؤدي به إلى نهاية فظيعة، ففي الصين مثلا ظهر الإمبراطور تشين شي هوانج(1)، وهو الإمبراطور الذي وحد الصين، وبنى سورها العظيم، وقام بإصلاحات سياسية واجتماعية كبيرة في بداية حكمه، ولكن في ظل غياب نظام الشورى، دفعت السلطة المطلقة هذا الإمبراطور إلى الجنون في نهاية الأمر، فأعلن نفسه كإله، وصار يتناول الزئبق معتقدا أن ذلك هو إكسير الحياة الذي سيمنحه الخلود الأبدي، فتسمم جسمه بشكل بطيء نتيجة لتناوله المستمر للزئبق، وأصيبت قواه العقلية بالخلل، الأمر الذي انعكس على قراراته في إدارة الدولة، وقد بني الامبراطور

---

(1) تثين شي هوانج: كان ملكا لولاية تشين من قبل أن يوحد الصين ويصبح أول إمبراطور للصين ولأسرة تشين من221ق.م إلى10 2 ق.م، وقد تمكن تشين شي هوانج من توحيد الصين بعد أن وحد ولايات الدول الصينية الست الكبرى المتصارعة من خلال الحروب التي عرفت باسم "حروب تشين للتوحيد"

لنفسه مقبرة عظيمة حوت ما عرف ب"جيش التيراكوتا" وهو جيش حجري عظيم مكون من آلاف الجنود الحجريين، إضافة إلى خيول حجرية وعربات حربية بالحجم الطبيعي، وقد أمر الإمبراطور ببناء هذا الجيش ليكون معه في الحياة الأخرى(٦)، وبعد انهيار صحته الجسدية والعقلية نتيجة لتسممه بالزئبق،

مات هذا الإمبراطور المستبد بعمر 49 عاما فقط، وانهارت إمبراطوريته بعد سنوات قليلة من موته(2).

---

(1) تم اكتشاف المقبرة وما تضمه من الجيش الحجري عام 1974م . وذلك من قبل بعض المزارعين المحليين الذين كانوا يحفرون بئر ماء بالقرب من شيان بمقاطعة شنشي الصينية

(2) الفلم الوثائقي الامبراطور الأول

اتساع الأفق الفكري

" أحطت بما لم تحط به " (1)

عندما تفقد نبي الله سليمان عليه السلام، جنوده من الطير، فوجئ بعدم وجود الهدهد بينهم، فغضب لغيابه دون استئذان، وتوعده بالعقاب إذا رجع إليه دون حجة مقنعة تبرر فعلته، وبعد فترة قصيرة رجع الهدهد، فسأله سليمان عليه السلام عن سبب غيابه، فأخبره الهدهد أنني أحطت بما لم تحط به، أي أحطت بعلم ما لم تحط به أنت يا سليمان(2)، ثم أخبره بقصة ما رآه في مملكة سبأ في القصة المشهورة الواردة في سورة النمل.
اشتمل القرآن الكريم على كثير من الآيات التي تتحدث عن تاريخ الأمم الغابرة والحضارات السابقة، وقصص الأنبياء والصالحين، وحوادث الدهر المتعاقبة، وما رافق ذلك من

---

(1) سورة النمل ا لآية 22 .
(2 تفسيرالطبري.

صراع أزلي بين الحق والباطل، والخير والشر، والإنسان بطبعه يستمتع بمتابعة أحداث القصص والحكايات، ولكن العاقل فقط هو الذي يتمكن من استلهام الدروس والعبر من تلك القصص، لذلك أوضح الله عز وجل في كتابه الكريم أن أولي الألباب، أي أصحاب العقول الصحيحة، هم الذين يستلهمون العبر من القصص: " لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111) " (1)
وفي قصة نبي الله سليمان عليه السلام مع الهدهد الكثير من العبر، لعل من أبرزها مسألة جوهرية ربما لم ننتبه إليها كثيرا بسبب تسارع أحداث القصة بعد عودة الهدهد من رحلته، هذه المسألة لخصتها كلمات قليلة غاية في الفصاحة والذكاء قالها الهدهد لنبي الله سليمان:" أحطت بما لم تحط به "

---

(1) سورة يوسف الآية 111

فقد منح الله عزوجل نبيه سليمان عليه السلام إضافة للنبوة والملك علما واسعا وسلطانا عظيما لم يؤته أحد من بعده، فكان يعرف لغة الطير والنمل وسائر الحيوانات، وكانت الريح تجري بأمرِهِ وتنقلِه إلى أي مكان يشاء، وسخر

الله له الجن والإنس والحيوان ليكونوا جنداً له، وأنعم الله عليه بذكاء كبير وبمقدرة فائقة على الفصل في الأمور المستعجلة والقضايا الشائكة، ولكنه وبالرغم من كل ما يمتلكه من علم وذكاء واطلاع وإمكانيات جبارة، لم يستطع الوصول إلى علم وصل إليه جندي من جنوده البسطاء، هذا الجندي لم يكن عالما من العلماء، أو فقيها من الفقهاء، أو حتى مجرد إنسان، بل كان مجرد حيوان صغير، استطاع الوصول إلى علم لم يصل إليه نبي من أنبياء الله، ليس لأن الهدهد كان أذكى أو أقوى من نبي الله سليمان عليه السلام، وليس لأن إمكانياته كانت أكبر أو حتى يمكن مقارنتها بالإمكانيات الجبارة التي كان يمتلكها سليمان عليه السلام الذي يعتبر أحد أعظم ملوك الأرض في التاريخ إن لم يكن أعظمهم على الإطلاق، بل لأن الهدهد كان يمتلك جناحين صغيرين اختار أن يحلق بهما عاليا في السماء، ليصل إلى مكان لم يصله سليمان عليه السلام، وهذا ليس عيبا في نبي الله، ولكنها سنة الحياة، وطبيعة الخلق، وتمايز الأشياء، فما يعلمه الهدهد قد لا يعلمه سليمان عليه السلام، وما يعلمه سليمان عليه السلام قد لا يعلمه أبوه داود عليه السلام، وما تعلمه أنت بحكم ظروفك وخبراتك في الحياة قد لا أعلمه أنا، وما أعلمه أنا بحكم دراستي وتجاربي الخاصة قد لا يعلمه أستاذي الذي علمني الكتابة، وهذا الأمر لا ينقص من قدر أحد، أو يعني بالضرورة أفضلية أحد على غيره، فسليمان عليه السلام هو قطعا أفضل من الهدهد، ولكن هذا لا يمنع أن الهدهد توصل إلى علم يجهله سليمان عيله السلام، وذلك بفضل إمكانياته الخاصة، ومجهوده الذاتي، وربما فضوله وذكائه وشغفه لاكتشاف ما هو جديد، وقبل كل شيء لا ينبغي على المرء أن ينسى أن كل مخلوق ميسر لما قدر له، لذلك لم يغضب سليمان عليه السلام عندما أخبره الهدهد أنه أحاط بما لم يحط به هو، بل على العكس من ذلك، جعله مبعوثه الخاص إلى مملكة سبأ، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على حكمته وثقته بنفسه، على عكس كثير من الذين يحسدون غيرهم على فضل آتاهم الله إياه، أو على علم لم يتوصلوا إليه هم، فلولا هذا الاختلاف في معارف الناس وقدراتهم لما تطورت مسيرة العلم عبر التاريخ، ولا تقدمت الحضارة الإنسانية من جيل إلى آخر، ولأصبح الناس جميعا أمة واحدة، وبالرغم من أن الحسد يعتبر من أهم العوامل التي يحارب من أجلها كل من يأتي بعلم جديد، إلا أنه لا ينبغي تجاهل ظاهرة بشرية تكررت عبر التاريخ في كل زمان ومكان، وهي وجود أشخاص يكرهون التجديد، ويخشون التغيير، فلا يضيفون شيئاً جديدا طيلة سنوات عمرهم الضائعة، ولا يتركون أثرا في هذه الحياة قبل رحيلهم منها!

وقد كانت الأسباب التي منعت كفار قريش من الإيمان بدين الإسلام كثيرة، فالبعض كانت الغيرة هي دافعه الأول للكفر، مثل فرعون الأمة أبي جهل، الذي كانت الغيرة تملأ قلبه لأن النبي محمد صلى الله عليه وسلم ينتمي إلى

بني هاشم بن عبد مناف بدلا من عشيرته بني مخزوم، وقد صرح بذلك بشكل مباشر في إحدى المناسبات:
"تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء! فمتى ندرك هذه؟ ! والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه".
ومن تأمل فيما جاء في القرآن والسيرة عن أسباب إعراض كفار قريش عن دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سيجد أن عوامل الغيرة والحسد والكبر لم تكن العوامل الوحيدة التي دفعت الجميع لعدم تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلقد كان هناك أيضا من اختار عدم الدخول في الإسلام لأنه وبكل بساطة لا يقبل التجديد، ولا يرغب في تغيير الوضع القائم الذي ورثه عن آبائه وأجداده، يقول الله سبحانه وتعالى في وصف مثل هؤلاء:
" وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (170)" (1)

---

(1) سورة البقرة الآية 170.

ولعل أبا طالب عم الرسول صلى الله عليه وسلم من أبرز الأمثلة على هذه النوعية من البشر، فأبو طالب لم يكن كأبي جهل يغار من الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل على العكس من ذلك كان يحب ابن أخيه حبا كبيرا، ودافع عنه أمام كفار قريش بكل ما يملك من قوة، وضحى من أجله وعانى، ولكنه وبالرغم من كل ذلك لم يرغب في تبديل دين أبيه عبد المطلب الذي ورثه عنه، بالرغم من محاولات الرسول صلى الله عليه وسلم العديدة معه، والتي استمرت حتى آخر لحظة في حياته: "لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عم! قل لا إلة إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟! فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه، ويعودان بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله الا الله"(1).
هذه النهاية الحزينة لأبي طالب كات بسبب خوفه من تغيير موروثاته الثقافية وتجربة ما هو جديد، ولكن أبا طالب كان شخصا طيباً لم يعاد ابن أخيه محمداً صلى الله عليه وسلم لأنه جاء بشيء جديد، ولم يضطهد ابنه عليا رضي الله عنه لاتباعه هذا الدين الجديد منذ فجر البعثة، فكان تأثير قناعاته الخاطئة محدودا عليه وحده، على الرغم من الحزن الشديد الذي خلفه موته كافرا على نفس الرسول صلى

الله عليه وسلم ونفوس المسلمين الذين تمنوا وما زالوا يتمنون لو
أن رجلا طيبا مثله مات على الإسلام، ولكن الكارثة الكبرى تكون
عندما يتولى السلطة السياسية أو الدينية أشخاص ضيقو الأفق لا
يمتلكون طيبة وسماحة أبي طالب، فلا يكتفون بالجمود الفكري
وحسب، بل يقومون أيضا بشن حرب شعواء على كل صاحب فكر
جديد من شأنه تغيير الموروثات الخاطئة أو إضافة شيء جديد فيه
خير للبشرية، وقد سيطر مثل هؤلاء الأشخاص على أوروبا في
القرون الوسطى، بعد أن استخدموا مراكزهم الدينية المتقدمة في
الكنيسة الكاثوليكية في قمع كل صاحب فكر جديد يخالف آراءهم،
فقاموا بسجن وقتل وحرق وتعذيب الكثير من العلماء والمفكرين
الذين ظهروا في عصر النهضة في أوروبا، مثل العالم الإيطالي
جاليليو جاليلي(٢)لذي حاكمته الكنيسة عام 1633 م بتهمة الهرطقة،
أي الزندقة والابتداع، وذلك لأنه جاء بعلم جديد يخالف معتقدات
الكنيسة، بعد أن أثبت علميا أن الأرض تدور حول الشمس وليس
العكس كما كانت الكنيسة تعتقد، ليدان جاليليو من قبل محكمة
تفتيش كاثوليكية تابعة للكنيسة، ليموت بعدها تحت الإقامة الجبرية،
قبل أن يثبت العلم الحديث صحة نظرية جاليليو جاليلي بمركزية
الشمس، الأمر الذي دفع الكنيسة لتبرئته رسميا عام 1992 م وتقديم
اعتذار له من قبل بابا الفاتيكان، وللإنصاف فإن مثل هؤلاء الأشخاص

---

(1) غاليليوغاليلي 1564 -1642، عالم فلكي وفيلسوف وفيزيائى إيطالى ظهر في عصر النهضة.

محدودي الأفق الفكري موجودون في كل دين وملة بما فيها الإسلام، مع التسليم بأن الكنيسة الكاثوليكية في القرون الوسطى كانت الأكثر قمعا وظلامية، ففي تاريخ الإسلام حورب كثير من المصلحين والمجددين بسبب آرائهم الفكرية واجتهاداتهم الفقهية التي خالفت في وقتها أصحاب السلطة السياسية والدينية، ونحن لا نتحدث هنا عن الأشخاص الذين ظهروا في تاريخ الإسلام ببدع وأفكار ما أنزل الله بها من سلطان تخالف ثوابت الدين وركائزه، ولا نقصد بحديثنا عن المجددين من يدعون لهدم قواعد الدين الثابتة في الكتاب والسنة بحجة التجديد و الإبداع الفكري، وإنما نقصد بهم علماء ومفكرين مشهود لهم بالصلاح، كانت لهم اجتهادات علمية وآفاق فكرية واسعة تصادمت مع أصحاب النفوذ السياسي والديني في وقتهم، مثل حالة إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل رحمه الله الذي تعرض للاضطهاد والسجن

والتعذيب لسنوات طويلة لأنه خالف بعض المعتقدات والآراء الدينية التي تبنتها السلطة السياسية والدينية في زمنه، قبل أن يتم الإفراج عنه بعد إثبات صحة اعتقاده، وفساد اعتقاد السلطة الدينية السائدة في زمانه ممثلة بالمعتزلة، ليستحق الإمام أحمد بن حنبل أن يطلق عليه المسلمون على مر الزمان لقب إمام أهل السنة والجماعة، بعد أن قرر عدم التنازل عن الحقائق العلمية الثابتة، ورفض الرضوخ للتيار الديني الفاسد الذي كان متنفذا في السلطة في زمانه، فالسمكة الميتة فقط، هي السمكة التي تجري دائما مع أي تيار يجرفها!

والرسول صلى الله عليه وسلم كان صاحب أفق فكري واسع إلى أبعد الحدود، فحتى قبل أن ينزل عليه الوحي ويصبح نبيا في سن الأربعين رفض أن يتبع الموروثات الفاسدة لقومه، أو أن يجري في تيار مجتمعه بكل ما فيه، بل اختار أن يأخذ الأمور الإيجابية فقط من كل ذلك، ويضرب بعرض الحائط ما دون ذلك، فاختار ألا يكون على دين قومه في عبادة الأوثان، فلم يسجد لصنم قط، ولم يشرب الخمر في حياته، ولم يأكل أبدا من ذبائح قومه التي كانت تذبح على الأنصاب(أ)، وكان صلى الله عليه وسلم يخرج إلى غار حراء ليخلو بنفسه عن مجتمعه

---

(1) الأنصاب ما كان ينصب على الأرض ويذبح عليه المشركون ذبائحهم وقرابينهم التي يتقربون بها لأصنامهم.

الوثني، ليتعبد الله في ذلك المكان الهادئ، متأملا في خلق السماوات والأرض، وقدرة الخالق وبديع صنعه، ليزداد اتساع أفقه الفكري أكثر فأكثر في ذلك المكان الهادئ البعيد عن الفساد الديني لمجتمعه.

ولم يقتصر اتساع أفق الرسول صلى الله عليه وسلم على الأمور الدينية، بل كان يرحب دائما بكل إبداع إنساني جديد فيه خير للناس، حتى وإن كان هذا الإبداع مستوردا من الخارج، وهذا تماما ما حصل في السنة الخامسة للهجرة: فبعد أن عقد الرسول صلى الله عليه وسلم مجلسا استشاريا طارئا لمناقشة سبل صد زحف الغزاة نحو المدينة، تقدم الصحابي سلمان الفارسي رضي الله عنه بمقترح خطة دفاعية عسكرية لم تستخدمها العرب من قبل في تاريخ الجزيرة العربية بأسرها، هذه الخطة كانت تقضي بأن يحفر المسلمون خندقا دفاعياً يحول دون تقدم جيش الأحزاب داخل المدينة، فقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: "إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا"(1) .

---

(1) فتح الباري لابن حجر العسقلاني.

هذه الخطة الجديدة التي جاء بها سلمان الفارسي رضي الله عنه من خلال تجاربه وخبرا ته الخاصة في بلاد فارس لاقت استحسانا وترحيبا من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يمتلك أفقا فكريا واسعا يتسع لكل المقترحات الجديدة والأفكار الخلاقة، طالما أنها لا تتنافى مع الثوابت أو تتعارض مع المصلحة العامة، على عكس كثير من الناس الذين يحصرون أنفسهم في مساحة محدودة بأفكار تقليدية مكررة، هي نتاج طبيعي لعقولهم المتحجرة التي لا تقبل التغيير، ولا ترغب بتجربة ما هو جديد، لذلك قرر الرسول صلى الله عليه وسلم الأخذ بمقترح صاحبه الفارسي، على الرغم من عدم قيام أي أحد في جزيرة العرب من قبل بتجربة مثل هذا النوع من الخطط الدفاعية، فكان الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بذلك أول إنسان في تاريخ الجزيرة العربية يستخدم مثل هذا التكتيك الدفاعي!

وبعد معاينة لجغرافية المدينة، قرر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم اختيار الجهة الشمالية للمدينة ليحفر فيها الخندق، وأعطى بعد ذلك إشارة البدء لتنفيذ ذلك المشروع الهندسي الضخم، مشروع حفر الخندق!

ولكن لماذا اختار الرسول صلى الله عليه وسلم الجهة الشمالية دون غيرها من الجهات لحفر الخندق؟ وما هي تفاصيل ذلك المشروع الهندسي الضخم؟ وكيف تم تنفيذه على أرض الواقع؟ وما هو الدور الذي كان يقوم به القائد العام للمسلمين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم أثناء عملية حفر الخندق؟

الإدارة الناجحة

"لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه"(1)
كان مشروع حفر الخندق مشروعا هندسيا عملاقا بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وكان يتحتم لنجاح مثل هذا المشروع الضخم والمعقد وجود إدارة سليمة تشرف على كل تفاصيله الدقيقة، وقد أظهر الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال إشرافه العام على مشروع الخندق عبقرية فذة في فن الإدارة، ظهرت تجلياتها بشكل خاص أثناء عملية الحفر، وما رافق ذلك من أحداث خطيرة أثناء غزوة الخندق بشكل عام، ومن خلال السطور القليلة القادمة سنسلط الضوء على بعض مظاهر تلك الإدارة الناجحة للرسول صلى الله عليه وسلم ، وسنحاول تبسيط

---

(1) صحيح البخاري.

هذه المظاهر وتوضيحها قدر الإمكان من خلال استخدام الأمثلة والشواهد الحية:

1- تحديد الإمكانيات المتاحة: علم الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال جهاز الاستخبارات الإسلامية أن الغزاة يقدر عددهم ب 10 آلاف مقاتل، في حين أن جيش المسلمين بأكمله يقدر عدده ب 3 آلاف مقاتل، أي أن الكثرة العددية في صالح العدو، خاصة وأن عددهم قابل للزيادة في حال انضمام قبائل جديدة لتحالف الأحزاب، فكان خيار الصدام العسكري المباشر يعني خوض معركة عسكرية في غاية الخطورة لمواجهة جيش يزيد عدده عن 3 أضعاف جيش المسلمين، ولكن ورغم خطورة الصدام العسكري المباشر وتفوق الأعداء العددي، فإن الانتصار في مثل هذه المعركة ليس أمرا مستحيلا، خاصة وأن المسلمين بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم انتصروا على قريش في السابق في غزوة بدر الكبرى على جيش يقدر عدده ب 3 أضعاف عددهم، أي أن التناسب العددي بين جيش المسلمين والأعداء متقارب في غزوتي بدر والأحزاب، ولكن الخطورة تكمن في أن المسلمين حاربوا في بدر بجزء صغير من عددهم الكلي، فلو قدر أنهم انهزموا أو انسحبوا سيكون هناك من يحمي المدينة، أما في حالة مواجهة الأحزاب فإن المسلمين سيقاتلون بكامل عددهم، فلو تمكن الأحزاب من هزيمتهم سيعني ذلك سقوط المدينة وانهيار

الدولة، لذلك كان خيار التحصن داخل المدينة ومنع الأحزاب من اقتحامها هو الخيار الأمثل، خاصة أن الرسول صلى الله عليه وسلم درس أيضا إمكانيات العدو المتاحة، فالأحزاب جاءوا للقتال المباشر السريع، وأعدوا العدة لمعركة خاطفة يدمرون من خلالها القوة الإسلامية، فلم يحسبوا حساب البقاء لمدة طويلة لحصار المدينة، وهي نقطة في صالح المسلمين الذين يرابطون داخل أرضهم، على عكس الغزاة الذين سيحتاجون لمصادر تموين هائلة لإطعام جيش مكون من 10 آلاف مقاتل، إضافة إلى أعداد هائلة من الدواب تحتاج إلى غذاء وماء بشكل دائم، وبذلك استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم بكل ذكاء أن يحول تفوق العدو العددي إلى نقطة في صالح المسلمين، وفي ظل نقص مصادر التموين للأحزاب، وشكل قواتهم بالأساس من قبائل متفرقة مختلفة الأهداف، إضافة للأجواء المناخية الصعبة في ذلك الوقت من السنة، فإن إطالة أمد الحرب يعني أن العدو سيسقط لا محالة في نهاية الأمر كالثمرة العفنة، وهذا ما حصل بالضبط كما سنرى لاحقا، لذلك فإن دراسة الإمكانيات المتاحة قبل الإقدام على أمر من الأمور يعد من أهم خطوات الإدارة الناجحة، وهو الأمر الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدركه تمام الإدراك.

الدراسة العلمية للأمور: لم يكن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم يدير الأمور بفوضوية أو يتركها لتجري دون تخطيط أو دراسة مسبقة، بل على العكس من ذلك، فقد كان يدير الأمور بعناية فائقة، ويدرس خطواته بدقة، ويعتني بالتفاصيل الصغيرة، ويتخذ قرارته المستقبلية وفقا لدراسات مبنية على الحقائق العلمية، وليس وفق الانفعالات العاطفية، أو الخيالات التي لا وجود لها على ساحة الأرض، فمهما كانت قضيتك عادلة، ومهما كانت نيتك صافية، فإنه لن يكون بمقدورك ضمان النجاح إذا لم تخطط جيدا للأمور، فالعمل العشوائي يؤدي في غالب الأحيان إلى الفشل، لذلك حرص رسول اله صلى الله عليه وسلم على عمل دراسة علمية لمشروع الخندق قبل البدء بخطوات الحفر، وخرج في جولة ميدانية لتحديد المكان الأنسب للحفر، فركب الرسول صلى الله عليه وسلم فرسا له ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار)، وقرر في نهاية الأمر أن يحفر الخندق في شمال المدينة.

ولم يكن قرار الرسول صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق في هذا المكان قرارا عشوائيا، بل كان نتاجا لدراسة علمية لطبيعة المهمة،

وجغرافية المدينة، والامكانيات المتوفرة، والوقت المتاح للعمل قبل وصول الأحزاب إلى المدينة، فقد بدا واضحا استحالة حفر خندق يحيط بكل أنحاء المدينة في ضوء الإمكانيات المادية والبشرية المتوفرة والوقت الضيق المتاح للعمل، والرسول صلى الله عليه وسلم إنسان عاقل لا يضيع وقته وجهده على مشاريع وهمية يستحيل تطبيقها على أرض الواقع، لذلك قرر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يستفيد من جغرافية المدينة، فالمدينة محصنة طبيعيا بشكل شبه كلي من الجهات الجنوبية والشرقية والغربية، ففي الشرق توجد الحرة الشرقية المسماة بحرة واقم، وفي الغرب تحدها الحرة الغربية وتسمى أيضا بحرة الوبرة، والحرة عبارة عن أراضي وعرة تتكون تكثر بها الهضبات والتلاع(1) والمرتفعات والمنخفضات، وتتناثر على سطحها الصخور البركانية القاسية التي تجعل من الصعب إن لم يكن من المستحيل السير عليها، وقد سميت الحرة بهذا الاسم لأن جزءاً كبيراً من سطحها مغطى بصخور وحجارة بركانية سوداء تجعلها شديدة الحرارة في الصيف.

(ا) التلاع جمع التلعة: وهي ما ارتفع من الأرض.

2. الثقة بالنفس وعدم الالتفات لآراء الناس السلبية: كان خيار التحصن داخل المدينة وحفر خندق يمنع الالتحام المباشر مع العدو خيارا استراتيجيا جريئا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالعرب بثقافتهم القبلية يعتبرون مقابلة العدو المباشرة من مظاهر الشجاعة والقوة، ويعدون تجنب ملاقاة العدو جبنا وضعفا، لذلك عندما تفاجأ الأحزاب بوجود الخندق، اعتبروا أن ما قام به الرسول صلى الله عليه وسلم يعد جبنا وضعفا منه، وحتى بعد هزيمتهم النكراء في نهاية المعركة، أخذ شعراؤهم يتبجحون بشعرهم وينكرون على المسلمين تحصنهم بالخندق، فقال شاعرهم ضرار بن الخطاب الهري(1):

فلولا خندق كانوا لديه لدمرنا عليهم أجمعينا

ولكن حال دونهم وكانوا به من خوفنا متعوذينا

بينما قال شاعر آخر هو عبد الله بن الزبعرى(2):

لولا الخنادق غادروا من جمعهم قتلى لطير سئب وذئاب

---

(1) ضرار بن الخطاب: أبوه الخطاب بن مرداس سيد بني فهر، وضرار بن الخطاب هو شاعر قريش و أحد أشهر فرسانها، أسلم في فتح مكة وتحول إلى أحد أشجع فرسان الصحابة رضوان الله عليهم، وشارك في معركة القادسية وهو الذي استطاع أخذ راية الإمبراطورية الفارسية الكبرى "درفش كابيان".

(2) عبد الله بن الزبعرى: شاعر قريش في الجاهلية، كان هو وضرار بن الخطاب أعظم شعراء مكة على الإطلاق ، حارب المسلمين في شعره بشراسة وبعد فتح مكة هرب إلى نجران ، ثم عاد إلى مكة وأسلم واعتذر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ومدحه في شعره ليكون عبد الله بن الزبعري من ضمن الصحابة رضي الله عنهم

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يلتفت لمثل تلك السخافات، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم واثقا من نفسه، مؤمنا بعدالة قضيته، يملك فكرا تقدميا يختلف عن الفكر السطحي المتخلف الذي ورثه هؤلاء من أجدادهم، فهو يستخدم خطة عسكرية تستخدمها جيوش أعظم إمبراطوريات الأرض منذ مئات السنين، فلم يأبه لآرائهم أو نظرتهم له حين قرر أن يستخدم مثل هذه الخطة العسكرية التي فاجأتهم وأربكت حسااتهم، وقد أثبتت خطته فعاليتها ونجاحها على أرض المعركة، واستطاع الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينتصر على ذلك التحالف الجرار انتصارا عظيما دون أن يعرض أرواح آلاف الجنود والمدنيين للتهلكة، وكل هذا ما كان ليتم لو أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان إنسانا مهزوزا يفتقد للثقة ويخاف من آراء الحاسدين والفشلة الذين يهدفون لإيقاف تقدم الإنسان الناجح في مسيرة الحياة، ومثل هؤلاء موجودون في كل زمان ومكان، فإما أن ترضخ لهم وتتوقف في طريقك خوفا من آرائهم السلبية النابعة من نفوسهم المريضة، وإما أن تكون كرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قويا، ثابتا، واثق الخطى، فتمضي في طريقك، دون أن تلتفت لهم، أو تلقي لآرائهم فيك أي اهتمام!

أما جنوب المدينة فقد كان من الصعب اختراقه من جيش الغزاة، فقد كانت الدور هناك عالية البنيان ومتلاصقة مع بعضها البعض، فشكلت ما يشبه الحصن الذي يمنع تقدم الجيوش الغازية من جهة الجنوب، إضافة لوجود أحراش وموانع طبيعية كانت تزيد من صعوبة اختراق الجنوب، الجهة الوحيدة التي لم يكن المسلمون يسيطرون عليها في الجنوب هي جهة الجنوب الشرقي التي تستوطن فيها قبيلة بني قريظة، وقد كانت آطامهم، أي حصوغهم التي يسكنون داخلها، تمثل مانعا صناعيا يحمي المدينة من الجهة الجنوبية الشرقية، وكانت هذه القبيلة اليهودية على عهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لا

يقضي فقط بعدم معاونة الغزاة على حرب المسلمين، بل كان هناك بند واضح في دستور الدولة المعروف ب"وثيقة المدينة" يقضي بضرورة الدفاع المشترك عن المدينة ضد أي تدخل خارجي: "إن بينهم النصر على من دهم يثرب"(1). وقد كان يهود بنو قريظة على علاقة طيبة مع الرسول

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير.

صلى الله عليه وسلم، وأكدوا احترامهم للعهد الذي بينهم وبين المسلمين، واستعدادهم التام على إغلاق حصونهم في وجه الغزاة، ليس ذلك وحسب، بل أعار بنو قريظة المسلمين الكثير من الآلات والأدوات التي ساعدتهم في عملية حفر الخندق(1)، الذي كان طوله يقارب 5 كيلومترات ونصف، ووفقا لأطلس السيرة النبوية للدكتور شوقي أبو خليل رحمه الله، فإن طول الخندق كان 44 55 مترا، ومتوسط عرضه 4.62 مترا، ومتوسط عمقه 3.23 مترا(2)، إضافة لبعض الحفريات والتحصينات الأخرى التي أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالقيام بها في مواقع متفرقة في المدينة لسد الثغرات في الجهات الأخرى التي يمكن من خلالها للغزاة اقتحام المدينة، وقد اختار الرسول سفح جبل سلع ليكون مقرا لتمركز القيادة الإسلامية العامة للمعركة، بحيث يشرف من ذلك الموقع المتميز على الخندق ومن خلفه جيش الأحزاب، وفي نفس الوقت سيشكل الجبل حماية طبيعية

---

(1) المغازي للواقدي .

(2) أطلس السيرة النبوية للدكتور شوقي أبو خليل.

لظهر الجيش الإسلامي، وبعد أن استعد لهذا المشروع الضخم بتلك الدراسة العلمية المفصلة، يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد تجهز لإطلاق إشارة البدء لعمليات حفر الخندق الدفاعي الأول من نوعه في جزيرة العرب!
3- مشاركة المدير لعماله في العمل: من أكبر الأخطاء الإدارية التي يمكن أن تؤدي إلى فشل أي مشروع هو تكبر المدير على من يعملون تحت إمرته، فيعتبرهم مجرد عبيد لديه ينبغي لهم تنفيذ أوامره التي يوجهها لهم من برجه العاجي، هذا الأمر من شأنه أن يؤثر بالسلب على العلاقة بين المدير وعماله، مما سيؤدي بطبيعة الحال إلى ضعف في جودة العمل وبطء في العملية

الإنتاجية، إضافة لذلك كله فإن بعد المدير عن موقع العمل سيحول بينه وبين إدراك تفاصيل العمل وتعقيداته التي قد تستجد أثناء تأديته، وسيترك المجال للفوضى أن تعم في العمال، وعلى العكس من ذلك، فإن أحس العمال أن مديرهم يتعامل معهم بتواضع وإنسانية، فمن الطبيعي وقتها أن يزداد إخلاصهم في تأدية عملهم على أكمل وجه، الأمر الذي سينعكس حتما بالإيجاب على جودة وسرعة العمل، وقد أظهرت عمليات حفر الخندق أن الرسرل محمد صلى الله عليه وسلم كان يشارك بشكل مباشر في عمليات الحفر، وكان ينقل التراب بنفسه، على الرغم من مركزه القيادي في قمة هرم السلطة للدولة، وعمره المتقدم الذي اقترب حينها من الستين عاما، ويصف أحد الصحابة المشاركين في مشروع الخندق، وهو البراء بن عازب رضي الله عنه، ما رآه أثناء عمليات الحفر: "لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه"(1).

ولم يكتف الرسول صلى الله عليه وسلم بمشاركة عماله في ميدان العمل، بل شاركهم أيضا في تحمل المصاعب التي كانوا يواجهونها أثناء العمل من جوع وبرد وظروف مناخية قاسية، وقد ربط الرسول صلى الله عليه وسلم حجرا على بطنه من شدة الجوع أثناء حفر الخندق، ولكنه وبالرغم من شدة جوعه لم ينس أصحابه من حوله، فعندما سمحت له فرصة للطعام

---

(1) صحيح البخاري.

دعاهم جميعا لمشاركته، فقد أشفق أحد الصحابة واسمه جابر بن عبد الله رضي الله عنه على حال الرسول صلى الله عليه وسلم ، فذهب إلى بيته ليسأل زوجته إن كان هناك ما يمكن تقديمه من طعام إلى رسول صلى الله عليه وسلم ، فأعدت زوجته طعاما قليلا هو كل ما يملكانه، فذهب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليدعوه إلى الطعام، وأخبره أنه يمكن أن يكفي لرجلين إضافيين على أفضل تقدير، فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن نادى أهل الخندق جميعا من المهاجرين والأنصار يدعوهم للانضمام إلى هذه الوليمة، ليحدث بعد ذلك أمر عجيب يرويه جابر بن عبد الله رضي الله عنه: " إنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كدية(1) شديدة، فجاءوا النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا(2)، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم المعول، فضرب، فعاد

(1) كدية: صخرة صلبة لا تؤثر فيها المعاول.
(2) لا نذوق ذواقا، يعتى: لا ناكل.

كثيبا أهيل، أو أهيم(1)، فقلت: يا رسول الله ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي صلى الله عليه وسلم شيئا ما كان في ذلك صبر(2)، فعندك شيء؟ قالت: عندي شعير وعناق(3)، فذبحت العناق، وطحنت الشعير، حتى جعلنا اللحم في ادمة(4)، ثم جئت النبى صلى الله عليه وسلم والعجين قد انكسر(5) والبرمة بين الأثافي(6) قد كادت أن تنضج، فقلت: طعيم(7) لي فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: كم هو؟ فذكرت له، قال: كثير طيب، قال: قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي، فقال: قوموا، فقام المهاجرون والأنصار، فلما دخل على امرأته قال: ويحك! جاء النبي صلى الله عليه وسلم

(1) فعاد كثيبا أهيل أو أهيم، يعني: انهالت الصخرة وتفتتت.
(2) ما كان في ذلك صبر يعني منظر الجوع الذي يبدو على الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمكن الصير عليه.
(3) العناق: أنثى المعز لصغير.
(4) لبرمة: القدر.
(5) العجين قد انكسر : معنى لان و صار ر طبا و تمكن منه الخمير ويمكن أن يخبز الآن.
(6) الأثافي:هي الحجارة التي يوضع عليها القدر
(7) طعيم: مصغر طعام، دلالة على قلة الطعام.

بالمهاجرين والأنصار ومن معهم! قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، فقال: ادخلوا ولا تضاغطوا، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية، قال : كلي هذا وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة"(1)

4- خلق بيئة عمل مساعدة: بيئة العمل من بين أهم العوامل التي من شأنها التأثير على سير العملية الإنتاجية، فإذا كانت بيئة العمل بيئة مرضية لا يشعر

فيها العامل بالراحة في مكان العمل، أو أحس أنه يعامل بطريقة غير عادلة من قبل المسؤولين، أو أن مجهوداته لا تحظى بالتقدير المناسب، فإن ذلك سينعكس مباشرة على إنتاجيته، وسيؤدي إلى فقد الرغبة في العطاء، وغياب الانسجام مع الزملاء، وهذا كله سيؤدي في نهاية الأمر إلى الفشل!

لذلك فإن المدير الناجح هو الذي يتمكن من توفير بيئة عمل صحية لعماله لضمان استمرار العملية الإنتاجية بنجاح، وقد عمل الرسول صلى الله عليه وسلم أثناء عمليات حفر الخندق على خلق بيئة عمل مثالية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فعلى الرغم من الظروف الصعبة التي واجهت المسلمين أثناء حفرهم للخندق، من جوع وبرد وترقب لقدوم الأعداد وعمليات حفر شاقة، فإن جوا من السعادة والجمال والتعاون والمرح والأمل كان سائدا بين الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه طيلة فترات الحفر، وقام الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك بتقسيم عمليات الحفر على الصحابة رضي الله عنهم بشكل عادل، بحيث يحفر كل منهم قدرا معينا من الخندق، وسمح لبعضهم بأخذ إجازة من العمل لكي يرجعوا إلى المدينة لتفقد عائلاتهم وقضاء أمورهم الخاصة، قبل أن يعودوا من جديد لاستكمال أعمالهم بهمة ونشاط.

ولا شك في أن هذا الظرف بطبيعة الحال يحتاج إلى قدر كبير من الحزم، والجد، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينس في هذا الظرف أن هؤلاء الجند إنما هم بشر كغيرهم، لهم نفوس بحاجة إلى الراحة من عناء العمل، كما أنها بحاجة إلى من يدخل السرور إليها حتى تنسى تلك الآلام التي تعانيها فوق معاناة العمل الرئيسي(1).

وقد روى أحد الصحابة الذين إشتركوا في حفر الخندق وهو الصحابي البراء بن عازب رضي الله عنه كيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يشارك بنفسه في عمليات الحفر، وبين من خلال كلماته كيف كان الرسول صلى الله عليه وسلم أثناء عمله في الخندق يرتجز بكلام ابن رواحة رضي الله عنه:

لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه وكان كثير الشعر فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل من التراب يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا   ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا   وثبت الأقدام إن لاقينا

---

(1) السيرة النبوية للدكتورعلى الصلابى.

إن الألى قد بغوا علينا   وإن أرادوا فتنة أبينا

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يمد صوته في آخر هذه الأبيات(1).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة وينقلون التراب على متونهم ويقولون:
نحن الذين بايعوا محمدا   على الإسلام مابقينا أبدا

والنبي صلى الله عليه وسلم يجيبهم ويقول:
اللهم لا خير إلا خير الآخرة فبارك في الأنصار والمهاجرة(2)
بيئة العمل الجميلة هذه التي كات سائدة أثناء إنجاز

---

(1) صحيح البخاري.

(2) صحيح البخاري

مشروع الخندق، تدفع المرء للدهشة من الكفاءة الإدارية العجيبة التي امتلكها الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكيف استطاع خلق مثل هذه الأجواء المرحة والتعاملات الحميمية على الرغم من الظروف الصعبة التي رافقت حفر الخندق، من جوع وبرد وبعد عن الأهل وترقب للغزاة الذين تحركوا بالفعل للقضاء عليهم نهائيا، ولولا وجود توثيق علمي دامغ يؤكد وقوع هذه الأحداث بالفعل، وذلك من خلال ورودها في أصح كتب الحديث عند المسلمين مثل كتاب صحيح البخاري، لكان من الصعب على المرء تخيل إمكانية تحقيقها على أرض الواقع، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على العبقرية الإدارية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الأمر الذي انعكس فعليا على سير العملية الإنتاجية، فقد عمل الجميع بجد وإخلاص لإنجاز المشروع في وقت قياسي، وهذا ما تحقق بالفعل على أرض الواقع، فقد نجح المسلمون تحت الإدارة المباشرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في إتمام حفر الخندق قبل وصول الغزاة إلى حدود المدينة، لتسجل هذه المجموعة اسمها في صفحات التاريخ، كأول مجموعة عمل ميداني تتمكن من حفر خندق دفاعي يجزيرة العرب! ولم تقتصر إدارة الرسول صلى الله عليه وسلم على الإشراف على عملية حفر الخندق، بل أعطى أوامره بتشكيل كتائب عسكرية ذات مهمات قتالية مختلفة، وقام بتحديد المكان والزمان لتواجد كل كتيبة من تلك الكتائب، فكانت هناك كتائب عسكرية لحراسة الخندق على مدار الساعة من نقاط مراقبة متقدمة مهمتها صد أي محاولة تسلل محتملة من قوات الغزاة، هذه القوات كانت مجهزة بشكل خاص

بالسهام والحجارة ليرمى بها الأعداء من بعد، وشكل الرسول صلى الله عليه وسلم قوات تدخل سريع متنقلة مهمتها الانتقال السريع نحو أي ثغرة يبلغ عنها أفراد الاستخبارات العسكرية الإسلامية الذين أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بانتشارهم في أرجاء مختلفة من المدينة، ولضمان تأمين المدينة من أي محاولة اختراق مباغت، أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم أمرا قياديا بتشكيل كتيبة خاصة متنقلة من الفرسان الأشداء بقيادة زيد بن حارثة رضي الله عنه مهمتها الطواف بشكل مستمر حول جميع جهات المدينة لمواجهة أي محاولة التفاف من قبل قوات العدو، وبالرغم من كل هذه الاحتياطات، أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بتشكيل قوات ميدانية لحراسة المدنيين من النساء والأطفال في المدينة، الذين أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بنقلهم إلى حصون آمنة داخل المدينة تحسبا لأي محاولة اختراق ناجحة من قبل الغزاة، بالإضافة لهذا كله كانت هناك وحدات خاصة بالدعم اللوجيستي للمعركة، و قوات عسكرية أخرى بمهمات قتالية متنوعة، وكانت كل هذه الكتائب والوحدات العسكرية المتنوعة متصلة بشكل مباشر بخيمة موجودة على جبل سلع، هذه الخيمة كانت مقر القيادة المركزية لجيش المسلمين، وقد تولى مهمة قيادة قوات الحرس الخاص لمقر القيادة المركزية للمسلمين القائد محمد بن مسلمة رضي الله عنه، في حين تولى القيادة المركزية العامة لجيش المسلمين من داخل هذه الخيمة القائد العام للقوات الإسلامية المجاهدة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وما إن وصل الأحزاب إلى حدود المدينة ورأوا الخندق حتى تفاجأوا بهذه الخطة الدفاعية التي لم يعرفوا لها مثيلا في تاريخ جزيرتهم، فقالوا: "والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها!"(1). ففشلت بذلك خطة الحرب الخاطفة التي جاء الغزاة بها لتدمير المدينة وسحق الإسلام، فشلت هذه الخطة قبل أن تبدأ، بسبب إدارة ناجحة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي أجبرهم على خوض حرب أخرى كان هو من حدد لهم نوعها، هذه الحرب هي حرب الاستنزاف، التي كان الوقت فيها لصالح المسلمين، الذين أفشلوا بكل شجاعة وبسالة كل محاولات الغزاة لاقتحام الخندق، وبدا أن الأمور تسير في صالح المسلمين، حتى حدث أمر مفاجئ غير من مجرى الأحداث بشكل دراماتيكي! فما هو هذا الأمر المفاجئ الذي أصبح المسلمون بعده

---

(1) سيرة ابن هشام

محاطين بأكبر خطر وجودي يتهددهم؟ وما هو القرار الذي اتخذه الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضي الله عنهم في تلك الحظة المصيرية؟

التحدي

" وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (22) "(1)

الحياة ليست بتلك البساطة التي كنا نتخيلها في صغرنا!

الحياة طريق طويل وصعب، ستواجهك فيه أثناء تقدمك كثير من المصاعب والمعوقات، وستلاحقك فيه وحوش مفترسة لا تعرف أي معنى للرحمة أو الشفقة، هذه الوحوش ستحاول جاهدة بكل ما أوتيت من قوة إيقاف تقدمك، وكسرك، وتمزيقك إربا إربا إن استطاعت، البعض يستسلم مباشرة منذ بداية الطريق، ليسلم نفسه لتلك الوحوش لكي تنال منه، والبعض يحاول الاستمرار بكل قوته، ويتقدم فعلا في

---

(1) سورة الأحزاب الآية 22.

طريقه، ولكنه يتوقف في منتصف الطريق بعد أن يفقد الدافع والأمل لإكمال مسيرته، فقط المؤمنون الذي لا يعرفون معنى لليأس هم الذين يتمكنون من إكمال الطريق حتى نهايته، هؤلاء هم الذين لا يبالون بالمصاعب التي تواجههم، ولا يكترثون بالوحوش التي تحاول إيقاف تقدمهم، بعد أن اتخذوا قرارا من أهم القرارات التي يمكن للإنسان أن يتخذها في حياته، قرار التحدي!

سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت حافلة برسائل التحدي منذ نعومة أظافره، فقد تحدى اليتم في صغره، وتحدى الفقر في شبابه، وتحدى الثقافة الدينية الفاسدة لمجتمعه القرشي، وتحدى الجوع والحصار في شعب أبي طالب، وتحدى الألم الذي رافق موت زوجته الغالية خديجة رضي الله عنها، وتحدى مأساة رؤيته لموت جميع أبنائه وبناته في حياته باستثناء فاطمة رضي الله عنها، وتحدى شعور الغربة القاسي بعد أن أجبره اضطهاد قومه له على ترك وطنه الحبيب مكة، وتحدى سخرية قومه واستهزائهم به، وتحدى تشكيك المنافقين في قدراته، وكان صلى الله عليه وسلم على الرغم من كل المصاعب التي واجهها في حياته يواصل التقدم في مسيرة حياته، رافضا التوقف في منتصف الطريق، فلم يسمح للإحباط أن ينال من عزيمته، ولم يترك مجالا لليأس أن ينفذ إلى قلبه.

لم يكن الخندق مجرد مشروع إنشائي تم إنجازه في الجهة الشمالية للمدينة المنورة، بل كان الخندق رمزا للتحدي الذي رفع رايته رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الأبطال رضوان الله عليهم، فقد تحدى المسلمون من خلال هذا الخندق قسوة الطبيعة، ونقص الإمكانيات، ومحدودية الوقت، ومشاعر الخوف، والإجهاد البدني، والضغط النفسي، والفكر التقليدي النمطي السائد في جزيرة العرب، وتحدوا فوق هذا كله التحالف الجرار لقوى الشر المتعددة المعروف بتحالف الأحزاب.

وقد كانت الأمور في بداية المعركة تسير في صالح المسلمين وفقا للخطة التي رسمها الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد صمد المسلمون في حرب الاستنزاف التي فرضها الرسول صلى الله عليه وسلم على الأحزاب، وباءت كل محاولات الغزاة لاقتحام المدينة بالفشل، فقد أدت الكتائب الدفاعية المختلفة والفرق القتالية الخاصة التي شكلها الرسول صلى الله عليه وسلم مهماتها على أكمل وجه، واستطاع المسلمون صد جميع محاولات اختراق الخندق، وبات واضحا أن عامل الوقت سيصب في صالح المسلمين، فالعدو خارج المدينة لم يعد العدة لحصار طويل، وإطالة أمد الحرب ستسقطه لا محالة كالثمرة العفنة!

واستمر الوضع على تلك الحال حتى حدث أمر مفاجئ كان بمثابة الزلزال الذي ضرب معسكر المسلمين!

فقد تحرك الشيطان صاحب فكرة تحالف الأحزاب، ومدبر خطة الاغتيال الفاشلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك بعام، زعيم قبيلة بني النضير اليهودية حيي بن أخطب النضري، فخطط لمؤامرة جديدة بعد أن رأى أمام عينيه انهيار خطة الحرب الخاطفة التي جاء بها لتدمير الإسلام والقضاء على المسلمين إلى الأبد، وتوجه إلى حصون يهود بني قريظة، ليقابل زعيمهم كعب بن أسد القرظي، الرجل الذي عقد نيابة عن قومه معاهدة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما سمع كعب بحيي بن أخطب أغلق دونه باب حصنه، فاستأذن عليه، فأبى أن يفتح له، فناداه حيي بن أخطب النضري: ويحك يا كعب افتح لي!

فأجابه زعيم بني قريظة كعب بن أسد القرظي: ويحك يا حيي، إنك امرؤ مشئوم، وإني قد عاهدت محمدا، فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاء وصدقا!

فقال حيي بن أخطب: ويحك افتح لي أكلمك!

فرد كعب بن أسد: ما أنا بفاعل!

فقال حيي بن أخطب مستفزا سيد بني قريظة في محاولة لإقناعه بفتح الباب: والله إن أغلقت دوني إلا عن جشيشتك(٢) أن آكل معك منها!

---

(1) الجشيشة: نوع من الطعام، والجشيشة أو الدشيشة نوع من الطعام، ووصفها ابن الأثير في كتابه البداية : وهي أن تطحن الحنطة طحنا جليلا، ثم تجعل في القدور ويلقى عليها لحم أو تمر وتطبخ.

فغضب كعب وفتح الباب، فدخل عليه حيي بن أخطب وقال له: ويحك يا كعب! جئتك بعز الدهر، وببحر طام(1)، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى إلى جانب أحد، قد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه!
فرد عليه كعب بن أسد: جئتني والله بذل الدهر، وبجهام(2)، قد هراق(2) ماءه، فهو يرعد ويبرق، ليس فيه شيء، ويحك يا حيي! فدعني وما أنا عليه، فإني لم أر من محمد إلا صدقا ووفاة. ولكن حيي بن أخطب استمر في محاولة إقناع كعب بن أسد

---

(1) البحر الطامي: هو البحر المرتفع الكثير الماء، أراد أن يشبه عدد القوم في كثرته بالبحر لأنه يغطي جوانبه كلها. (دلائل النبوة للبيهقي).
(2) الجهام: السحاب الرقيق الذي لا ماء فيه، أي جئتني بالوهم.
(3) هراق: صب، أي أنه خال من المطر

بأن ينقض عهده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب(1)، ووعده بأنه لن يتركهم حتى وإن انسحبت قريش وغطفان وتركت بني قريظة لوحدهم، وأقسم لكعب بن أسد: لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك!(2) .
فاقتنع سيد بني قريظة كعب بن أسد بكلام سيد بني النضير حيي بن أخطب، وأعلن قبوله المشاركة في هذه المؤامرة، ونقض عهده مع المسلمين، وفتح أبواب حصونه لجحافل الغزاة، لكي يقتحموا من خلالها المدينة، ويرتكبوا فيها مذبحة كبيرة ينهون من خلالها الإسلام والمسلمين.
وبعد مغادرة حيي بن أخطب حصون بني قريظة، تمكنت

---

(1) يفتله في الذروة والغارب: أي لم يزل يخادعه كما يخادع البعير النافر. (دلائل النبوة للبيهقي).
(2) وردت تفاصيل هذا اللقاء بين سيدي اليهود في مصادر تاريخية عدة، منها سيرة ابن هشام، تاريخ الطبري، والبداية والنهاية لابن كثير.

الاستخبارات العسكرية الإسلامية من رصد أخبار نقض بني قريظة للعهد، وأوصلت هذه المعلومات السرية إلى مركز القيادة حيث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتأكد من هذا الأمر الخطير، فبعث بالزبير بن العوام رضي الله عنه في مهمة استخباراتية سرية إلى حصون بني قريظة لكي يأتي له بأنباء القوم، فرجع الزبير رضي الله عنه من تلك المهمة وقال للرسول صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، رأيتهم يصلحون حصونهم ويدربون طرقهم، وقد جمعوا ماشيتهم! (٢)

ولما انتهى الخبر إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، بعث سعد ن معاذ رضي الله عنه وسعد بن عبادة رضي الله عنه سيدا الأنصار، ومعهما عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، وخوات بن جبير رضي الله عنه، فقال: انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحنا أعرفه(2)، ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس.

---

(1) المغازي للواقدي.

(2) الحنوا لي لحنا أعرفه: يعني أخبروني عن غدر هم بشكل غير مباشر عن طريق
التلميح لكيلا ينتشر الخبر بين جند المسلمين فيضعف ذلك من معنوياتهم.

فخرجوا حتى أتوهم(1)، فلما انتهوا إلى سيد بني قريظة كعب بن أسد سألوه عن العهد الذي بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرد عليهم قائلا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد و لا عقد!

فناشدوهم الله والعهد الذي كان بينهم، أن يرجعوا إلى ما كانوا عليه قبل ذلك قبل أن يلتحم الأمر، وألا يطيعوا حيي بن أخطب. فقال كعب ردا على طلبهم أن يرد العهد الذي بينهم:

لا نرده أبداً، قد قطعته كما قطعت هذا القبال(2) لقبال نعله!

وأخذ كعب بن أسد يسب سعد بن معاذ رضي الله عنه، فرد عليه أسيد بن حضير رضي الله عنه، وذكره بمصير يهود بني النضير الذين حاولوا اغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهدده بأنهم سيحاكمونه بعد أن ينتصروا في المعركة، كان من بين ما قاله له:

---

(1) وردت تفاصيل لقاء وفد المسلمين مع بني قريظة في كثير من المصادر التاريخية، مثل سيرة ابن هشام، والبداية والنهاية لابن كثير، ومغازي الواقدي.

(2) قبال النعل:الزمام الذي يكون بين الإصبع لوسطى والتي تليها، وقد كان لاستخدامه مثل هذا التشبيه إهانة للعهد الذي بينه وبين المسلمين.

لتولين قريش إن شاء الله منهزمة وتتركك في عقر دارك، فنسير إليك، فتنزل من جحرك هذا على حكمنا، وإنك لتعلم النضير، كانوا أعز منك وأعظم بهذه البلدة، ديتك نصف ديتهم، وقد رأيت ما صنع الله بهم!
فأخذ زعماء بني قريظة يسبون الوفد الإسلامي بأقذر العبارات، ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم في كلامهم بأقبح الكلام، فغضب المسلمون، وأخذ سيد الخزرج سعد بن عبادة رضي الله عنه يشاتمهم، قبل أن يطلب منهم سيد الأوس سعد بن معاذ رضي الله عنه الهدوء قائلا: إنا والله ما جئنا لهذا، ولما بيننا أكثر من المشاتمة.
ثم وجه كلامه إلى قادة يهود بني قريظة قائلا: إنكم قد علمتم الذي بيننا وبينكم يا بني قريظة، وأنا خائف عليكم مثل يوم بني النضير أو أمر منه!
فأخذ بنو قريظة يسبون سعداً رضي الله عنه بكلام في منتهى الفحش، فأدرك سعد رضي الله عنه ورفاقه في الوفد الإسلامي أن القوم مصرون على الخيانة ونقض العهد، فرجعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وتقدم سعد بن عبادة رضي الله عنه ليؤكد للرسول صلى الله عليه وسلم أنباء خيانة بني قريظة بطريقة غير مباشرة كما أمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال كلمتين اثنتين فهم الرسول صلى الله عليه وسلم من خلالهما أن القوم قد خانوا العهد: عضل والقارة!(1).

وقع خبر خيانة يهود بني قريظة كالزلزال الذي ضرب معسكر المسلمين، فقد ترك المسلمون أطفالهم ونساءهم آمنين داخل المدينة لكي يشاركوا هم في صد الغزاة، أما الآن فقد أصبح هؤلاء الأطفال والنساء عرضة لوقوع مذبحة كبرى في أي وقت يفتح فيه بنو قريظة بواباتهم الجنوبية للأحزاب، وبعد أيام طويلة من العمل الشاق المتواصل في حفر الخندق لتأمين المدينة، وبعد نجاحهم في صد كل محاولات الأحزاب لاقتحام الخندق، تغيرت معادلة الحرب بشكل دراماتيكي نتيجة لغدر

---

(1) عضل والقارة: قبيلتان من العرب غدرتا بالرسول صلى الله عليه وسلم في السابق، وكان ذكر سعد بن عبادة رضي الله عنه لاسم هاتين القبيلتين إشارة ضمنية لخيانة بنى قريظة.

بني قريظة، وبات المسلمون محاصرين من الأعداء من فوقهم في جهة الشمال، ومن أسفلهم في جهة الجنوب، ويصف الله سبحانه وتعالى ذلك الوقت العصيب في سورة الأحزاب بقوله: " إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (11) "(1). في ذلك الوقت تحرك المنافقون الذين كانوا مدسوسين في معسكر المسلمين، وصاروا يعملون على إثارة الشك والفتنة في صفوف المسلمين، وأخذوا يستهزئون بوعود رسول الله صلى الله عليه وسلم بانتصار الإسلام وانتشار دعوته في الأرض، وبهدف زيادة البلبلة في معسكر المسلمين بدأ المنافقون بالانسحاب من معسكر المسلمين، فأخذوا يستأذنون الرسول صلى الله عليه وسلم لمغادرة المعسكر متحججين بخوفهم على عائلاتهم في المدينة، ويصف الله سبحانه وتعالى موقف المنافقين في تلك لأثناء بقوله:" وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (12) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (13) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (14) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (15) " (1) كثير منا عندما يصطدم بواقع مظلم وظروف صعبة لم يحسب حسابها، يصبح أمام خيارين اثنين، إما الاستسلام والبكاء على الحال التي وصل إليها، وإما التحدي والمقاومة ومواصلة التقدم رغم كل الظروف الصعبة، أما في حالة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الأبطال رضوان الله عليهم، فلم يكن خيار الاستسلام مطروحا بالأساس بالنسبة إليهم، لذلك فقد

---

(1) سورة الأحزاب الآيات 12-15.

رفعوا راية التحدي عاليا، وقرروا مواصلة المقاومة والتصدي للغزاة ومواصلة الطريق إلى نهايته، كائنا في ذلك ماهو كائن!
فبمجرد وصول خبر خيانة بني قريظة للمسلمين، كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "أبشروا يا معشر المسلمين بنصر الله وعونه"(1).
أما الصحابة رضوان الله عليهم، فتعجز كلماتي عن وصف بطولتهم والتحدي العجيب الذي أظهروه، ولا أجد كلاما يصف ذلك التحدي وتلك البطولة التي تمتعوا بها أبلغ من آية نزلت من فوق سبع سماوات لتصف موقفهم العظيم في تلك اللحظة التاريخية الفاصلة: " وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (22) " (1)
وبعد أن اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم قرارهم بالاستمرار في التحدي، بدأ الرسول

---

(1) المغازي للواقدي.
(2) سورة الأحزاب الآية 2 2 .

صلى الله عليه وسلم بالإعداد عن خطة جديدة لكسر تحالف الشر الذي أحاط بهم، وبعد دراسة مفصلة لأحوال الغزاة، أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم أن أضعف حلقة في ذلك التحالف هي حلقة المرتزقة من قبائل غطفان، فهؤلاء المرتزقة لا يقاتلون عن مبدأ أو قضية، بل كان همهم الوحيد هو الحصول على الأموال التي وعدوا بها من اليهود، لذلك أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق جهاز الاستخبارات الإسلامية رسالة سرية إلى قادتهم طالبا منهم القدوم إلى المدينة للتفاوض، وهناك عرض الرسول صلى الله عليه وسلم على غطفان أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة لعام كامل، مقابل انسحابهم من قوات التحالف، فوافق قادة غطفان على ذلك، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم كعادته أراد أن يستشير أصحابه قبل الموافقة على الاتفاق رسميا، خاصة وأنه وبالرغم من كونه قائدا للمسلمين، فإن ثمار المدينة لم تكن ملكا خاصا له، لذلك قرر الاجتماع بزعيمي الأنصار السكان الأصليين للمدينة، فاجتمع بسيدي الأنصار سعد بن عبادة الخزرجي رضي الله عنه وسعد بن معاذ الأوسي رضي الله عنه وعرض عليهم الصحيفة التي بها مسودة الاتفاق الذي لم يعتمد بشكل رسمي بعد، وبعد أن فرغ الرسول رضي الله عنه من كلامه، قال له السعدين رضي الله عنهما يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمرا تحبه فنصنعه؟ أم شيئا أمرك الله به لابد لنا منه؟ أم شيئاً تصنعه لنا؟ فرد رسول الله صلى الله عليه

وسلم: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم.
فقال سعد بن معاذ رضي الله عنه: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك ولا يطمعون أن يأكلوا منا تمرة إلا قرى (هدية) أو بيعا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم!
فوافق رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأي سعد بن معاذ رضي الله عنه وقال له: فأنت وذاك.
فأخذ سعد رضي الله عنه الصحيفة فمحاها، ثم قال بكل تحدي: ليجهدواعلينا! (1).

واستمر المسلمون بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم في معركة التحدي التي خاضوها بكل بسالة وشرف ضد الأحزاب ومن معهم من الخونة والمرتزقة، وبعد أن ثبتوا في وجه الغزاة ورفضوا الاستسلام لهم، جاء نصر الله بطريقة عجيبة..." يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (9) " (2).

وفشلت قوى الشر من تحقيق هدفها في تدمير الإسلام وإبادة المسلمين، وتفكك تحالف الأحزاب مع رجوع كل قبيلة من حيث أتت مهزومة مدحورة، وتوجه المسلمون بعد هذا النصر مباشرة لمعاقبة الخونة من بني قريظة، فتحصنوا في حصونهم خوفا من ملاقاة المسلمين، قبل أن يستسلموا ويقدموا للمحاكمة بتهمة

---

(1) سيرأعلام النبلاء للذهبي.
(2) سورة الأحزاب، الآية: 9 .

الخيانة العظمى والتعاون مع قوات الغزو الأجنبي والتخطيط لتنفيذ أعمال إرهابية وعمليات إبادة جماعية تستهدف الأطفال والنساء في المدينة، فتمت إدانة جنودهم بتهمة الخيانة العظمى وتنفيذ حكم الإعدام عليهم، واستطاع المسلمون إلقاء القبض على العقل المدبر لخطة إبادة المسلمين وصاحب فكرة تحالف الأحزاب الشرير حيي بن أخطب النضري، ونفذ في حقه حكم الإعدام، لتنتهي بذلك حياة هذا الشيطان الذي فكر يوما ما بإنهاء دين محمد صلى الله عليه وسلم!

كانت غزوة الخندق نقطة فاصلة في تاريخ الإسلام، فقد كان تشكيل تحالف الأحزاب هو أقصى شيء يمكن لأعداء الإسلام القيام به، فلما فشل ذلك

التحالف الشرير من تحقيق أهدافه، أدرك سكان الجزيرة العربية أن القوة الإسلامية الوليدة باتت قوة كبرى يحسب لها ألف حساب، فلم يجرأ أحد بعدها على غزو المدينة، فبدأت منذ ذلك التاريخ مرحلة جديدة من عمر الإسلام، وتحول المسلمون بعدها من الدفاع إلى الهجوم، وتمكنوا من تأديب كل القبائل التي غدرت بالمسلمين من قبل، لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن انهزم الأحزاب: "الآن نغزوهم ولا يغزوننا" (٢).

وقبل أن أنهي الحديث عن قصة الخندق، ينبغي أن أذكر بشيء مهم، هذا النصر الكبير الذي تحقق في الخندق، وما أعقبه من تحول سريع من حالة الضعف إلى القوة، حدث بعد أن وصلت فيه حالة المسلمين النفسية إلى أصعب مرحلة يمكن أن يتصورها الإنسان، بعد أن بلغت القلوب الحناجر، وبعد أن ضاقت الدنيا عليهم بما رحبت، وبعد أن اشتدت عليهم وطأة الآلام والأوجاع، وبعد أن حوصروا من الأعداء، وبعد أن خانهم الحلفاء الذين يفترض أن يكونوا عونا لهم، كل هذه المصاعب والمعوقات لم تمنع من تحقيق النصر، بعد أن قرر الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام الاستمرار في الطريق دون توقف أو استسلام أو فقدان للأمل، لذلك فعندما تواجهك مصاعب الحياة، وتحيط بك إلمعوقات من كل جانب، تذكر يوم الخندق، وتذكر الصعوبات التي واجهت الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته، وتذكر كيف جاء الفرج بعدها مباشرة، وكيف تغيرت حالهم بين عشية وضحاها، ولا تنس حينها أن تختار الخيار الصحيح الذي اختاره هؤلاء العظماء، خيار التحدي، وضع أمام عينيك دائما تلك الكلمات الرائعة التي أوصى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: "يا غلام، إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذ سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف"(1).

ولكن لماذا طلب الرسول صلى الله عليه وسلم من أصحابه أن يستبشروا بالنصر في أشد الأوقات صعوبة في معركة الخندق؟ وما هو الشعور الذي رافق رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسيرة حياته.

---

(1) رواه الترمذى.

الأمل

" ... لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (87) "(١)

في ربيع عام 571م، وُلد طفل يتيم في مدينة جبلية تقع في جزيرة العرب يقال لها مكة، مات أبوه قبل ولادته بأشهر، ليأتي هذا الطفل إلى الحياة فاقدا لعطف الأب، فرعته أمه بحنانها، وأرادت إرساله إلى مرضعة في البادية لكي يكتسب جسما قويا ولسانا فصيحا، فعرضته على مرضعات قدمن من البادية لإرضاع أبناء سادات مكة، وبالرغم من أنه كان حفيدا لسيد قبيلة قريش التي كانت تحكم مكة، رفضت كل المرضعات إرضاعه لأنه كان طفلا يتيما لا يملك أبا لإكرامهن، فذهبت كل مرضعة بطفل من الأطفال، ليظل هو وحيدا

---

(1) سورة يوسف الآية 7 8 .

مع أمه دون أن ترضي به أيٍ واحدة منهن، ولم تبق في نهاية الأمر سوى مرضعة فقيرة لم تجد أحداً غيره لترضعه، فقبلت به مرغمة لكي لا تعود مع صاحباتها دون طفل، وبعد أن أتم رضاعته، أرجعته أمه إلى مكة لتعتني به، وعندما بلغ السادسة من عمره، ذهبت به أمه في زيارة إلى المدينة التي توفي فيها أبوه، وفي طريق عودتهم من تلك المدينة، توفيت أمه أمام ناظريه، ليصبح هذا الطفل وهو في السادسة من عمره فقط وحيدا دون أب يرعاه أو أم تضمه بين يديها، هذه المدينة التي ارتبطت بقدر هذا الطفل حتى قبل ولادته كان اسمها مدينة يثرب، وهي نفس المدينة التي سيرتبط
اسمها به إلى الأبد بعد ذلك، وبعد وفاة أمه، رعاه جده الذي حاول تعويضه عن مأساة فقده لوالديه في هذا العمر المبكر، فصب عليه محبته وحنانه، فأحب هذا الطفل جده حبا عظيما، وصار متعلقا به بشكل كبير، بعد أن وجد في قلب جده الدافئ الملجأ الذي يمكن له أن يسكن إليه، ولكن جده ما لبث أن نزل به الموت بعد ذلك بعامين فقط، فأخذ هذا الطفل ذو الثمانية أعوام يبكي خلف سرير جده المتوفى بكاء شديدا، لينتقل بعد فراق جده إلى شخص آخر ليرعاه، هذه المرة عمه الذي كفله بمحبته ورعايته، ومنذ نعومة
أظافره، أخذ هذا الطفل يرعى الأغنام لأهل مكة على قراريط يأخذها منهم، فكان يخلو بنفسه أثناء الرعي يتأمل في الطبيعة، ويحدق في السماء، ويتفكر في معنى الحياة، بعيدا عن زحمة أسواق مكة وضوضاء تجارها، ولما أصبح في عمر الخامسة عشر، صار يرافق عمه في التجارة، ولأنه كانِ فقيرا لا يملك

المال الكافي الذي يؤهله ليصبح من كبار تجار قريش، قرر أن يعمل أجيرا لأهل مكة، فأخذ يتاجر بأموالهم مقابل أجر معلوم، وذاع صيت ذلك الشاب في مكة لما اشتهر به من أمانة وصدق، فسمعت به إحدى سيدات مكة، فأرسلته في تجارة لها، فأدركت صدق ما يشاع عن صدقه وأمانته،
فأعجبت به وبأخلاقه الراقية، فعرضت عليه الزواج فقبل، فتزوجها وهو في عمر الخامسة والعشرين، وأحبها حبا كبيرا، وأحبته هي حبا لا يوصف، وأحاطته بحنانها ورقتها وجمال روحها، وعاشا معا حياة هانئة، ورزقا بولدين وأربع بنات، إلا أن ألم الفراق الذي أحس به طفلا عاد من جديد ليسكن قلبه شابا، فمات ابنه الكبير، ومات بعدها ابنه الثاني، ولكنه كان يصبر على تلك الآلام، ويواسي زوجته على فراق طفليهما الصغيرين، وبالرغم من محبة واحترام قومه له، كان يشعر بينهم بالغربة، فقد رأى في مجتمعه المكي أمورا لم يقبلها قلبه ولم يستسغها عقله، فكان يخرج إلى أحد الكهوف الصغيرة ليخلو بنفسه ويتأمل في الكون ويتعبد الخالق، وعندما صار عمره أربعين عاما، نزل الوحي عليه، فبدأ بدعوة قومه إلى تحريك عقولهم وترك ما ورثوه من أجدادهم من عادات وموروثات ثقافية دينية خاطئة، وبعد أن كانوا يصدقونه في كل ما يقول، انقلبوا عليه بعد أن جاءهم بهذا الدعوة الجديدة، فكذبوه، وسخروا منه، وحاربوه، ولكنه استمر في طريقه، وانضم إليه بعض الأتباع، كان أغلبهم من الشباب والضعفاء، فأخذ زعماء مكة يعذبون أصحابه الضعفاء أمامه لإيقاف مسيرته، ولكنه وبالرغم الألم الذي كان يعتصر قلبه استمر في دربه دون توقف، فساوموه وعرضوا عليه عروضا مغرية مقابل تركه لهذا الأمر، ولكنه رفض كل تلك العروض، فقرروا حصاره وحصار كل من يقف إلى جانبه في أحد شعاب مكة، فكان يسمع هناك صوت النساء والأطفال الذين يصرخون من شدة الجوع، ولكنه لم يسلم الراية لهم، وبعد ثلاث
سنوات من الحصار الخانق، توفي عمه الذي رباه صغيرا ودافع عنه كبيرا، وبعدها بثلاثة أيام، توفيت زوجته الحبيبة التي كات حصنه المنيع الذي يلجأ إليه عندما تصيبه الهموم والأحزان، وبعد وفاة عمه وزوجته، اشتد أذى زعماء مكة له، ففكر باللجوء إلى مدينة أخرى يقال لها الطائف، فسافر إليها سيرا على الأقدام، ولكنه قوبل هناك بالرفض والسخرية والشتائم، فخرج منها مهموما والدماء تسيل منه بعد أن لاحقته شتائم وحجارة صبيانها وسفهائها، وتمكن من العودة إلى مكة بعد أن حصل على حماية أحد ساداتها، ليصبح لاجئا في وطنه، وبعد أن يأس زعماء مكة من استسلامه، قرروا قتله والتخلص منه إلى الأبد، إلا أنه استطاع الهجرة إلى مدينة زراعية تقع إلى الشمال من مكة بعد أن انتشرت فيها دعوته بشكل كبير، هذه المدينة هي نفسها المدينة التي ارتبطت بقدره صغيرا، يثرب، والتي صار يطلق عليها اسم جديد سيبقى مرتبطا به وبدعوته إلى الأبد، المدينة، ولكن قومه لم يتركوه في شأنه، فشنوا عليها الحرب تلو الحرب، فكان يقاوم ظلمهم وطغيانهم بإيمانه وعزيمته، ليخرج من كل مواجهة معهم بشكل أقوى، وحتى عندما كانت تشتد عليه المحن، كان

دائما ينظر إلى الأمام، ويواصل دربه دون توقف، وما هي إلا سنوات قليلة، حتى تمكن من العودة إلى وطنه مكة فاتحا، فأعلن عفوه العام على أهلها الذين اضطهدوه من قبل، ليختار أحد أصحابه الأفارقة من ذوي البشرة السوداء، ممن كانوا يعذبون قبل ذلك بسنوات في طرقات مكة، وأمره أن يصعد عاليا إلى ظهر الكعبة، ليكون أول إنسان في التاريخ يؤذن للصلاة فوق الكعبة، فارتفع الأذان في سماء مكة لأول مرة بصوت ذلك الصحابي الأفريقي، وبعد فتح مكة، جاءت القبائل العربية من مختلف أرجاء جزيرة العرب لتعلن ولاءها التام له واتباعها لدعوته، وبعد وفاته في نفس المدينة التي توفي فيها ابوه، انتشر أصحابه وأتباعه في مختلف أرجاء الأرض ينشرون دعوته، ويحكون حكايته العجيبة للناس، ليتحول ذلك الطفل اليتيم، الذي لم ترض به المرضعات، والذي أصبح بعدها راعيا لغنم أهل مكة مقابل قراريط قليلة، إلى إنسان يتبع دعوته حتى كتابة هذه السطور ما يزيد عن ربع سكان الكرة الأضية!

إذا كات هناك كلمة يمكن لها أن تكون عنوانا يختصر سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ نعومة أظافره وحتى أنفاسه الأخيرة، فهي ولا شك ستكون كلمة الأمل، فالأمل كان هو القاسم المشترك الذي ميز حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل
مراحلها، بل إن حكاية رسول الله صلى الله عليه وسلم هي حكاية الأمل، وهذا ما دفعني لكي يكون الأمل هو الدرس الأخير الذي أختم به هذا الكتاب، ونحن أحوج ما نكون إلى التعلم من هذا الدرس العظيم من دروس محمد صلى الله عليه وسلم ، فكثير منا يظن
نفسه قويا في بداية مسيرته في هذه الدنيا، ولكنه لا يلبث أن يفقد الأمل في مرحلة ما من حياته، بعد أن يواجه رياحا عاتية يصعب عليه مواجهتها، وفي تلك اللحظة التي يفقد فيها الأمل، يتوقف الإنسان عن إكمال مسيرته، معلنا بذلك استسلامه أمام تحديات
الحياة القاسية التي استطاعت تحطيمه من الداخل، أما في حالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان الأمر مختلفا عن ذلك، فقد بحثت في التفاصيل الدقيقة لحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم أثناء عملي على إنجاز مادة هذا الكتاب، وجلست لساعات طويلة متأملا في هول التحديات الرهيبة التي واجهها في فترات حياته المختلفة، فوجدت أنه لم يفقد الأمل أبدا في أي لحظة من تلك اللحظات، بل على العكس من ذلك، كان يواصل التقدم دون توقف، ويحث أصحابه على الاستمرار ومواصلة الطريق، مذكرا إياهم
بالمستقبل المشرق الذي ينتظرهم في نهاية الطريق، فالأمل هو وقود الحياة، وهو الدافع الأكبر لكي يكمل الإنسان طريقه، وقد حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم في كثير من المواقف على زرع روح الأمل في قلوب أصحابه وأتباعه، ليغير هؤلاء الأبطال مجرى التاريخ، بعد أن تعلموا من مدرسة محمد

صلى الله عليه وسلم أن الإنسان لا ينبغي له أن يفقد الأمل أبدا، وأن اليأس لا مكان له في قاموس العظماء!
وبعد...
عندما راودتني فكرة كتابة هذا الكتاب قبل عدة أعوام، كنت متخوفا من مجرد ترديد هذه الفكرة في ذهني، ولولا إحساسي بالمسؤولية وضرورة أن أقدم شيئاً جديدا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الزمن بالتحديد، لربما قضيت العمر كله دون أن أقدم على مثل هذا الخطوة، وها أنا الآن أكتب هذه الحروف الأخيرة من هذا الكتاب مودعا إياها بالدموع حزنا على تلك اللحظات الجميلة التي رافقتني وأنا أكتب في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعلم الله أنني لم أشعر في حياتي كلها بسعادة وطمأنينة وراحة نفسية أثناء الكتابة بمثل ما شعرت بها أثناء عملي في كتاب "مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم "، وعلى عكس ما كنت أتخوف منه، فقط كانت الكتابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسهل وأسرع الأمور التي أنجزتها في حياتي كلها، ولسبب ما لا أعرف تفسيره بشكل محدد كانت المعاني والأفكار تنساب مني شلالاً متدفقاً أثناء الكتابة، على عكس طبيعتي البطيئة التي يعرفها المقربون مني، الأمر الذي دفع بعضهم للتعجب من سرعة إنجازي لهذا العمل الأدبي، ويعلم الله أيضا، كم ازداد حبي واحترامي لهذا الإنسان الرائع بعد أن نقبت في تفاصيل سيرته العطرة، وعايشت أحداثها بقلبي وروحي أثناء الكتابة، بكيت لما مر به من ظروف صعبة لا تقوى الجبال على حملها، وتعجبت من قوته التي كان يملكها وإصراره العجيب على مواصلة طريقه رغم كل ما كان يعترضه من آلام وأحزان، وابتسمت وأنا أتأمل في عبقريته في إدارة الأمور وإيجاد الحلول المبتكرة للمشكلات التي كان يواجهها طيلة فترات حياته، دون أن ييأس ولو للحظة واحدة، ودون أن يحني رأسه إلا لخالقه، كنت أتوقف للحظات طويلة أثناء الكتابة لأتخيل ابتساماته في وجه أصحابه وهو يحفر معهم الخندق، ودموعه وهو يفارق زوجته وأبنائه وأصحابه الذين رافقوه في رحلة الكفاح في شعاب مكة، كنت أتأمل في حنانه وهو يحمل أحفاده ويلاعبهم، ورقته وهو يتعامل مع الحيوانات الضعيفة، كانت همومي وأحزاني تهون علي كلما قرأت في الأهوال الرهيبة التي كانت تواجهه في حياته، كنت أرى فيه الإنسان بكل ما تحمله كلمة إنسان من معنى، واجتهدت قدر استطاعتي على إبراز بعض جوانب هذا الإنسان، كنت أعلم منذ البداية بصعوبة الكتابة عن كل الدروس المستفادة من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنني الآن أدركت أنني كنت مخطئا في اعتقادي هذا، فلقد أدركت أن الأمر يتعدى مرحلة الصعوبة إلى مرحلة الاستحالة، فليس هناك مجال لحصر دروس
مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم في كتاب واحد، لذلك اكتفيت بما كتبت، آملا بالرجوع لكتابة جزء ثان لهذا العمل في المستقبل، لكي أستعرض فيه

بعض الدروس الإنسانية التي لم أتطرق إليها في "مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم "، كالعدل والمساواة ومحاربة العنصرية وغيرها من الدروس، أو ربما أكتب في دروس مستمدة من بقية الأنبياء عليهم السلام، أو دروس من مدرسة الصحابة رضي الله عنهم فإن قدر الله ذلك وأمدني بالعمر والصحة وهيأ لي الظروف المساعدة فسأحرص بكل ما أوتيت من قوة على القيام بذلك بحول الله، أما إذا لم يقدر المولى عز وجل ذلك ولم أتمكن من إنجاز هذا المشروع المستقبلي، فإن الخيرة فيما اختاره الله، وأنا على ثقة تامة أنه سيخرج من قراء هذا الكتاب من سيكمل الطريق، وأن فكرة هذا العمل ستكون مقدمة لأعمال تاريخية مستقبلية تساهم في عودة الأمة الحتمية إلى تبوء مكانتها الحضارية بين أمم الأرض، وأرجو من الجميع الدعاء لي بالرحمة والمغفرة، فلعلني أنال رحمة الله بدعاء أحدكم، ولعلني بذلك أفوز بلقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره أولا بمدى حبي الكبير له، ثم أطلب منه العفو والسماح لتقصيري في الكتابة عنه، وأقرئه مني ومن المسلمين السلام، وأقول له: يا رسول الله، جزاك الله عنا كل خير، إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا

والواقع أن الاستبداد كان الصفة المميزة لكثير من حكام حضارات العالم القديم بشكل عام، ولكن الحضارات الغربية تميزت عن الحضارات الشرقية بأنها كات على مر التاريخ تضع حدا سريعا للمستبدين، فلم يعرف عنهم تأليههم لحكامهم، على عكس الشرقيين الذين ظهر فيهم ملوك وأباطرة ادعوا الألوهية واستعبدوا شعوبهم وسخروهم لخدمتهم وبناء قبور ضخمة لهم، وقد تكرر هذا الأمر في كثير من حضارات الشرق، مثل الحضارات الفرعونية والفارسية والصينية والمغولية والهندية وغيرها، وقد كان العرب استثناء في تلك الظاهرة الشرقية، فقد تميز العرب قديما عن غيرهم من حضارات الشرق بعدم انتشار آفة الاستبداد بينهم، فالعربي بطبيعته المتمردة، التي صنعتها بيئته الصحراوية القاسية، وعاداته البدوية التي تغلب عليها صفات الأنفة والفخر والعزة، يصعب عليه أن ينقاد لأحد، لذلك لم يحدث في تاريخ العرب أن ادعى أحدهم الألوهية، لأن العربي لا يمكنه تخيل أن يكون عبدا لأحد من البشر، وربما كان هذا سبب ندرة وجود ملوك في تاريخ عرب الجاهلية، وحتى عندما ظهر بينهم بعض الملوك الرمزيين، فإن العرب كانوا يضعون حداً لهم إذا ما حاول هؤلاء الملوك إهانتهم، ومن أمثلة ذلك ما حصل للملكين كليب بن ربيعة التغلبي وعمرو بن هند اللخمي، هذان الملكان تم قتلهما مباشرة عندما ظنا أن بإمكانهما الاستبداد بالحكم وإهانة الإنسان العربي، ولعل عرب الجاهلية في هذا الأمر كانوا أقرب للحضارات الغربية من جيرانهم الشرقيين، فقد تميز الغربيون عبر التاريخ برفضهم لاستبداد ملوكهم، وهذا ما أكده الصحابي عمرو بن العاص رضي الله عنه حينما وصف الغربيين، أو الروم كما كانت العرب تطلق عليهم، بقوله: "أمنعهم من ظلم الملوك"(1)، لذلك فإن الغربيين قديما وحديثاً يصعب عليهم تقبل فكرة الانصياع لظلم المستبدين، والأمثلة التاريخية على ذلك كثيرة.

(ا) صحيح مسلم

ويكفينا فقط أن نعلم ما حصل للإمبراطور الروماني كاليغولا(1) هذا الإمبراطور بدأ حكمه بوعود للرومان بأنه سيسير على نهج جده المؤسس أوغسطوس قيصر (2)، وأنه لن يتخذ قرارا دون الرجوع إلى مجلس الشيوخ الروماني، وقد قام بإصلاحات سياسية كبيرة في بداية حكمه، فأعاد للجمعية حق اختيار كبار الولاة، وأعاد المنفيين إلى البلاد، ووعد بتخفيض الضرائب، فأحبه الشعب حبا كبيرا

(1) كاليغولا: ثالث إمبراطور رومافي في التاريخ، اسمه الحقيقي جايوس، وكانت أمه تصحبه معها لرفقة زوجها جرمانيكوس الذي كان من كبار قادة الرومان، فنشأ بين العسكر، وكان يحاول تقليدهم بلبس ملابسهم، فلقبوه تدليلا له بلقب "كاليغولا" وتعني الحذاء الصغير، نسبة ل "اكاليغا" وهوالحذاء الذي كان يلبسه الجنود الرومان، حكم روما منذ العام 37م. وحتى اغتياله عام 1 4م.، ويعتبر كاليغولا أحد أشهر الطغاة في التاريخ الإنساني على الإطلاق، اشتهر بوحشيته وجنونه وتعطشه للدماء وتلذذه بالتعذيب، وكاليغولا هو خال الإمبراطور الروماني المجنون "نيرون" الذي أحرق روما.

(2) أوغسطوس قيصر: أول إمبراطور للإمبراطورية الرومانية، سيطر على روما الإمبراطورية من 27 قبل الميلاد حتى وفاته في19 ميلاديا، وهو أبو جوليا جدة كاليغولا من أمه.

لما أظهره من احترام وتواضع لهم، ولإنفاقه السخي عليهم، لدرجة أن الرومان قدموا لآلهتهم 160 ألفا من القرابين شكرا لها لإرسال كاليغولا ليكون حاكما عليهم .

ولكن مع شعوره بلذة السلطة مع مرور الوقت، وفي ظل ضعف النظام الرقابي، بدأت مظاهر الاستبداد تظهر على كاليغولا، حتى وصل باستبداده لدرجة مرضية من جنون العظمة، فأخذ يقتل ويعذب ويغتصب دون أي اعتبار قانونفي أو رادع أخلاقي، وبعد ذلك استبدت به فكرة أنه إله على الأرض وملك هذا العالم بأسره، فأصدر أوامره إلى قومه بأن يعاملوه معاملة الآلهة، وهو أمر لم يعتد عليه أهل روما الذين لم يسبق لهم أن عبدوا إنسانا على قيد الحياة من قبل، وفي نهاية الأمر قام الرومان بالتخلص من إمبراطورهم المستبد ومن جميع أفراد عائلته بطريقة بشعة، وعملوا بعدها على إزالة أي أثر له من الوجود.

ويوضح الفيلسوف والمؤرخ الأمريكي الكبير ويل ديورانت وزوجته أريل ديورانت التي شاركته في كتابة الموسوعة الشهيرة "قصة الحضارة" أن كاليغولا نفسه كان ضحية للاستبداد الذي سيطر عليه وأفقده اتزانه العقلي، وأن خطر الاستبداد يقع بالدرجة الأولى على المستبد: "ولو أنه أتيحت له حياة هادئة يعمل فيها عملا يتحمل تبعته، لجاز أن يهدئ ذلك من أعصابه، ولكن شم السلطة ذهب بعقله، ذلك أن صحة العقل، كالحكم، تحتاج إلى ضوابط وموازين، وما من أحد من بني الإنسان يسنطيع أن يكون قادرا على كل شيء، وأن يكون في نفس الوقت سليم العقل!"(1)

____

(1) ويل ديورانت وأريل ديورانت ، موسوعة قصة الحضارة الجزء الثاني من المجلد الثالث: قيصر والمسيح.

هذا الرفض الغربي للاستبداد والمستبدين لم يقتصر فقط على كاليغولا المجنون، بل تكرر كثيرا في تاريخ الحضارات الغربية عبر الزمان، وشمل أيضا القادة الغربيين الذين حققوا لشعوبهم ما لم يحققه أحد من القادة قبلهم، هؤلاء عادة ما كان يتم التخلص منهم مباشرة بعد أن ينزلقوا إلى مستنقع الاستبداد، ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك هو ما حصل لأحد أشهر القادة العسكريين في التاريخ الإنساني على الإطلاق، القائد اليوناني الشهير الإسكندر المقدوني، المعروف باسم الإسكندر الأكبر(1)
هذا القائد اليوناني استطاع وهو في عمر الثلاثين فقط أن يكون إمبراطورية امتدت مساحتها من حدود صحراء ليبيا وسواحل البحر الأيوني غربا وحتى سلسلة جبال الهيمالايا شرقا، بعد أن ضم إلى ملكه معظم بلاد اليونان ومصر والعراق

____

(1) الإسكندر الأكبر: هو أحد ملوك مقدونيا الإغريق، ومن أشهر القادة العسكريين والفاتحين عبر التاريخ، ولد سنة 356 ق.م، وتتلمذ على يد الفيلسوف والعالم الشهير أرسطو.

والشام والأناضول وبلاد فارس وأفغانستان وباكستان وصولا للهند وآسيا الوسطى، ولكن يبدو أنه أصيب في نهاية المطاف بآفة الاستبداد، وأعجب بفكرة تأليه الملوك التي شاهدها في حضارات العالم الشرقي التي غزاها، خاصة بعد أن حاول كهنة الفراعنة الذين جبلوا على العبودية لفراعنتهم أن يقنعوه بأنه ابن لآلهتهم، فاتخذوه فرعونا جديداً لهم، ونصحوه بزيارة معبد آمون في واحة سيوة لكي يقال الآلهة هناك ليتأكد منها بنفسه بأنه إله يمشي على الأرض، و فعلا زار الإسكندر معبد آمون في سيوة، وخرج من المعبد بقناعة أنه إله حقيقي، وزاد من حماسه بفكرة ألوهيته ما رآه في بلاد فارس من تأليههم لأكاسرتهم، وكان كهنة الفرس قد جبلوا أيضا على العبودية لملوكهم، فأبدوا استعدادهم له لاعتباره إلها جديدا لهم، وبعد أن رسخ هذا الجنون في رأس الإسكندر أمر جنوده الإغريق بالانحناء له عند تحيته وإرسال قبلة له في الهواء، وهو أمر يصنعه الإغريق عادة لآلهتهم فقط، فرفض جنوده هذا الأمر، وأخبروه بأنهم يعتبرونه ملكهم وقائدهم العسكري الذي يقودهم للفتوحات وليس إلها يعبدونه، وهو الأمر الذي عمل على تعكير صفو العلاقة

بين الإسكندر وجنوده، ودفعه إلى تعيين قادة عسكريين من الفرس أظهروا له الطاعة العمياء دون نقاش، ويقال أن الحمى المفاجئة التي أصيب بها الإسكندر في العراق وأدت إلى موته المبكر في عمر 32 عاما كانت نتيجة لعملية اغتيال تعرض لها الإسكندر عن طريق دس السم له في شرابه من قبل جنوده الإغريق الذين ضاقوا ذرعا بطغيانه واستبداده، وبعد أن سئموا رغبته في عبادته كإله(1)، خاصة وأن اليونانيين كانوا يقدسون الحرية، ويعتبرونها خطا أحمرا لا يمكن تجاوزه، خاصة وأن تقاليد الحرية وأنظمة التشاور التي توارثوها أبا عن جد كات سببا في إنقاذ بلادهم في السابق من الاجتياح الفارسي الرهيب، وذلك بعد انتصارهم التاريخي الكبير في معركة سالاميس الفاصلة:

فقبل ولادة الإسكندر بنحو 100 عام، اشتعلت شرارة

---

(1) وثائقي قناة ناشيونال جيوغرافيك الأمريكية: إنتاج 2004.

الحروب المعروفة ب "الحروب اليونانية الفارسية" ، وهي سلسلة حروب بين الامبراطورية الأخمينية الفارسية والدويلات اليونانية المتفرقة، بدأت في عام 499 ق.م وانتهت في449 ق.م.، وقد عملت نظم التشاور المتقدمة التي سادت في أثينا اليونانية في ذلك الوقت على حماية اليونان بأسرها من الوقوع تحت سيطرة الغزو الفارسي الذي اجتاحت جيوشه الجرارة كثيرا من مدن اليونان في ذلك الحين، ففي حين تعود الأثينيون على التشاور فيما بينهم في اتخاذ القرارات، كان الفرس يتبعون دون مناقشة أوامر ملكهم خشايارشا الأول، المعروف أيضا بزركسيز الأول وقد كان هذا الملك الفارسي المستبد وفقا لما ذكره المؤرخ اليوناني الأشهر هيرودوتوس (1) يضع بعض خطط

(1) هيرودوتس: ويلقب بأبي التاريخ، أشهر مؤرخي اليونان على الإطلاق، عاش في القرن الخامس قبل الميلاد (484ق.م-425ق. م). عرف بفضل كتابه لشهير "التاريخ" الذي يصف فيه أحوال البلاد التي زارها والناس الذين التقاهم، إضافة لكثير من الأحداث التاريخية التي وثقها في كتاباته العديدة، خاصة أحداث المعارك الفارسية اليونانية، ويعتبر هيرودوتس أول كاتب في التاريخ يتناول المواضيع التاريخية مستخدما أسلوب التحقيق المنهجي القائم على جمع المواد التاريخية ومن ثم ترتيبها على شكل سرد تاريخي، وبالرغم من عدم خلو كتاباته من بعض المبالغات التاريخية، فإن هيرودوتس يعتبر بشكل واسع رائد علم التاريخ بلا منازع.

الحرب الحاسمة وفقا للمنامات التي كانت تأتيه(1)، في حين كان الأثينيون يتبعون نظاما متقدما للتشاور فيما بينهم، سمح لكل واحد منهم أن يبدي رأيه الخاص بكل حرية، فكان من ثمرة اتباع هذا النظام أنهم توصلوا لخطة محكمة تقضي بإخلاء مدينة أثينا من السكان لكي يحرقها الفرس، ومن ثم استدراجهم لخوض معركة بحرية حاسمة يتحدد من خلالها مصير اليونان إلى الأبد، وقد رفع المجلس الاستشاري اليوناني توصياته للقادة العسكريين أن يكون موقع تلك المعركة البحرية المصيرية في مضيق بحري استراتيجي يسمى مضيق سالاميس الواقع بين البر اليوناني وجزيرة سالاميس.
وكانت خطة أثينا العسكرية تقضي باستدراج سفن الغزاة إلى داخل هذا المضيق البحري الضيق، وبالتالي ستنحصر القوة العددية للأسطول الفارسي الضخم، لتكون سفن العدو صيدا سهلا لسفن اليونان التي تنتظرها في نهاية المضيق!

وبالفعل...

---

(1) الكتاب السابع لهيرودوتوس.

تم استدراج الفرس إلى المصيدة بعد أن أظهرت بعض السفن اليونانية هروبها من أمام سفن الأسطول الفارسي، وكعادة المستبدين لم يستجب الملك الفارسي زركسيز الأول لنصيحة الملكة اليونانية المتعاونة مع الغزاة آرتميسيا الأولى والتي بحكم معرفتها لطبيعة بلادها وشعبها اليوناني نصحت الملك الفارسي بعدم خوض تلك المعركة البحرية الخطيرة، وحسب رواية هيرودوتس، فإن الملكة أرتميسيا أشارت إلى هذا في حديث لها مع زركسيز قبل أن يمضى قدماً في حملته، حين أخبرته أن القتال في البحر كان مخاطرة لا لزوم لها، ولكن الملك الفارسي لم يستمع لنصيحتها، وتقدم بسفنه إلى داخل المضيق المجهول، وعندما أصبح الفرس داخل المصيدة اليونانية، سمعوا من خلف الأمواج صوتا لنشيد يوناني يتردد صداه من بعيد:

تقدموا يا أبناء الإغريق، حرروا بلادكم، حرروا أطفالكم، نساءكم، معابد آلهة آبائكم، قبور أجدادكم، حان الآن وقت النضال في سبيل كل شيء! (1).

ليتفاجأ الفرس أن من يردد هذا النشيد هم جنود الإغريق الذين توحدوا في أسطول يوناني كبير تحت قيادة شرفية من أسبرطة، وقيادة ميدانية من أثينا، كان على رأس هذا الأسطول اليوناني الموحد القائد الأسبرطي النبيل يوريبياديس ، بينما تولى قيادة عمليات التحالف اليوناني بطل معركة مارثون(2) التاريخية قبل ذلك بنحو 1 0 أعوام القائد الأثيني الأسطوري ثيمستوكوليس الذي تمكن

---

(1) ردد اليونانيون هذا النشيد العسكري المعروف ب "بيان" مع انطلاق شرارة المعركة، وفقا لما ذكره الروائي المسرحي التراجيدي اليوناني إسخيلوس الذي شارك بنفسه في هذه المعركة البحرية.

(2) معركة ماراثون 490 ق.م. هي المعركة الحاسمة التي تمكنت فيها قوات أثينا من صد محاولة الفرس الأولى لاحتلال اليونان زمن الملك داريوس الأول والد الملك زركيز الأول، وقد وقعت المعركة في سهل "ماراثون" على بعد بضعة أميال من أثينا، وقد بعث الأثينيون قبل المعركة بأحد العدائين واسمه فيديبيدس إلى أسبرطة طلبا للنجدة، فأخذ هذا العداء الأثيني يجري بسرعة حتى وصل إلى هدفه، ومن هذه المعركة خرجت فكرة مسابقات الماراثون الرياضية، وتم تحديد المسافة بين سهل ماراثون وأثينا المقدرة ب40 كيلومتراً لتكون المسافة المخصصة لسباقات الماراثون إلى يوم الناس هذا.

خلال لحظات قليلة من بدء المعركة من مباغتة العدو وتدمير أسطوله البحري تدميرا ساحقا، لينتصر التحالف اليوناني على أسطول الإمبراطورية الفارسية وحلفائها، وذلك في سبتمبر من عام480 ق.م. في معركة سالاميس المصيرية

ويعتقد كثير من المؤرخين الغربيين بأن معركة سالاميس البحرية كانت نقطة فاصلة في تاريخ الإنسانية، ويرون أن هذه المعركة لم تنقذ اليونان فقط، وإنما أنقذت أوروبا بأسرها من الوقوع تحت حكم الفرس، بينما يذهب بعضهم بأن هذه المعركة كانت لها أبعاد ثقافية أكثر عمقا، حيث رأوا أن الصراع بين الفرس واليونان كان بمثابة صراع فكرين متقابلين، أحدهما استبدادي يعتقد بألوهية الحكام ويمنع مناقشتهم في قراراتهم، والآخر تشاوري قائم على إعلاء قيم الحرية ومشاركة الجميع في اتخاذ القرارات، لذلك رأوا أن معركة سالاميس

أنقذت الحضارة الغربية بأسرها من انتشار آفة الاستبداد وتأليه الحكام، خاصة وأن الإغريق بعد هذه المعركة المصيرية عملوا على مطاردة الغزاة الفرس وطردهم من اليونان وأوروبا بشكل نهائي، فاستطاعوا بعد عام واحد فقط الانتصار عليهم في معركة بلاتيا الحاسمة عام 9 47 ق.م. التي وضعت نهاية لحلم الفرس باجتياح أوروبا، ومنذ ذلك التاريخ تحولت اليونان من الدفاع إلى الهجوم، واستطاع اليونانيون فيما بعد بقيادة الإسكندر الأعظم اجتياح المستعمرات الفارسية في آسيا، وفي عام 331 ق.م. هاجمت القوات اليونانية عاصمتهم في قلب بلاد فارس، ليضعوا بذلك نهاية للإمبراطورية الفارسية الإخمينية، الإمبراطورية العظيمة التي ضيعت فرصة اجتياح بلاد اليونان قبل ذلك بسنوات قليلة، بعد أن اتبع الفرس الخطط الغبية التي كانت نتاجا لأضغاث أحلام ملكهم المستبد، مقابل خطط عسكرية يونانية محكمة ؤضعت لمواجهتهم وفق دراسات علمية وواقعية، استطاع الأثينيون من خلالها تغيير التاريخ بأسره، ليس لأنهم كانوا الأقوى أو الأكثر عدداً وسلاحا، بل لأنهم وبكل بساطة اعتمدوا مبدأ التشاور! (1).

مبدأ الشورى تجلى في أبهى صوره في عهد دولة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وكان لاتباع هذا النهج السليم في إدارة الحكم أثر كبير في نجاح هذه الدولة الوليدة، بالرغم من كل التحديات الكبيرة التي واجهتها، لذلك فإن الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(1) تعتبر كتابات هيرودوتس المصدر الرئيسي الذي ذكرت فيه تفاصيل هذه الحروب، وقد عاصر هيرودوتس أحداث الغزو الفارسي لليونان، ويعتقد أنه شارك بنفسه في معركة سالاميس المصيرية.

كان يشجع أصحابه على إبداء آرائهم بكل حرية، وكان عادة ما يستشيرهم في قرارات الدولة، وكان يستمع بكل تواضع إلى اعتراضاتهم على اجتهاداته السياسية، وفي أكثر من مناسبة كان يتراجع عن رأيه الشخصي ويأخذ بآراء أصحابه فيما يتعلق بأمور الدولة، وقد نجح الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك في صناعة جيل كامل من الأحرار الذين تحدوا استبداد قريش ومن معها، وهم نفس الأحرارالذين سيقومون بعد ذلك في تغيير مجرى التاريخ، فقد كان

أستاذهم محمد صلى الله عليه وسلم يدرك تمام الإدراك أن الأحرار فقط هم من ينجحون في تغيير التاريخ، وأن هذا الدين لن يستطيع رفع رايته من بعده أشخاص مسلوبو الإرادة تطبعوا على الطاعة العمياء وعبودية البشر، فقد أثبت التاريخ أنه لا يمكن الاعتماد على مثل هؤلاء العبيد الذين تمرسوا على عبادة البشر، فهؤلاء مستعدون لتغيير ولاءاتهم لكل من يملك القوة، حتى وإن كان من يملك القوة عدوا لوطنهم أو دينهم، ككهنة الفراعنة والفرس الذين كانوا مستعدين لعبادة الإسكندر الذي احتل أرضهم وارتكب المذابح في حق أبناء وطنهم، أما أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فقد كانوا يسيرون وفق قاعدة واضحة علمهم إياها أستاذهم الأعظم رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق " (1).لذلك لم يكن مستغربا أن يظهر من بين أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إنسان حر مثل ربعي بن عامر التميمي رضي الله عنه، الذي وقف أمام القائد العام لقوات الإمبراطورية الفارسية الساسانية رستم فرخزاد مباشرة قبل معركة القادسية الفاصلة عام15هـ 636م، ليشرح للقائد الفارسي أن الإسلام جاء لتحرير البشر من عبودية البشر، فقال ربعي بن عامر رضي الله عنه لرستم:" الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام"(2).

---

(1) رواه ابن حجر العسقلاني في تخريج مشكاة المصابيح، والسيوطي في الجامع الصغير، والهيثمي في مجمع الزوائد، والدارقطني في تاريخ بغداد، وابن القيم في أعلام الموقعين، وابن عبد البر في الاستيعاب، وغيرهم.

(2) البداية والنهاية لابن كثير.

ولم يكن من المستغرب أيضا أن المستبدين من القادة والزعماء والملوك قرروا محاربة الرسول صلى الله عليه وسلم، فدعوة الإسلام بما تحمله من مبادئ للحرية والمساواة والعدل تتعارض بالضرورة مع مصالح هؤلاء المستبدين، وقد فطن لهذا الأمر المثنى بن حارثة الشيباني رحمه الله ، عندما سمع من الرسول صلى الله عليه وسلم ما يدعو له الإسلام من مبادئ تحررية، فقال للرسول

صلى الله عليه وسلم: "ولعل هذا الأمرالذي تدعونا إليه مما تكرهه الملوك"(1).

فعلى عكس ملوك فارس المستبدين الذين تحدث عنهم المثنى رحمه الله بحكم مجاورة قبيلته لأراضي الإمبراطورية الفارسية، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يزرع في أصحابه قيم الحرية ومنهجية مشاركة الفعالة في اتخاذ القرارات، وينأى بهم عن التعود على فكر الاستبداد الذي من شأنه تدمير أقوى الدول وإنهاء أعظم الحضارات، والأمثلة على ذلك كثيرة، لعل من

---

(1) أخرجه ابن حبان في الثقات، والبيهقي في الدلائل، وابن عساكر في تاريخ دمشق

أبرزها ما حصل في غزوة الخندق، أو كما يطلق عليها أيضا غزوةالأحزاب: ففي العام الخامس للهجرة، الموافق 627م، وبعد إجلاء يهود بني النضير من المدينة نتيجة لاكتشاف محاولتهم الفاشلة لاغتيال رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك بعام، خطط زعيم بني النضير حيي بن أخطب النضري للانتقام من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأخذ يتنقل بين القبائل العربية في محاولة إقناعهم بتشكيل تحالف عسكري كبير لقتال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبالفعل نجح حيي بن أخطب في تشكيل تحالف جرار يتكون بالأساس من أعداء الإسلام الذين رأوا في هذا التحالف فرصة ثمينة للقضاء نهائيا على دولة الإسلام الناشئة، كان على رأس هؤلاء قبيلة قريش، إضافة لقوات من المرتزقة الذين انضموا للتحالف مقابل الأموال التي وعدوا بها، هؤلاء تشكلوا بالأساس من مرتزقة قبائل غطفان الذين كانوا يعملون كقطاع للطرق في زمن الجاهلية، فتشكل تحالف جرار من 10 آلاف مقاتل ينتمون لقبيلة قريش ومرتزقة من قبائل غطفان من بني فزارة وبني مرة وبني أشجع، وضم هذا التحالف أيضا قوات تابعة لقبائل يهود بني النضير ويهود خيبر وبني أسد وبني سليم، وانضم لهذا التحالف فيما بعد يهود بنو قريظة، وأشركت قريش في هذا التحالف الكبير حلفاءها المعروفين باسم الأحابيش، والأحابيش هم الاسم الذي كان يطلق على تحالف مكون من سكان مكة ممن لا ينتمون لقبيلة قريش، وكان الأحابيش

يتكونون بالأساس من أفراد ينتمون إلى قبائل عربية مختلفة، لا سيما قبيلة كنانة، وأفراد من أصول غير عربية ينتمون إلى جنسيات مختلفة، لا سيما الحبشة، استقر بهم المقام في مكة بسبب التجارة أو الأسر أو غير ذلك من الأسباب، وقد أختلف في سبب تسميتهم بالأحايش، فقيل لأنهم تجمعوا بجبل "حبشي" في مكة، و قيل لأنهم تحبشوا أي تجمعوا فيما بينهم، وقيل أيضا نسبة للحبشة التي تعود إليها أصول كثير من الأحابيش، وقد كان عدد الأحابيش كبيرا في مكة، وكانوا يشكلون قوة سكانية وعسكرية كبيرة، خاصة أنهم تجمعوا تحت قيادة واحدة ممثلة بالحليس بن علقمة الحارثي(1) .

---

(1) الحليس بن علقمة الحارثي: كان أحد الذين خرجوا لمفاوضة الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديبية، فلما رأى الهدي مع المسلمين ولاحظ مظاهر خروجهم للعمرة، رجع لقريش دون أن يكلم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأخبر قريش بما رأى، فقالوا له؛ "اجلس، فإنما أنت أعرابي لا علم لك"، فغضب منهم وقال: "يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيصد عن بيت الله من جاء معظماً له؟ والذي نفس الحليس بيده، لتخلن بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد"، فقالوا له: " مه، كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به".

وبعد تكوين تحالف الأحزاب الجرار، بدأت قواتهم العسكرية بالتحرك نحو المدينة في محاولة أخيرة وحاسمة لإنهاء دولة المدينة عن بكرة أبيها، فلما وصلت المسلمين أنباء تحركات هذا التحالف نحو مدينتهم، أسرعت القيادة العامة للمسلمين ممثلة برسول الله صلى الله عليه وسلم بعقد مجلس استشاري طارئ لمناقشة كيفية التصدي لزحف الغزاة، وأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يستمع إلى مقترحات أصحابه ووجهات نظرهم، فتقدم أحد الصحابة بمقترح عجيب لخطة دفاعية لم تكن معروفة في بلاد العرب، كان اسم هذا الصحابي روزبه بن يوذخشان، وهو رجل فارسي هاجر من أصفهان الفارسية منذ ما يزيد عن عشرين عاما قبل ذلك بحثاً عن الدين الحق، وتنقل
بعدها بين بلدان عديدة في مغامرة مثيرة، ليتم اختطافه في نهاية الأمر من قبل بعض قطاع الطرق الذين باعوه ليكون عبداً ليهودي من

بني قريظة يعيش في المدينة، وهناك قابل الرسول صلى الله عليه وسلم بعد هجرته مباشرة وأعلن إسلامه بين يديه، ولكنه لم يتمكن من الالتحاق بصفوف المسلمين لأنه كان ما يزال عبدا فاقدا الحرية، الأمر الذي حال دون مشاركته في غزوتي بدر وأحد، بعد ذلك قام الرسول صلى الله عليه وسلم بحملة لجمع المال لدفعه لسيده اليهودي مقابل تحريره، ليتمكن في نهاية الأمر من الانضمام إلى بقية إخوته المسلمين، ويشارك في مجلس الشورى الذي عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك الأثناء لبحث تداعيات التحركات العدائية نحو المدينة، روزبه بن يوذخشان هو نفسه الصحابي الجليل الذي عرف في التاريخ باسم سلمان الفارسي رضي الله عنه!

فما هي تفاصيل تلك الخطة الدفاعية الفارسية التي فاجأت الغزاة؟ وما الذي دفع الرسول صلى الله عليه وسلم لتجربة مثل هذه الخطة الجديدة التي لم يستخدمها أحد من قبله في جزيرة العرب؟
